الثورة الفرنسية

آخر كتاب للدكتور لويس عوض



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٢

تصــدير

بالرغم من اشتداد وطأة المرض على شقيقى المرحـوم الدكتور لويس عوض فانه تشبث بالقلم حتى النزع الأخـير بعزم صـادق وارادة من حديد · ولا غرو فالقلم كان كل حياته وليس بعضا منها · والأمر الذى يوجع القلب أن القلم الذى ظل راسخا وشامخا كالطود طيلة عمره بدأ يهتز فى مقالتيه الأخيرتين عن دانتـون وروبسبير · ويكفى لويس عوض شرفا وفخرا ان أوراق عمره ذبلت ثم تساقطت ولكن قلمه لم يسقط من يده أبدا بل امتشقه دوما على نحو ما يمتشق الفارس حسامه ·· وأنه استقبل الموت صامتا دون وجل ثابت الجنان رابط الجأش مثل دانتون الذى قال فى ختام مقاله عنه : « ان الحياة أصبحت عبئا على ، وأنا أستقبل الموت بصبر نافد » · فضلا عن انه آخر ما كتبه قبل أن يصمت الى الأبد (وهى تلك الكلمات التى اختتم بها مقاله عن روبسبير) ليست سوى دفاع نبيل ومجيد عن ضرورة سيادة القانون ودعوة رجـل يحتضر الأحيـاء من بعـده الى الاعتصام به ·

عاش لويس عوض ثائرا ومات ثائرا فمنذ نحـو خمسين عاما ترجم « بروميثيوس طليقا » للشاعر شيلى سـيد الثوار جميعا ٠ وها هو قبل رحيله مباشرة يولى اهتمامه بالثورة الفرنســية التى ألهمت شيلى وكافة الرومانسيين بأفكارهم الثـورية ٠ فما أشـبه الليلة بالبارحة !

لقد حاولت قدر جهدى عن طريق الحذف والاضافة فى أضيق الحدود أن أغـير بعض الكلمـات الواردة فى مقالتيه الأخيرتين عن دانتون وروبسبير حتى تبدو صياغتهما متماسكة كما عودنا على ذلك الراحـل العظيم ٠ فاذا كانت محاولتى ضلت الطريق أو أنهـا لم تؤت ثمارها المرجوة فيجب على أن أتحمل المسئولية كاملة ٠

وختاما لابد لى أن أعترف أن الفضل فى تجميع هذه المقالات يعـود الى ابن عمنـا المهندس فوزى حبشى الذى يكن للفقيد كل اعجاب وتقدير ، وانى أشكر الزميلة الدكتورة الين ابراهيم جرجس لمراجعها الأسماء الأجنبية الواردة فى هذا الكتاب ٠

١٩٩١/٥/٤ رمسيس عوض

١ ـ سقوط الباستيل

احتفل الفرنسيون هذا العام « ١٩٨٩ » بمرور مائتى سنة على الثورة الفرنسية « ١٧٨٩ » باحتفالات رسمية ومهرجانات شعبية بلغت قمتها فى ١٤ يوليو ، وهو تجديد ذكرى سقوط الباستيل • و ١٤ يوليو قد أصبح منذ أكثر من قرن عيد فرنسا الوطنى أو القومى ، ففيه يرقص الفرنسيون مساء فى الشوارع والميادين العامة حتى الثالثة صباحا أما الدولة فتجرى فى باريس استعراضاتها العسكرية سنويا بطول الشانزيليزيه حتى قوس النصر فى ميدان الايتوال « شارل ديجول » حيث الشعلة الدائمة على قبر الجندى المجهول •

ومنذ ان عرفت باريس فى ١٩٣٧ شاركت ملايين المتفرجين عدة مرات فى هذه الاحتفالات ، وفى الليل رقصت فى الشوارع

● نشرت بجريدة الأهرام
بتاريخ ١٩٨٩/٧/١٥ •

مع الشباب من أبناء جيـلى على « الفالس موزيت » المنبعث من آلاف الاكورديونات فى ميادين باريس وقهاويها · وكانت اخر مرة أشارك فيها فى هذا الفرح العام فى ١٤ يوليــو ١٩٤٧ ، وهو عام زواجى فى سن الثانية والثلاثين وكأنما خرجت فجأة من سن الشباب الى سن الرجولة والوقار ! ··

ومع ذلك فقد كنت أحس كلما زرت باريس فى الصيف ان أفراح ١٤ يوليو كانت تجرى أحيانا فى جـو من الكآبة والانقباض بين المواطنين الفرنسيين الذين يحملون دائما عواطفهم على وجوههم، بحسب همومهم الاقتصادية والسياسية ، وكأنها ترمومتر حقيقى لحالة الشعب الفرنسى ، وكانت تجرى أحيانا فى جو من النشـوة والانتصـــــار ·

وكنت قبل ثورة ٢٣ يوليو اقرأ سنويا فى الصحف المصرية عن مشاركة الجاليـــات الأجنبية فى احتفالات ١٤ يوليــو باقامة الحفلات الراقصـــة فى نواديهـــم فى القاهرة والاسكندرية ومنطقة القنال ، كنوادى الجريج والشوام والأرمن واليهود · وكانت تبدو لى ابتهاجات مزيفة وغير مفهومة ، فقد كنت أجـــد صعوبة فى فهـم ابتهاج اللبنانى أو السورى بعيد الحرية فى فرنسا أيام استعمار فرنسا للبنان وسوريا ·

وعلى الجملة فقد كان المصريون قبل الثورة الناصرية يعدون الأجــانب المحليين ، وكانــوا نحو ثلاثة أرباع المليــون ، من ركائز الاستعمار الأوروبى فى مصر لأنهم كانوا قابضين على الاقتصـــــاد المصرى بيد من حديد · ومنذ ثورة ١٩٥٢ وهجرة الأجانب المحليين الى بلادهم أو الى بــلاد الغير انقرضت فى مصر احتفالات ١٤ يوليــو « الشعبية » ولم يبق لها أثر الا فى الاحتفال الرسمى الذى تقيمه السفارة الفرنسية بالقاهرة سنويا ·

وكلما ذكرت الثورة الفرنسية ذكر زوال ذلك الرمز الباقى فى خيال الأجيال وهو الباستيل ، فسقوط سجن الباستيل أو قلعة الباستيل فى أيدى ثوار الثورة الفرنسية كان أهم علامة مميزة لانتصار الثوار وكان البداية الحقيقية لسقوط المجتمع الاقطاعى فى فرنسا • كذلك ذكرت شعارات الثورة الفرنسية الثلاثة ، وهى الحرية والمساواة والاخاء، وذكر معا اعلان حقوق الانسان الذى تبلورت فيه فلسفة الطبقات الاجتماعية الجديدة ، المتوسطة والمتوسطة الصغيرة والشعبية التى اغتصبت السلطة من أيدى الملكية المطلقة والطبقة الارستقراطية ورجال الدين ووضعت الحق الطبيعى أساسا للعقد الاجتماعى بدلا من الحق الالهى •

كذلك ذكرت أسماء عشرات من عمالقة الثوار فى التاريخ مثل دانتون وروبسبيير ومارا وسان جوست وهيبير وديمولان وكوندورسيه وأندريه شنييه ومدام رولان وبابيف كلهم ماتوا على المقصلة فى أقل من خمس سنوات ، وذكر معهم عشرات من جهابذة الخطابة والسياسة حافظ أكثرهم على أعناقهم رغم انهم كانوا فى مقدمة الثوار حتى انجلى الاعصار فماتوا على فراشهم ، مثل ميرابو وسييز وتاليران وفوشيه •

وأهم من كل هؤلاء ذكر نابوليون بونابرت صاحب الغزوات الكاسحة والعبقرية العسكرية الفذة التى لم يعرف لها العالم نظيرا منذ تحتمس الثالث ورمسيس الثانى والاسكندر الأكبر ويوليوس قيصر • فهو الذى صدر الثورة الفرنسية الى العالم بعد ان أنقذها فى فرنسا من الحكام الفاسدين بمثل ما أنقذها الحكام الفاسدون من الحكام المجانين • وجد نابوليون بونابرت أبناء الثورة الفرنسية يأكل بعضهم بعضا ، فوجه هذه الطاقة البركانية الى الخارج ليأكل الفرنسيون غيرهم من الأمم • فى البداية فعل هذا تحت رايات الثورة فلما استتب له الأمر فعل ذلك تحت رايات فرنسا •

وأهم من هذا وذاك انه كلما ذكرت الثـــورة الفرنســية ذكر الناس كيف دخل الشارع الفرنسى طرفا ايجابيا فى تقرير مصيره لأول مرة فى تاريخه • ومنذ ذلك التاريخ انتقلت العدوى الى كل ثورات العالم القديم والجديد • ومن يتأمل اليوم اعلام الدول يجد أكثرها مثلث الألوان على غـرار « التريكولور » الفرنسى : الأزرق والأبيض والأحمر ، رمزا لشعارات الحرية والمساواة والاخاء ، كل شعب يترجمها الى الوانه الخاصـــة بتاريخه ، أو بمفهومه الخاص لفلسفة الحياة • ولم يكن الشـــارع الفرنسى يطالب بالخبز وحده ولكنه كان يطالب أيضا بحقوق الانسان •

★★★

وربما كانت افضل بداية للكلام عن الثـــورة الفرنسية هى الكلام عن الباستيل وسقوط الباستيل •

ومنذ سنوات وهنـــاك عشرات الكتب وعشرات البحوث التى تصدر عن الباستيل ، وأكثرها تقول نفس الأشياء ، ولكن بلهجات مختلفة ، تبين موقف المؤرخين من الثورة الفرنسية نفسها •

وقد كان آخر كتاب قراته عن « الباستيل » بقلم كلود كيتيل Claude Quetel رئيس الجمعية التاريخية الدولية ، وهو ينطوى على استهانة واضحة بسقوط الباستيل وايحاء بأن الأسطورة فيه أكثر من الحقيقة • فهو مثلا يجسم دور الباستيل كمعتقل لمجرمى القانون العام بما يهون من دوره كمعتقل للخوارج الســـياسيين • وهو يمعن فى تذكيرنا بأن الآلاف المؤلفة من الجماهير التى استولت على الباستيل لم تجد فيه الا سبعة أشخاص نصفهم من المجانين • وواضح من كل هذه البحوث انها منحازة ضد الثورة الفرنســية متعاطفة مع الارستقراطية الزائلة • وهنـــاك اتجاه واضح بين أبناء البورجوازية العليا فى فرنسا وبعض شرائح المثقفين المحافظين فيها

الى ادانة الثورة الفرنسية جملة بدعوى غزارة ماسفكت من دماء وبدعاوى كثيرة أخرى ٠

وقد كان فى فرنسا أيام شبابى حزب ملكى كاريكاتورى كان يرأسه الكونت دى باريس ، وهو طبعا كونت مزعوم ، لأن فرنسا ألغيت فيها الألقاب منذ الثورة الفرنسية ٠ ولكن رغم كل هذه التحفظات اليمينية فالفرنسيون ، حكومة وشعبا ، لايزالون فى مجموعهم يمجدون الثورة الفرنسية كل بحسب الجناح الذى ينتمى اليه ٠ وقد لاحظت فى العقود الأخيرة اتجاها الى اكتشاف روبسبيير ، « بعبع » الثورة الفرنسية ومعه سان جوست ، « كبير ملائكة الموت » كما سماه المؤرخ العظيم ميشليه ٠ أما نابوليون ذو الحروب الكثيرة ، فقد كنت دائما أقرأ فى كتب الماركسيين انه « صفى » الثورة الفرنسية منذ انقلاب ١٨ برومير واستيلائه على السلطة فى فرنسا٠

وقد قرأت للرئيس ميتران مؤخرا بيانا عن حقوق الانسان يقول فيه انه يتمنى ان يأتى اليوم الذى تتحطم فيه كل بساتيل العالم كما قال ميشليه ٠ ان التقدميين الفرنسيين لايزالون قادرين على الحلم الكبير ٠

★★★

كتب ميشليه فى كتابه العظيم « الثورة الفرنسية » يقول : « فى ١٣ يوليو لم تكن باريس تحلم الا بالدفاع عن نفسها ٠ وفى ١٤ يوليو انتقلت من الدفاع الى الهجوم ٠

« فى مساء ١٣ يوليو كانت سماؤها لاتزال ملبدة بالشكوك ٠ أما فى صباح ١٤ يوليو فلم تعد لديها شكوك ٠ فى المساء كان هناك اضطراب وهياج غير محدد الاتجاه ٠ أما فى الصباح فكان يشع فيه صفاء رهيب ٠

« مع الصباح استولت على باريس فكرة ، ورأى الجميع نفس الضياء : فى كل نفس ضياء وفى كل قلب صوت يقول : قم ، وسوف تستولى علىّ الباستيل !

« كان ذلك شيئا مستحيلا ، شيئا جنونيا شيئا غريبا ان يقال .. ومع ذلك فقد آمن به كل الناس . وقد تحقق » ..

« كانت الساعة الخامسة والنصف ، وارتفعت صيحة من ميدان الجريف Greve « الساحل » . ضجة كبرى تصاعدت: بدأت أولا بعيدة ، ثم ارتفعت واقتربت بسرعة ، بقعقعة العاصفة . صيحة مدوية تقول : الباستيل سقط !!

« وفى تلك القاعة ، قاعة الهوتيل دى فيل Hôtel De Ville حيث دار نقيب التجار (التى أصبحت دار بلدية باريس وفيها مكتب جاك شيراك عمدة باريس الآن ل . ع) دخل فجأة ألف رجل ، يتدافع وراءهم عشرة آلاف رجل . وتفسخت أخشاب الأرضية ، وانقلبت الدكك وازيح الحاجز فوق المنصة وازيحت المنصة فوق رئيس الاجتماع .

« كان كل الرجال مسلحين بأدوات غريبة ، وكان بعضهم يكاد يكون عاريا والبعض الآخر فى ثياب من كل لون . وكانوا يحملون احد الرجال على الأعناق وقد توجوا رأسه بالغار . وكان هذا الرجل هو جاكوب ايلى Jacob Elie (وهو صف ضابط قاد الحرس الفرنسى فى الهجوم الأخير على الباستيل ل ع) ومن حول ايلى كانت هناك الأسلاب وكان سجناء الباستيل . وفى مقدمة هذا الحشد ، وسط هذا الضجيج الذى تجاوز هزيم الرعد ، مشى شاب خاشعا صامتا وكأنه يصلى ، وقد حمل على سن السونكى رمزا من رموز الكفر ملعونا بالثلاثة ، وكان ذلك لائحة الباستيل .

« كذلك حملوا معهم المفاتيح ، تلك المفاتيح الفظيعة البشعة الغليظة التى برأها استعمال القرون وبرتها آلام البشر · هذه المفاتيح شاءت الصدفة أو العناية الالهيه ان تنتهى الى رجل كابد منها طويلا فهو سجين قديم · وقد ضمتها الجمعية الوطنيـــة الى أرشيفها ، فوضعت أدوات الطغاة جنبا الى جنب مع القوانين التى حطمت الطغاة ونحن نحفظ هذه المفاتيح حتى اليوم فى الدولاب الحديدى الذى يحفظ أرشيف فرنسا ·· آه ·· ليت هذا الدولاب الحديدى يحفظ مفاتيح كل باستيل فى العالم ! » ·

« الثورة الفرنسية » · الكتاب الأول ، الفصل السابع ·

★★★

كان الباستيل فى الأصل قلعة أو حصنا بنى فى شرق باريس عند باب سانت انطوان Saint-Antoine على مساحـة ١٤٥٥٠ مترا مربعا ، أى على مســاحة ثلاثة أفدنة واحد عشر قيراطـا ، بارتفاع ٣٠ مترا ، وحفر من حوله خندق تجرى فيه المياه عرضـه ٢٥ مترا حتى لايجتازه المهاجمون أو يبــادون دون ذلك · وكان يستحيل الدخول اليه أو الخروج منه الا اذا دليت قنطرة خشبية بعرض الخندق كانت معلقة بسلاسل غلاظ ترفع القنطرة وتنزلها بدواليب تدار من الداخل · وكانت الحامية فيه عددها ٨٠ جنديا يحيط بهم ٣٠ من الحرس السويسرى كلهـم تحت امرة قومندان القلعة دى لونى De Launay .

أما مهاجمو الباستيل فكانوا اسطوات ضاحية سانت انطوان المتاخمة للقلعة أو السجن · خارج بوابة سانت انطوان ، وكانت حى النجارين والصناعات الخشبية ، ومع هذه الجماهير فصيلتان من الحرس الفرنسى والميلشيا البورجوازية أو ميليشيا المدينة التى

كونها الثوار من أبناء الطبقات المتوسطة • وكان مع المهاجمين ٣٢٠٠٠ بندقية و ٥ مدافع أخذوها من ثكنات الجيش فى الانفاليد Invalides فى صباح ذلك اليوم نفسه • وحين استولت الجماهير على الباستيل حررت منه سبعة سجناء هم :

ـ تافرنييه Tavernier وكان شريك داميان Damiens فى محاولة اغتيال لويس الخامس عشر ، وكان مسجونا منذ ١٧٥٩ أى منذ ثلاثين سنة •

ـ الكونت ويت دى مالفيل Whyte de Malleville وكان المؤرخ ميشليه يسميه « سيد الشموخ » •

ـ الكونت دى سولاج Le comte de Solages المعتقل بسبب « جرائم بشعة » متصلة بالجنس ومضاجعة المحارم •

ـ ومع هؤلاء الثلاثة أربعة من النصابين المزورين •

كتب ميشليه يقول :

« يجب ان يقال ان الباستيل لم يسقط ولكنه سلم • سلم لأن ضميره المفعم بالذنوب أقلقه الى حد الجنون وجعله يفقد روحه المعنوية •

« كان بعض من فيه يؤثرون التسليم ، أما الآخرون ، ولاسيما الحرس السويسرى ، فقد مضوا فى اطلاق النار على الجماهير على مدى خمس ساعات وهو أمن، فقد كان بمأمن تام من مرمى المهاجمين • كان الحرس السويسرى يرتب ويصوب فى أتم ارتياح ، وكان يقتل من يشاء قتله فقتلوا ٨٣ رجلا وجرحوا ٨٨ • وكان عشرون من القتلى من فقراء الآباء الذين تركوا وراءهم نساء وأطفالا ليموتوا جوعا •

« وافضت هذه الحرب التي لا مجـــازفة فيها ، كما أفضى الاستياء من سفك الدم الفرنسي بايدى السويسريين دون أى سبب ، الى أن الجنود الفرنسيين ألقوا السلاح • وفى الســـاعة الرابعة أهاب صف الضباط بالقومندان دى لونى ، بل استعطفوه ان يوقف هذه المذبحة • وكان دى لونى يدرك موقفه ، فما دام مصيره هو الموت فى كل الاحوال ، فقد بدأ له لحظة أن ينسف الحصن بنفســه ، وهى فكرة همجية • فلو انه فعل ذلك لدمر ثلث باريس • فبراميل البارود التى كانت فى حوزته وعددها ١٣٥ برميلا ، كانت كافية لنسف الباستيل فى الهواء وسحق ضاحية سانت انطوان كلها ؛ وكل حى الماريه Marais « المستنقع » ، وكل حى الارسنينال « الترسانة » •• وأخذ فتيلا من مدفع ، فحال دون ارتكاب هذه الجريمة اثنان من صف الضباط : اعترضا طريقه بتقاطع السولكى فاقفلا طريقه الى البارود • وهنا ادعى الرغبة فى الانتحـــار فأخذ سكينا ولكنهما انتزعاه منه •

« فقد القومندان صــوابه فلم يعد قادرا على اصدار الأوامر ، وحين وجه الحرس الفرنسى فى الخارج مدافعهــم الى الباستيل ، ادرك كابتن الحرس السويسرى بوضوح ان المقاومة لامناص منها ، فكتب ورقة مررها للمحاصرين طلب فيهـــا الخروج مع الاحتفاظ بشرف المحاربين ، فرفض طلبه • ثم طلب الابقاء على حياته فوعده هولان Hullin وايلى Elie بذلك •

« وكانت الصعوبة هى الوفـــاء بالوعد •• فمن ذا الذى كان يستطيع ان يقمع روح الانتقام التى شحنت بها الجماهير عبر القرون واســتفزتها كل هذه المذابح التى قام بهـــا الباســـتيل فى ذلك اليوم ؟ •• لم يكن فى مقدور هذه السلطة الجديدة التى جاءت من الهوتيل دى فيل فى الجريف « دار بلدية باريس التى كانت من قبل دار نقيب التجار وأصبحت منذ قليل مقر لجنة قيادة الثورة » ،

هذه السلطة الجديدة التى لم تكن تعرفها الا مجموعتان صغيرتان من الطلائع لم يكن فى مقـــدورها ان تحتوى مائة الف رجـــل مـــن المتظاهرين ·

« كانت الجماهير غاضبة وعمياء وسكرانة بالخطر ومع ذلك فلم تقتل فى فناء الباستيل الا رجلا واحدا ، ولم تمس أحـــدا من أعدائها السويسريين الذين حسبتهم من زيهـــم من الخدم أو من المسجونين · بل وجرحت أصدقاءها من جنود الحاميـة الفرنسيين واساءت معاملتهـم · كانت تتمنى ان تفنى الباســـتيل ، وحطمت بالحجارة عقارب الساعة الحديدية ، وصعدت الى قمة الأبراج لتصب جام غضبها على المدافع المنصوبة · وصب البعض جام غضبهم على أحجار الحصن فأدموا أيديهم وهم يحـــاولون اقتلاعها · وبادرت الجماهير الى الزنازين لتفرج عن المسجونين فأصيب اثنان من هؤلاء بالجنون : انزعج أحدهما من الضجة انزعاجا شديدا وأراد أن يدافع عن نفسه ، وذهل حين رأى من كسروا بابه يرتمون فى أحضـــانه ويبللونه بدموعهم · والآخر الذى كان يحمل لحية تصل الى خصره سألهم عن صحة لويس الخامس عشر ، فقـــد كان يحسبه لايزال جالسا على عرش فرنسا · فلما سألوه عن اسمه أجاب بأن اسمه هو: سيد الشموخ ·

« ولم يتوقف المنتصرون عند ذلك · فخاضوا فى شارع سانت انطوان معركة أخرى · فحين اقتربوا من ميدان الجريف « الساحل » واجهوا جماعات أخرى لم تشترك فى القتال ، وعز عليها ذلك فرأت ان تشارك بشىء ما ولو بقتل الأسرى · فقتلوا أحدهم فى شـــارع تورنيل وقتلوا آخر على رصيف نهر السين · وتبعت الجمع نسوة شعورهن محلولة عرفن ان أزواجهن بين من ماتوا فتركوهن باحثات عـــن القتلة · وصرخت احداهن فى الجمع وهى ترغى ان ياتـوها بسكين ·

« وسيق القومندان دى لونى يسنده وسط هذا الخطر العظيم رجلان من الشجعان الأقوياء ، كان احدهما هولان • وفى سانت انطوان الصغير تجمعت دوامة من البشر انتزعت دى لونى من يد المرافق الآخر ، اما هولان فتشبث باسيره ، وكان بحاجة الى قوة هرقل ليصل باسيره حتى الجريف الذى كان على بعد خطوات منه • لم يعرف ماذا يفعل ، ولكنه لاحظ ان الناس لم تكن تعرف دى لونى الا لأنه كان عارى الرأس فخطرت له فكرة شجاعة ، وهى ان يخلع قبعته ويلبسه اياها ، وما ان فعل ذلك حتى أخذ يتلقى كل الضربات الموجهة الى دى لونى • وأخيرا وصل الى بواكى سان جان • ولو انه استطاع ان يجعله يصعد الدرج ويدفعه الى السلم لأمكنه انقاذه • ولكن الجماهير تبينته بوضوح فاشتد ضغطها المجنون • وهنا لم تعد القوة الجسمانية الهائلة التى كان يستخدمها هذا العملاق هولان تجدى شيئا • وفى دوامة الكتلة البشرية التى التفت حوله وعصرته كالأفعوان فقد هولان توازنه ودفع يمنة ويسرة وسقط على الأرض الحجرية • ونهض مرتين • وفى المرة الثانية رأى رأس دى لونى معلقا فى طرف حربة » ••

٣ ـ الباســـتيل

والآن نبذة عن تاريخ السجن :

كان اسمه الأصلي « الباستيد » La Bastide وليس « الباســـتيل » بمعنى « الحصن » . وقد بدأ التفكير جديا في بنائه مكان السور عند باب ســـانت انطوان لحماية باريس من الشرق وحماية باب ســـان دنيس Saint Denis وسان مارتان Saint-Martin بعد هزيمة بواتييــه Poitiers واسر الملك جـــان الطيب Jean Le Bon عام ١٣٥٦ .

وكان الملك بحاجة الى اموال لبناء هذا الحصن ، فاقترض على ذلك نقيب التجار ، واسمه اتيين مارسيل Etienne Marcel وكان أغنى رجـــل في باريس ،

● نشـــرت بجـــريدة الأهــــرام بتاريخ ١٩٨٩/٧/٢٢ .

مما جعل بعض المؤرخين يصفون هذا الرجل بانه اب من آباء الديمقراطية لوقوفه فى وجه الملك ·

ولكن دوافع هذا الرجل كانت شخصية بحتة ، فقد كان يجهز لاستيلاء شارل الشرير Charles Le Mauvais على العرش والتوطيد لنفوذ الانجليز · وقد اغتيـــل اتيين مارسيل فى هذه المحـــاولة عام ١٣٥٨ عند باب سانت انطوان ، حيث أقيمت قلعة الباستيل بعد ذلك بأمر من ولى العهد الذى أصبح فيما بعد الامبراطور شرلكان (شارل الخامس) · وقد وضـــع عمدة باريس حجر الأســـاس للباستيل فى ١٣٧٠ · وهكذا بنى الباستيل ابتداء من ١٣٧٨ من ثمانية أبراج بارتفاع ٢٤ مترا وبسمك ٣ أمتار عند القاعدة ومتر و ٨٠ سم عند القمة ، واستغرق البناء ١٢ سنة ، مات شرلكان فى ١٣٨٠ قبل ان يتم البناء فى ١٣٩٠ ·

فالأصل فى الباستيل اذن انه كان حصنا للدفاع عن باريس من الشرق · وكان له قومندان يدعى « كابتن الباستيل » ومعه اقل من ٢٠ من الحراس المسلحين · وكان مخزنا للبـــارود والمدافـــع والأسلحة البيضاء · وفى جرد ١٥٠٤ كان فى مخازن الباســـتيل ٣٦٠٠ بلطة صالحة للاستعمال و ١٠٦٠ بلطة غير صالحة للاستعمال، وعدد رهيب من السلاسل لسد شوارع باريس ، وفى السابع عشر كان فيه عدد رهيب من الأعلام · ومنذ البداية كان للباستيل باب جانبى يستخدمه الملك للدخـــول والخروج سرا من باريس ، وقد اعترضت بلدية باريس على وجود هذا الباب وحاولت الغاءه ، ولكنها عجزت عن ذلك ·

وفى العصور الوسطى كان شيئا مالوفا قبل توحيد فرنسا ان يتحالف بعض أمراء الاقطاع مع بعض الملوك او الأمراء الاجانب ضد ملوك فرنسا أو أمرائها · ومن اشهر هذه التحالفـــات تحالف ولاية

بورجونيا مع الانجليز . وقد احتل البرجنديون والانجليز الباستيل، وكان قومندان الباستيل انجليزيا لمدة ١٦ سنة بعد احتلالهم باريس ابتداء من ١٤١٨ حتى أجلوا عن الباستيل فى ١٤٣٦ .(والبرجنديون كما هو معروف هم الذين سلموا جان دارك بعـــد ذلك للانجليز فحاكموها وأحرقوها بتهمة انها ساحرة) .

ولم يكن الباستيل مخزنا للســلاح والذخيرة فقط ، بل كان أيضا من القرن الخامس عشر حتى عهد لويس الرابـع عشر مخزنا لجواهر التاج وكنوزه ومقرا لخزانة الدولة . ومما يذكر ان هنرى الرابع ملك فرنسا أودع فى الباستيل عام ١٦٠٠ مبلغ ١٣ مليون جنيه ذهبا استعدادا لحربه مع أسبانيا .

والصورة التقليدية عن الباســتيل حتى قبل سقوطه فى يد الثوار انه لم يكن حصنا للدفاع بقدر ما كان قلعة للطغيان وسجنا جهنميا للتعذيب . ومع ذلك فقد ظهر بين المؤرخين أمثـــال فونك برينتانو Funck-Brentanto من صوروه على انه كان سجنا وقصرا لا تعذيب فيه ولا اغتيال ، وهذا طبعا مناقض للصـــورة التقليدية عن الباستيل وعن وجهة النظر الرسمية فى فرنســا منذ ١٨٨٠ ، عام اعلان ١٤ يوليو عيدا قوميا للحرية فى فرنسا .

ولم يعتبر الباستيل قصرا الا فى عهد لويس الرابع عشر حين أصدر هذا الملك فى ١٦٦٧ أمرا ملكيا لقومندان الباستيل باعتبار الباستيل أحد القصور الملكية وأمره بموجب هذا ان يطلق المدافع ابتهاجا بمولد ابنته . وفى عهد لويس الخامس عشر كان الباستيل يطلق المدافع تحية للملك عند دخوله وخروجه من باريس .

وفى عهد لويس السادس عشر امتـدت التحية لموكب الكونت دارتوا ، أخى الملك ولفرقته المسرحية ، وهى الكوميدى فرانسيز .

وبحسب أرشيف مكتبة الارسينال (الترسانة) بلغ مجموع السجناء فى الباستيل منذ بنائه نحو ١٤٠٠ حتى سقوطه فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ نحو ٦٠٠٠ سجين ، منهم ٨٠٠ سجين بين ١٤٠٠ و ١٦٥٩ وهي بداية عهد لويس الرابع عشر ، و ٥٢٧٩ سجينا بين ١٦٥٩ ويوم سقوطه فى ١٧٨٩ .

وكان أول سجناء مدنيين احتجزوا فى الباستيل عام ١٤٢٣ . اثنان من السحرة جيء بهما ليشفيا الملك من جنونه ولكنهما فشلا. وفى ١٤٢٨ كانت باريس وفرنسا كلها شمال نهر اللوار أيام شارل السابع خاضعة لهنرى السادس ملك انجلترا ووثائق الفترة تقول انه كان فى الباستيل ١٧ سجينا منهم ٤ من الانجليز وثلاثة من الفرسان وثلاثة من السياس من بريتانى وراهبان وقسيس واثنان من صانعى النبيذ وغلام سنه ١٣ سنة .

ومنذ البداية تقريبا تحول الباستيل من حصن عسكرى الى سجن لاعداء الملك ولتأديب النبلاء الذين ينحرف سلوكهم فى البلاط .

وبعد مائة سنة من الهدوء النسبى اتسع الأمر ليشمل سجناء العقيدة الدينية مثل البروتستانت واتباع الجانسنية ثم الجزويت ودخلت الباستيل قلة من متهمى القانون العام .

ولم يكن الباستيل هو السجن الوحيد فى باريس ، فقد كان فيها سجن فانسين Vincennes وسجن مون سان ميشيل Mont Saint Michel وقصر دانجيه D'angers ، ولكن الباستيل تميز بأهمية ضيوفه أو بشهرة الجرائم التى ارتكبوها .

وقد كان من أعلام السجناء : البرنس كونديه Prince Condc' وفوكيه Foucquet وزير مالية لويس الرابع عشر ، والمفكر

الكبير لاروشـــفوكو La Rochefoucauld ، والمرشال ريشليـو Richelieu ابن الكاردينال الأشـهر ، وذو القنـاع الحديدى ، وفولتير ، وداميان الذى حاول اغتيار لويس الخامس عشر ، والقائد ديمـوريين ، Dumouriez بطـل معـركة فالمى Valmy فيما بعد . والماركيز دي صاد Marquis De Sade ، والساحر الشهير كاليوسترو Cagliostro ، والكاردينال دى روهان Cardinal De Rohan بطل فضيحة جواهر الملكة مارى انطوانيت . أما أشـهر الجرائم فكانت قضية السموم أيام لويس الرابع عشر وقضية جواهر الملكة أيام لويس السادس عشر .

وكان لويس الحادى عشر أول موحد فرنسـا . وأول مـن استعمل الباستيل سجنا للدولة وخصصه للمسجونين السياسيين المتآمرين عليه لقلب نظام الحكم ولا سيما في صراعه مع شـارل الجسور والبرجنديين وقد أضاف لويس الحادى عشر الى الباستيل « أقفاصا » من قضبان الحديد لا تسمح بالوقوف داخلها . وكان أول من ابتكرها له أسقف فردان الذى زود هذه الأقفاص بسلاسل غليظة تنتهى بكرات حديدية ثقيلة تقيد حـركة القدمين . وسـجن الأسقف نفسه فيها ١٤ سنة لأنه تآمر على الملك ثم أفرج عنه .

كذلك سجن لويس الحادى عشر الكونت لويس دى لوكسمبورج عام ١٤٧٥ وجاك أرمنياك Armagnac دوق نمور Duc De Nemours حاكم باريس عام ١٤٧٧ ، وبقى كل منهما فى الباستيل عدة أسابيع فقط ريثما يحاكمه البرلمان بتهمة التآمر على الملك ثم خرج لتنفيذ حكم الاعدام فيه علنا فى ميدان السوق (الهال Les Halles) ومنذ عهد لويس الحادى عشر كانت هناك فى الباستيل غرف خاصة بالتعذيب ، لا لاستخلاص الاعترافات ولكن للتحضير للموت .

ومنذ ان تحول الباستيل من قلعة الى سجن كان سجنا « ملاكى » تابعا للملك مباشرة ينفق عليه من أمواله الخاصة ، ويجرى فيه كل شيء بعيدا عن رقابة القانون العام • ولم تكن تجرى فيه الاعدامات ، وانما كان محطة للتحقيق والمحاكمة السياسة عن طريق برلمان باريس ثم التوزيع أما على السجون الأخرى مثل سجن فانسين وسجن مون سان ميشيل أو أحد سجون فرنسا الأربعمائة ، وفى بعض الأحوال النفى أو الاعتقال مدى الحياة فى الأديرة أيضا على نفقة الملك ، وأما الاعدام فيتم فى ميدان الجريف أمام بلدية باريس • وكان الاعدام يتم عادة بقطع الرأس ببلطة العشماوى للنبلاء •

وهذا لم يمنع طبعا من احتجاز بعض الشخصيات فى الباستيل بأمر الملك مدى الحياة أو لسنوات مديدة • وفى بعض الأحوال كان الاعدام يتم بتفسيخ جسد المحكوم عليه أربعا فى ميدان الجريف كما حدث فى حالة الراهب جاك كليمان Jacques Clement قاتل الملك هنرى الثالث عام ١٥٨٩ ورافاياك Ravaillac قاتل الملك هنرى الرابع فى ١٦١٠ وداميان Damiens الذى حاول قتل لويس الخامس عشر فى ١٧٥٧ •

ولعل أهم تطور فى تاريخ الباستيل والسجون الفرنسية جاء فى أيام لويس الرابع عشر منذ توليه فى ١٦٥٦ ، فقد كان أكثر المعتقلين بالأمر الملكى من النبلاء والقواد المتآمرين على الملوك • كان الأمر كذلك فى عهد كاترين دى مدسيس ومارى دى مدسيس ، وفى عهد الكاردينال ريشيليو Richelieu والكاردينال مازاران Mazarin • فلما تولى لويس الرابع عشر انشأ منصبا جديدا هو منصب حكمدار بوليس باريس كانت مهمته حفظ الأمن وتنظيم التموين وحماية الطرق ومكافحة الحرائق والفيضانات والنجدة ووضع لوائح الصناعات والأماكن العامة والمطابع والمكتبات •

وكانت أوامر الاعتقال الملكية تسمى « الخطابات المختومة » Lettres de Cachet التى يوقعها الملك شخصيا قليلة العدد حتى بداية حكم لويس الرابع عشر ثم تدفقت كالطوفان فى بداية عهده ·

وكان أول حكمدار البوليس هو لارينى La Reynie الذى شغل منصبه ثلاثين عاما . وخلفه المركيز ارجنسون Argenson وقد وصف سان سيمون فى مذكراته صاحب هذا المنصب بانه وزير سرى شبيه برئيس محكمة التفتيش ·

وقد كتب ارجنسون فى ١٧٠١ ان يد العدالة بطيئة والقانون العام غير كاف لردع المجرمين ، وكان الحل عنده هو خطابات الكاشيه أى أوامر الاعتقال المختومة المهورة مباشرة من الملك · فتوسع ارجنسون فى هذه الخطابات المختومة وارسلها الى كل مكان فى فرنسا ، وكان نصيب الباستيل منها نصيب الأسد · وكانت باريس فى أول عهد لويس الرابع عشر مباءة للقتلة والسفاحين وقطاع الطرق وحين مات ارجنسون رثاه فونتينيل Fontenelle أمام أكاديمية العلوم بانه طهر باريس من الشحاذين والمجرمين واللصوص والبغايا والقوادين واستعمل الاديرة والمستشفيات لسجن البغايا والعجزة والمجانين : شارنتون وسان لازار للرجال ، والمادلين وسانت بيلاجيا للنساء ، وما يماثلها مثل قصر ايف Chateau d'If أمام مرسيليا ، وهو الذى تدور فيه حوادث الكونت دى مونت كريستو كما نقرأ فى رواية اسكندر دوماس الشهيرة ·

وابتداء من ١٦٥٩ بدأ الباستيل يحفظ سجلات منتظمة لسجنائه ، ومنها نعرف ان سجناءه بين ١٦٥٨ وسقوطه فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ بلغ ٥٢٧٩ سجينا منهم ٢٣٢٠ أيام لويس الرابع عشر (٢٠١٦ ذكورا و٢٢٦ اناثا) ، ومنهم ١٤٥٩ أيام وصاية الكاردينال

دى فليرى De Fleury (١٢٣٣ ذكورا و٢٢٦ اناثا) ، ومنهم ١١٩٤ سجينا فى عهد لويس الخامس عشر (١٠١٩ ذكورا و ١٧٥ اناثا) ومنهم ٣٠٦ سجناء فى عهد لويس السادس عشر (٢٧٤ ذكور ٣٢ اناث) ولم يكن تدرج عدد السجناء فى الانخفاض بسبب انخفاض عدد خطابات الكاشيه ، ولكن نفقات الباستيل الباهظة جعلت الدولة تفضل ارسال المعتقلين الى سجون أخرى ٠

أما نوعية سجناء الباستيل فقد كان منهم ٤٠٠ من رجال الدين ونحو ١٠٠٠ من النبلاء ونحو ٤٠٠٠ من المواطنين العاديين من البورجوازية العليا الى طبقة الاسطوات ــ أما نوعية التهم فقد كان منها ٧٠٪ لأسباب سياسية ودينية و ٣٠٪ لجرائم القانون العام ٠ ومن الجرائم المحددة كانت هناك ٢١٪ جرائم سياسية ، و٥ر٢٢ مما يسمى جرائم الفكر وتشمل الكتابة والطبع والنشر ونحو ١٤٪ جرائم (!) العقيدة الدينية ٠ وهناك نسبة ١٥٪ من المسجونين بغير تهم محددة أو كتب أمام اسمائهم جرائم ضد الدولة ، مما نشر الاعتقاد بان هناك عددا من الأبرياء كانوا ضيوفا فى الباستيل ٠ وكان يكفى للقبض عليك ان تقول كلاما لاذعا عن مدام دى مانتنون Madame De Maintenon محظية لويس الرابع عشر أو عن مدام دى بومبادور Madame De Pompadour محظية لويس الخامس عشر ٠

كان الملك هنرى الرابع قد أصدر مرسوم نانت Edit De Nantes الذى أباح حرية العقيدة الدينية للبروتستانت ، ولكن لويس الرابع عشر عاد الى سياسة اضطهاد البروتستانت فأصدر فى ١٦٨٥ مرسوم فونتنبلو Edit De Fontainbleau الذى استنكر فيه مرسوم نانت ٠ وكان البروتستانت قبل ذلك بقرن يسجنون حتى الموت ٠ ومنذ مرسوم فونتنبلو كان يطلب من البروتستانت التبرؤ من عقيدتهم

الدينية والاسجنوا وفى ١٧٨٦ اعتقـل منهم ٣٠٠ ، منهم ١٠٠ فى الباستيل والباقون فى سجون أخرى · وكان البوليس يفتش عربات السفر ولا سيما لهولندا وبلجيكا ، كما كان يكتشف جوازات سفر مزورة وبنات متخفيـات فى زى أولاد · وفى الباستيل وسواه كان يجرى تحقيق دقيق ، وكانت الدولة ترسل راهبا جزويتيـا ليعظ البروتستانت ويطالبهم باعتناق الكاثوليكية ، وكان الافراج رهينا بالتحول · وبعد الافراج كان البروتستانت يراقبون · فمن اكتشف ثباته على عقيدتـه اعيـد الى السجن وكان أكثر من سجنوا بسبب محاولة الهجرة المحرمة حيث بلغ عدد المهاجرين ٢٠٠ر٠٠٠ شخص . وكان بين المسجونين نبلاء صغار وتجار وأطباء ·

كذلك دخل الباستيل وغيره من السجون اتباع مذهب جانسن Jansenisme (نحو ٤٠٠ فى الباسـتيل خـلال قـرن منذ ١٦٥٧)، وهو دعوة للمساواة بين القساوسة اساسها أنه لا رتب فى الدين وانه لا عصمة للبابا وبالطبع اغضب هذا الاساقفة والكرادلة فصدر فى ١٦٥٧ منشور باحترام النظام الكنسى يوقعه كل من يدخل سلك الكهنوت · وكان مركز هذه الحركة الديمقراطية فى الدين دير بورروبال Port-Royal وابل بباريس وفى ١٧٠٧ اقتحم ارجندون دير الراهبات فى بور روايال وهدمه فلم يبـق فيه حجرا على حجر وشحن الراهبات كقطيع من البغايا الى الأديرة الأخرى . وأخلى مقابر الدير من الموتى · وفى ١٧١٣ حرم البابا الجانسنية رسميا · وفى وصاية الكاردينال فلبرى Fleury بلغ عدد المعتقلين من اتبـاع الجانسنيـة ٢٤٢ راهبـا · وفى ١٧٣٦ بلغ نصف المعتقلـين من الجانسنيين ، واصبحوا مركز مقاومة كل اعداء الحكم ·

وكان منهم راهب صالح بسيط مات فى ١٧٢٧ ولشدة تقواه شاع عنه انه كان يأتى بالمعجزات ، واصبـح قبره مزارا للطبقـات

الشعبيـة . وفى ١٧٣٢ اغلقت جبانتـه بأمر الملك لويس الخامس عشر . وقرأ الناس على قبره لافتة كتبها اعداء الملك تقول :

« بأمر الملك ، ممنوع على الله ان يأتى بالمعجـزات فى هـذه الناحية » .

لا شك على سبيل السخرية من الملك .

ثم دارت الدوائر على الجزويت الذين كانـوا يطاردون اتبـاع الجانسنية . وكان الجزويت يدعون لسلطة البابا المطلقة بما تهدد سـيادة الدولة . وفى ١٧٦٢ انتهى هذا الصراع بحظر الجزويتية فى فرنسا وبطرد الجزويت منها .

ومن الجانسنية خرجت حركة « المرتعشين » أو « المتشنجين » وهى شـبيهة بحـركة « الكويكرز » Quakers فى انجلترا . وقد رأى لويس الرابع عشر خطرهم فى ١٦٦٢ حين قال عن ثلاثـة منهم كانوا معتقلين فى الباستيل ان هؤلاء المرتعشين خطرون ويمكن أن يقتلوا أو يرتكبوا الجرائم باسم عقيدتهم مضحين بحياتهم من أجل « الصـالح العام » .

كذلك مر الماسون من الباستيل الى سجون فرنسا الأخرى لانهم كانوا يدعون الى العقلانية واللادينية . وقد تأسس أول محفل لهم فى فرنسا عام ١٧٢٥ وكان محظورا .

وفى السـجلات ان الباسـتيل وحده عـرف ٩٤٦ سجينا من سجناء المطبوعات (ويدخل فيهم المؤلفون ومحررو النشرات أو الجازتات السياسية والطابعون والكتبية) ، ومن هؤلاء ربعهم سجنوا أيـام لويس الرابع عشر وثلاثة أرباعهم حتى سقوط الباستيل فى ١٧٨٩ .

وكان من أشهر الادباء والمفكرين الذين دخلوا الباستيل فولتير Voltaire « مرتين » ودالمبير D'Alembert ، والأب بريفو L'abbe Prevost ، وفونتنيل Fontenelle ومونتسكيو Montesquieu وماروموتنيل Marmontel وهليفتيوس Helvetius وكان من أهم الكتب المصادرة كتاب «رسائل من الريف Lettres Provinciales للفيلسوف باسكال Pascal وقد صودر عام ١٧٧٢ ، وكتاب « رسائل فلسفية » Lettres Philosophiques لفولتير ، وقد احرق عام ١٧٣٤ بقرار من البرلمان ، وصودرت فى ١٧٧٠ بموجب الخطابات المختومة (الكاشيه) المجلدات الثلاثة الأولى من «الموسوعة» الشهيرة (الانسيكلوبيديا) التي وضعها اقطاب حركة التنوير ٠٠ وفي ١٧٧٥ أحرق كتاب « فلسفة الطبيعة » Philosophie De La nature في ميدان الجريف وكانت المطابع والمطبوعات المصادرة تكدس فى الباستيل حتى اضطروا أن يبنوا لها جناحا خاصا ٠

وعندما أفرج عن فولتير فى ١٧١٨ بعد سجنه في المرة الأولى فى الباستيل لمدة أحد عشر شهرا ، حددت اقامته عند ابيه فى منزله الريفى ، فكتب للوصى على العرش يقول مداعبا : « انى أشكر لك يا صاحب السمو الملكى رغبتك فى ان تتكفل بمأكلى ، ولكنى أرجوك الا تتكفل بمسكنى » ٠

ولعل أهم تطور جرى على الباستيل وغيره من سجون فرنسا الخمسمائة كان ان أوامر الاعتقال الملكية المعروفة بالخطابات المختومة أو « خطابات الكاشية » ظلت حتى ١٧٠٠ تكتب بخط اليد ويوقعها

الملك شخصيا ، اما لأهمية المقبوض عليهم وأما لأنها خارج مارسم القانون ٠

أما بعد ١٧٠٠ فقد صارت لكثرتها تطبع وفيها مكان الاسم « على بياض » وكان ذلك فى أواخر عهد لويس الرابع عشر ٠

ومن المؤرخين من يستبعد أن يكون الملك هو الذى كان يوقع على مئات الآلاف من أوامر الاعتقال الملكية التى وزعت على خمسمائة سجن فى جميع انحاء فرنسا ٠ وهم يرجحون أن وزراء القصر أو حكمدارى البوليس هم الذين كانوا يختمون أو يقلدون توقيع الملك بتفويض منه أو بغير تفويض فى عهد وصاية الكاردينال دى فليرى ، وفى عهد لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر ٠

وقد كان هذا التوسع الرهيب فى أوامر الاعتقال هذه من أهم اسباب نشوب الثورة الفرنسية وتركيز السخط العام على الرمز الأعظم لهذه السجون أو المعتقلات وهو حصن الباستيل ٠

٣ ـ مجلس الطبقات

كان لفرنسا منذ العصور الوسطى برلمان أو ـ على الأصح ـ برلمانات ، لأن فرنسا كانت أيام النظام الاقطاعى مكونة من اقطاعيات مستقلة أو شبه مستقلة . ولكن منذ توحيدها أصبح لها برلمان واحد مقره فى فرساى على بعد أميال قليلة من باريس حيث قصر فرساى الذى كان قد شيده لويس الرابع عشر ، « الملك الشمس » . كما كانوا يسمونه .

ومنذ ١٧٨٦ كان الاضطراب المالى قد بلغ حدا جعل من اللازم على الملك لويس السادس عشر ان يجرى انتخابات جديدة لانتخاب برلمان جديد يشرع لضرائب جديدة تنقذ فرنسا من الفوضى المالية والاقتصادية ،

● نشرت بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٩/٧/٢٩ .

فأجريت الانتخابات فى ابريل ١٧٨٩ واجتمع البرلمان فى فرساى فى ٤ مايو ١٧٨٩ ٠

وكان البرلمان طبقيا أى مكونا من ممثلين عن ثلاث طبقات عددهم الاجمالى ١١٥٤ نائبا :

منهم ٢٩١ نائبا عن طبقة رجال الدين ، وكان بعض هؤلاء من دعاة الاصلاح مثل الأب جريجو l'abbé grégoire وتاليران Talleyrand وكان بعضهم من انصار النظام القائم « الملكية المطلقة » مثل الأب مورى l'abbé Maury ومونتسكيو Montesquieu

وكان هناك ٢٨٥ نائبا يمثلون طبقة النبلاء ٠ وكان بعض هؤلاء يناصر الأفكار الجديدة مثل لافاييت La Fayette والكونت دى نواى Le Comte De Noailles ودوق اجويون Duc d'aiguillon ولكن أغلبيتهم كانوا متمسكين بامتيازاتهم الطبقية ٠

أما ممثلو الطبقة الثالثة فكانوا ٥٧٨ نائبا كان بينهم نواب افذاذ مثل ميرابو Mirabeau وروبسبيير Robspierre وسييز Sieyès وفولنى Volney وبالى Bailly ٠ الخ ٠

وفى يوم الافتتاح «٤ مايو ١٧٨٩ » استمع النواب الألف والمائتان والملك والملكة ورجال البلاط الى القداس فى كنيسة نوتردام ثم خرج موكبهم واخترق كل باريس حتى بلغ ضاحية فرساى ٠ وخرجت باريس كلها الى جوانب الطرقات لتحيتهم واكتظت الشرفات بالرجال والنساء وكان يملأ الصدور أمل عظيم ٠

وقال ميشليه : « وعلى رأس الموكب ظهرت أولا كتلة من الرجال، كلهم فى ملابس سوداء ، وكان هؤلاء هم نواب الطبقة الثالثة وعددهم

خمسمائة وخمسون وكان بين هذا العدد أكثر من ثلثمائة من رجال القانون : محامين أو قضاة ، وكأنهم يمثلون تمثيلا صادقا مجيء حكم القانون · كان ملبسهم متواضعا ، وكان خطوهم ثابتا ونظراتهم ثابتة · وكانوا يسيرون معا سعداء بهذا اليوم العظيم الذى انتصروا فيه ، يسيرون معا دون تفرقة بين أحزابهم ·

أما المجموعة الصغيرة المتألقة من نواب النبلاء فجاءت بعدهم وعلى قبعاتهم الرياش وفى ثيابهم الدنتيللا وعليها الذهب الموشى · وفجأة اختفى التصفيق الذى ارتفع لتحية الطبقة الثالثة · ومع ذلك فقد كان بين هؤلاء النبلاء نحو أربعين نبيلا لايقلون حماسا للشعب عن نواب الطبقة الثالثة ·

وران نفس الصمت عندما مرت طبقة رجال الدين · ورأى الناس بالترتيب الآتى جماعة من النبلاء تليهم الطبقة الثالثة ، وبعدهم نحو ثلاثين أسقفا يرتدون قلنسواتهم وارديتهم البنفسجية ، وبعد هؤلاء بمسافة تشغلها جوقة من المرتلين يأتى الرهط المتواضع من القساوسة المائتين فى مسوحهم السوداء ·

ولم يكن فى مجموعة النبلاء التى تجسد فيها المجد العسكرى ، قائد واحد مشهور · بل كان قوامها كل المغمورين من اعاظم النكرات، الذين كان يتألف منهم اقطاعيو فرنسا · وربما كان هناك استثناء واحد من ذلك هو لافابيت الشاب الذهبى الشعر الذى خالف البلاط. وكان أول من اشترك فى حرب الاستقلال الأمريكية · ولم يكن أحد يتخيل الدور الكبير الذى هيأه له القدر فى الثورة ·

وكانت الطبقة الثالثة تحمل ملامح المؤتمر الوطنى ولكن من ذا الذى كان يتبينها ؟ ·· من ذا الذى كان يستطيع أن يميز وسط

هذا الحشد المغمور من المحامين شخص روبسبيير الخطير ، ذلك المحامى من أراس ؟

وكان هناك شيئان ملحوظات : غياب سييز وحضور ميرابو ، (تأخر انتخاب سييز وكان ميرابو هاربا من طبقة النبلاء · ل · ع ·) « الثورة الفرنسية » الكتاب الأول ، الفصل الثانى » ·

وفى اجتماع ٦ مايو ١٧٨٩ قرر نواب « الطبقة الثالثة » أن يكون اسمهم الجديد « جمعية العموم » أو « مجلس العموم » Commune اسوة بمجلس العموم البريطانى ، بدلا من « الطبقة الثالثة » · ولكنهم عادوا فى اجتماع ١٧ يونيو ١٧٨٩ ورفضوا مبدأ الفصل بين طبقات المجتمع واعلنوا ان اسم البرلمان الجديد ليس « مجلس الطبقات Etats Géneraux ولكن « الجمعية الوطنية » Assemblee Nationale« أى ماكنا نسميه مجلس الأمة » ووافق أكثر رجال الدين من القساوسة الفقراء على الانضمام الى ممثلى الشعب أما طبقة النبلاء فكانت تضغط على الملك ليمنع ازالة الحواجز بين الطبقات الثلاث ·

وكان الملك مترددا ، ولكنه نفذ ما أرادته الطبقة الارستقراطية · ولكى يمنع انضمام نواب رجال الدين الى نواب « الطبقة الثالثة » أمر باغلاق قاعة الاجتماع يوم السبت ٢٠ يونيو بحجة تحضير القاعة لحضوره الملكى يوم الاثنين · كل هذا تم يوم الجمعة ليلا ، وعلق اعلان بهذا التأجيل فى فرساى فى الساعة الخامسة من صباح السبت · ولم يعرف بالى Bailly رئيس البرلمان بتأجيل الاجتماع الا بمحض المصادفة · ولم يتسلم أمر التأجيل الا بعد السابعة صباحا !!

وكان جان سيلفان بالى « ١٧٣٦ ـ ١٧٩٣ » عالم فلك مشهورا ،

وانتخب نائبا فى « مجلس الطبقات » الذى انتخبه رئيسا للجمعية الوطنية ، وكان رئيسها حين اعلنت « قسم ملعب التنس » فى ٢٠ يونيو ١٧٨٩ ثم انتخب عمدة لباريس فى ١٦ يوليـو ١٧٨٩ ولكنه اعتبر مسئولا عن مذبحة ميدان شان دى مارس Champ de Mars فقد امر بوصفه عمدة باريس باطلاق النار على المتظاهرين المطالبين بخلع الملك لويس السادس عشر بعد محاولته الفرار من فرنسا فى ١٧ يوليو ١٧٩٢ للاحتماء بأعداء بلاده فأعـدم بالى على المقصلـة فى ميدان شان دى مارس .

لم يتسلم بالى أمر تأجيل انعقاد البرلمان فى صورة خطاب بخط يد الملك موجه الى رئيس مجلس الطبقات كما جرى العرف ، ولكن تسلمه كمجرد اخطار من التشريفاتى الأول ، تسلمه فى مسكنه ولم يتسلمه فى مقر البرلمان بحسب الأصول المرعية .

ولم يكن عند بالى تفويض من الجمعيـة الوطنيـة ان يتصرف نيابة عنها . فلما حل موعد انعقاد الجمعية فى الساعة الثامنة تجمع بالى وعدد غفير من النـواب عند باب القاعة ، فاعترضهم الحرس ، واحتج بالى وأعلن ان الاجتماع قائم .

وحاول بعض النواب الشبان فتح الباب عنوة ، ولكن الضابط المكلف شهر السلاح قائلا : انه لم يؤمر باحترام الحصانة البرلمانية .

قال ميشليه :

« هؤلاء اذن هم ملوكنـا الجدد ، يحتجزون ويقفون بالبـاب وكأنهم جماعة من التلامذة المشاغبين . وهاهم أولاء هائمون تحت المطر وبين الناس على طريق باريس ، الكل مجمع على ضرورة عقد

الجلسة وعلى التجمع • قال بعضهم : الى سوق السلاح !! وقال آخرون : الى قصر مارلى ! « حيث كان يقيم الملك • ل • ع » وقال آخرون : بل الى باريس ؛ وكان هؤلاء أكثرهم تطرفا ، لأنهم ارادوا اشعال البارود •

واقترح النائب جيلوتان Guillotin اقتراحا أقل مجازفة • اقترح الذهاب الى فرساى القديمة والاجتماع فى ملعب التنس •• وكان مكانا كئيبا بشع المنظر خاليا من الآثاث رقيق الحال • وكان مناسبا للمقام • فقد كانت الجمعية الوطنية فقيرة ولذا فقد كانت يومها تمثل الشعب اصدق تمثيل ، وظل نوابها واقفين طوال النهار، فلم يكن لديهم أكثر من مقعد خشبى واحد •• كان هذا الملعب العارى بمنزلة مهد للدين الجديد ، بمنزلة المزود فى «بيت لحم » (الكتاب الأول ، الفصل الثالث) •

وهكذا اجتمعت الجمعية الوطنية فى ملعب التنس برغم ارادة الملك •• ولكن ترى ماذا هم فاعلون ؟

يجب الا ننسى ان الجمعية كانت كلها بلا استثناء واحد ملكية المشاعر ••

يجب الا ننسى ان أعضاءها حين أطلقوا على أنفسهم يوم ١٧ يونيو اسم الجمعية الوطنية هتفوا معا : عاش الملك !! وحين اعطت الجمعية لنفسها حق التصويت على الضرائب معلنة عدم شرعية الضرائب المحصلة حتى ذلك التاريخ ، فان المعترضين على هذا القرار آثروا الخروج من الجلسة على تكريس هذا التحدى للسلطة الملكية بمجرد مشاركتهم فى الحضور •

فى ذلك اليوم لم يكن هناك معارضون • كانت الجمعية الوطنية

فكرا واحدا وقلبا واحدا . وكان أحد المعتدلين ، جان جوزيف مونييه Mounier نائب جرينوبل ، هو الذى اقترح على الجمعية الوطنية القسم الشهير وهو : « قسم أمام الله والوطن انه أيا كان المكان الذى نضطر الى الانعقاد فيه ، فان الجمعية الوطنية هى الجمعية الوطنية ولا شىء يمكن ان يحول دون استمرار مداولاتها، وانه حتى وضع الدستور واقراره ، فانها تأخذ على نفسها عهدا بالا تنفصل أبدا » .

« **وكان بالى أول من أقسم** : أعلن القسم بصوت واضح مرتفع حتى أن جموع الشعب المتجمهرة فى الخارج سمعت القسم وصفقت له فى نشوة الحماس .. وارتفع الهتاف : يحيا الملك ، ارتفع من الجمعية ومن الشعب .. كانت هذه صيحة فرنسا القديمة المشحونة بالعواطف المتأججة . وقد اختلطت بقسم المقاومة » . (الكتاب الأول ، الفصل الرابع) .

كان جان جوزيف مونييه « ١٧٥٨ – ١٨٠٦ » محاميا فى جرينوبل وانتخب نائب عنها فى « مجلس الطبقات » وكان من المعتدلين المؤمنين بالملكية المقيدة « الدستورية » ، وكان له دور هام فى مدينته قبيل الثورة . ولكنه حين رأى الثورة تنجرف خلال شهر اكتوبر ١٧٨٩ من تطرف الى تطرف ، تملكه الرعب وارسل الى « الجمعية الوطنية » استعفاءه من النيابة وانسحب الى جرينوبل ثم عاش لاجئا فى الخارج على الكفاف ، ولكنه عاد الى فرنسا بعد انقلاب ١٨ برومير الذى استولى فيه بونابرت على الحكم ، وكان محافظا ومستشارا للدولة فى عهد الامبراطورية . هذه فى كلمات قصة مونييه واضع « قسم ملعب التنس » الذى يعده المؤرخون ركنا ركينا من أركان الثورة الفرنسية .

وجاء رد الملك لويس السادس عشر على « قسم ملعب التنس » وتحديات الجمعية الوطنية لسلطات العرش فى فرض الضرائب بعد ستة أيام جاء فى ٢٣ يونيو ١٧٨٩ يوم « شرف » الملك « مجلس الطبقات » بحضوره والقى فى النواب كلمة تفيض بالغطرسة واهانة الشعب ونوابه .

دفعت الحماقة رجال البلاط ان يلقنوا نواب الشعب درسا لاينسى . فرتبوا أن يدخل ممثلو طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين قاعة المجلس من الباب الكبير ، وان يدخل ممثلو « العموم » من الباب الخلفى وكأنهم جماعة من الخدم ، بعد ان استبقوهم فى عنبر تحت المطر وراء الباب المغلق وكان الحرس داخل البرلمان ولم يكن هناك من يقدم نواب الشعب كما جرت العادة . وهنا يصف ميشليه ماجرى بالتفصيل :

قال ميرابو Mirabeau للرئيس بالى : « قدم الأمة يا سيدى الى حضرة الملك ! » فدق الرئيس الباب ، فجاء صوت الحرس من الداخل يقول ـ بعد لحظة ـ .. قال الرئيس مخاطبا الحرس : « أين اذن رئيس التشريفات ؟ » الحرس : « لا علم لنا بهذا » قال بعض النواب : « فلننصرف اذن » ! وأخيرا استطاع الرئيس ان يجيء برئيس الحرس الذى انطلق ليعود برئيس التشريفات .

ودخل النواب فى طابور فوجدوا فى القاعة رجال الدين والنبلاء قد اتخذوا أماكنهم وبدءوا جلستهم وبدا عليهم وكانهم ينتظرونهم ليحاكموهم ... غير هذا كانت القاعة خاوية ليس هناك ما هو أشد كآبة من هذه القاعة الضخمة التى أقصى الشعب عنها .

وقرأ الملك ببساطته المعهودة الخطبة العصماء التى أعدوها

له ، وبدت عبارات الطغيان غريبة فى فمه . ولم يكن يحس كثيرا بما انطوت عليه من عنف مستفز ، فقد بدا عليه الاستغراب لمنظر الجمعية الوطنية وهى تستقبل كلماته فحين صفق النبلاء للمادة التى تقدس حقوقهم الاقطاعية ارتفعت بعض الأصـوات العالية تقول : « صمتا ! » .

وبعد لحظة من الصمت والدهشة ختم الملك كلامه بعبارة خطيرة لا تحتمل كانت بمنزلة القاء القفاز فى وجه الجمعية وبدء الحرب. قال : « اذا تخليتم عنى فى هذا المشروع الجميل فسأعمل وحدى على خير شعبى ، وسأعتبر اننى وحدى ممثله الحقيقى » .

وأخيرا قال : « اننى أمركم أيهـا السادة ان تنفصلوا على الفور ، وان تتجهوا غدا صباحا الى الغرف المخصصة لطبقتكم لتعقدوا فيها اجتماعاتكم » .

وخرج الملك وخرج وراءه النبلاء ورجـال الدين . أما العموم فقد ظلوا جالسين فى هدوء وصمت .

وعندئذ دخل رئيس التشريفات وقال بصوت خفيض لبالى ، رئيس الطبقة الثالثة : « انت يا سـيدى سـمعت الأمر الملكى » فأجاب : « الجمعية تأجلت بعد الجلسة الملكية ، وأنا لا أستطيع أن أفضها دون أن تتداول » ثم التفت الى زملائه المجاورين قائلا : « يخيل الى أن الأمة اذا اجتمعت فلا يمـكن أن تتلقى الأوامـر من أحد » .

وأخذ ميرابو هـذه الكلمة بطريقة بارعة ، مخاطبـا رئيس التشريفات بصوته القوى المهيب قائلا فى جلال رهيب : « لقد سمعنا النيات التى أوحى بها للملك . وانت يا سيدى لا يمكن لك ان تكون الناطق باسمه فى الجمعية الوطنية ، وليس لك هنا مكان

ولا صوت ولا حق الكلام ، فأنت لا أهلية لك لتذكرنا بخطابه .. امض وقل للذين أوفدوك اننا هنا بارداة الشعب ولن نخرج من هنا الا على اسنة الحراب » ..

واضطرب رئيس التشريفات الشاب بريزيه Brézé وانحنى الى الأرض : أحس بمقدم الملك الجديد ، بالشعب ملكا ، وقام نحو هذا الملك الجديد بما يوجبه البروتوكول نحو الملك الآخر فخرج وهو يتراجع بظهره الى الوراء كما كانوا يفعلون فى حضرة الملك » .

ربما فعل رئيس التشريفات ذلك تهكما بالملك الجديد . هذا ما لم يذكره ميشليه .

وكما ذكر المؤرخ ميشيل فوفيل Michel Vovelle أصبح « قسم ملعب التنس » « من الممارسات الأساسية فى الفترة الثورية » لانه كان يعبر عن التزام الفرد نحو الجماعة كأساس للحياة المدنية ومنذ ١٧٨٩ أصبح القسم الذى يؤديه رجال الدين رمزا لتضامنهم مع الشعب أو ما كان يسمى « الطبقة الثالثة » وكان القسم الذى يؤديه المواطنون فى عيد اتحاد فرنسا الفيدرالى وكان القسم الذى يؤديه كل من يتقلد منصبا عاما . لقد كان هذا الميثاق يرمز الى معنيين خطيرين ، أولهما هو سيادة الشعب على نفسه وعلى سادته ، والثانى هو أنه حينما وجد الشعب وجدت « الشرعية » التى تجب كل شرعية عداها ووجدت وحدة الشعب التى لا يجوز لأية قوة ان تفضها أو تفرقها ، وهى وحدة باقية حتى يقرر الشعب مصيره بنفسه .

أما الدكتـــور جوزيف جيلوتـان Joseph Guillotin « ١٧٣٨ — ١٨١٤ » صاحب اقتراح اجتماع ملعب التنس ، فقد

كان الطبيب الخاص للكونت دى بروفانس ، فكان يدعو الى زيادة عدد أعضاء نواب « الطبقة الثالثة » وانتخب بين نواب باريس عام ١٧٨٩ · وفى يناير ١٧٩٠ اقترح على الجمعية التأسيسية ان تعمم الاعدام بقطع الرأس على كل المحكوم عليهم بالاعدام ، وكان من قبل مقصورا على طبقة النبلاء ، أما المجرمون العــاديون فكانوا يعدمون شنقا · واخترع الدكتور جيلوتان آلة ذات حد قاطع لحز الرءوس بسرعة وبدقة وبدون ألم بدلا من استعمال البلطة · فعين الدكتور انطــوان لــويس **Antoine Louis** الســكرتير الدائم لأكاديمية الجراحة ليدرس الموضوع ، فكتب تقريرا يزكى فيه هذا الاختراع ، وبالفعل صدر مرسوم يقرر استعمال هذه الآلة · وكان الناس فى البــداية يسمون هــذه الآلة « لويزون » **Louison** أى « لويزا الصغيرة » نسبة الى اسم الدكتور انطوان لويس صاحب التقرير · ولكن نشرة رسمية صدرت بعد ذلك وأسمتها « جيلوتين » **Guillotine** وهى الصيغة المؤنثة من اسم مخترعها جيلوتان ، وكأنها بنته الصغيرة · وقد تم ذلك رغم احتجاج الدكتور جيلوتان الذى كان لا يريد أن يقترن اسمه بهذه الآلة المرعبة التى نسميها « المقصلة » ·

وقد استخدمت المقصلة لأول مرة فى ٢٥ ابريل ١٧٩٢ لحز رقبة أحد اللصوص · وقد أوشك الدكتور جيلوتان نفسه أن يلقى حتفه على هذه المقصلة التى اخترعها حين قبض عليه فى عهد الارهاب بين المشتبه فيهم سياسيا · ولم ينقذه الا سقوط روبسبيير ورجاله فى ترميدور ، واعدامهم فى اليوم التالى ·

أمــا الكونت دى ميرابــو Comte de Mirabeau « ١٧٤٩ ــ ١٧٩١ » ، صاحب العبارة الشهيرة « نحن هنــا بارادة الشعب ولن نخرج من هنا الا على اسنة الحراب » ، فقد كان من

أخطب خطباء الثورة الفرنسية ، وكان أصلا من طبقة النبلاء ولكن طبقته تبرأت منه لانحيازه المستمر للجماهير • وكان فى شبابه مستهترا امتلأت حياته بالديون والفضائح ، حتى انه اعتقل بناء على طلب أبيه كما جرت العادة بين نبلاء ذلك الزمان حين يعجز أبيه عـن تقويم ولده فيستنجد بالملك ليؤدبه • وفى فترة اعتقـاله هرب مع صـــوفى مونييه Sophie Monnier زوجـة قومندان السجن ، وفر الى انجلترا وهولندا ، ثم قضى ٤٢ شهرا فى سجن فانسين « ١٧٧٧ ـ ١٧٨٠ » وعاش بعد ذلك من قلمه فى مختلف البلاد الأجنبية يكتب الكتيبات والمنشورات ضد الملكية المطلقة • وفى انتخابات « مجلس الطبقات » رفضته طبقته ، ولكنه فاز فوزا مبينا كنائب عن « الطبقة الثالثة » فى اكس ان برفانس ومرسيليا •

وقد استخدم ميرابو بلاغته العظيمة فى الدعوة للديمقراطية ، ولكن حدود الديمقراطية عنده كانت الملكيـــة المقيدة أو الملكيـــة الدستورية • وفى مايو ١٧٩٠ اتصل ميرابو سرا بالبلاط فاشتراه القصر الملكى ليدافع عن سياسته مقابل ان يدفع القصر ديونه • ولما مات ميرابو فى ٢ ابريل ١٧٩١ ، كان أول من دفن من رجال الثورة الفرنسية فى البانتيون « مقبرة الخالدين » ولكن رفاته نقلت فى ٢١ سبتمبر ١٧٩٤ عندما أكدت الدلائل تواطؤه مع القصر •

كان ميرابو أهم بطل من أبطال الثورة الفرنسية فى عاميها الأولين • كان المواطن الأول وكان الخطيب الأكبر • وقد ظل حتى نهاية الجمهورية الثالثة بطل الثورة الأعظم فى ذمة التاريخ يطلق اسمه على الشوارع والميادين والكبارى • ولكن الشعب الذى مجده حتى وفاته هو الشعب الذى نادى بشنقه قبيل وفاته لأن الأخبار ترامت بتواصله مع القصر ، وبأن مارى انطوانيت استدرجته فوقع فى فخاخها ، ثم تبين انهـــا كانت تتلاعب به وهو الضعيف أمام النساء وأمام المال •

وفى ٩ يوليو ١٧٨٩ قبل سقوط الباستيل بأيام أعلنت « الجمعية الوطنية » ان اسمها الجديد هو « الجمعية الوطنية التأسيسية » وان مهمتها هي وضع دستور للبلاد · وكان ميرابو فيها هو المدافع الأول عن الحريات رغم احترامه للنظام الملكى ، فدعوة الجمهورية لم تكن قد طرحت بعد ، وهى لم تطرح الا بعد هرب الملك والملكة للجوء الى أعداء البلاد ··

٤ ـ ميرابو

كان عمر الكونت دى ميرابو « ١٧٤٩ ـ ١٧٩١ » أربعين عاما عندما قامت الثورة الفرنسية وسقط الباستيل • وكان فى شبابه متلافا محبا للنساء غارقا فى الديون ، مليئا برذائل طبقته الارستقراطية • وكان يرى فى أبيه صورة للطاغية المنحط الأخلاق لأنه كان يحبس عنه المال رغم ثرائه الواسع ، فقد كان من طبقة النبلاء ، ويتحدث دائما عن الفضيلة وهو الذى هجر زوجته من أجل خادمته • بل لقد سجن ميرابو عدة مرات بناء على طلب أبيه الذى استصدر من الملك لويس السادس عشر أمرا باعتقاله فى سجن فانسين لتأديبه حيث قضى ثلاث سنوات ونصف السنة متصلة منذ ١٧٨٠ بموجب « خطاب مختوم » ممهور بتوقيع الملك ، كما كانت تسمى أوامر الاعتقال خارج ما رسم القانون فى ذلك

● نشرت بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٩/٨/٥ •

الزمان ، فقد كان النبلاء أحيانا يلجأون الى الدولة لتأديب أولادهم الذين يعجزون هم عن تأديبهم ·

فلا غرابة اذن ان يرى ميرابو فى لويس السادس عشر رمزا للملك الطاغية ، وان يتأثر بالأفكار الانجليزية الرافضة للملكية المطلقة والقائمة على الملكية الدستورية · وكانت هذه هى الدعوة السائدة بين أكثر المفكرين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، عصر التنوير : نجدها فى فولتير وفى مونتسكيو والمدرسة العقلانية بوجه عام · قال ميشليه : وعندما اجتمع « مجلس الطبقات » · « كان ميرابو حاضرا · وجذب اليه أنظار جميع النواب ، بشعره الضخم المعقوص ، وبرأسه الذى يشبه رأس الأسد ويحمل ملامح دمامة شديدة أدهشت الحاضرين ، بل أكاد أقول أرعبتهم ، فلم يمكن للأنظار أن تتحول عنه · كان من الواضح أن هذا كان رجلا ، وأن الباقين كانوا أشباحا · كان مع الأسف رجلا من عصره ومن طبقته ، مليئا بالرذائل مثل أبناء المجتمع الراقى فى زمانه ، مثيرا للفضائح فضلا عن ذلك ، شديد الجلبة ، جريئا فى رذائله ، وهذا ما قضى عليه · كانت على السنة الناس حكاياته ومغامراته وسجنه وغرامياته الهوجاء ، فقد كانت غرامياته عنيفة وجامحة وهوجاء · وكثيرا ما قادته شهواته الى الحضيض · كان فقيرا بسبب قسوة أسرته فعرف البؤس المعنوى ، فقد اجتمعت له رذائل الفقراء مع رذائل الأغنياء : عرف طغيان الأسرة وطغيان الدولة والطغيان المعنوى النابع من داخله ، من شهواته · فلم يكن هناك من هو أكثر حماسا منه لاستقبال فجر الحرية ·· كان يقول لأصحابه انه سيولد من جديد مع ميلاد فرنسا الجديدة ·· ورغم ما أصاب وجهه من شحوب وترهل ، كان دائما يمشى رافع الرأس جرىء النظرات ، وأحس كل الناس انه كان يمثل صوت فرنسا العظيم « الكتاب الأول ، الفصل الثانى » ··

كان يؤمن بضرورة التوازن بين سلطة العرش وسلطة « الجمعية الوطنية » : عرش ضعيف لا خير فيه وبرلمان ضعيف لا خير فيه • ولكنه كان يعمل علنا لتقوية سلطة البرلمان ، ويعمل سرا لتقوية سلطة الملك ، وهذا ما جلب عليه الكوارث فى النهاية عندما افتضح أمره ، ولا سيما بعد وفاته • وازداد الموقف سوءا عندما تأكد انه كان يبيع خدماته للعرش مقابل المال ليسدد ديونه ، وان علاقاته بالبلاط كانت قائمة حتى قبل الثورة ، وقد أصبح ميرابو مستشارا سريا للملك والملكة •

كانت الملكة مارى انطوانيت قد اشترت فى ١٧٨٥ قصرا ملكيا جديدا فى ضاحية سان كلو Saint-Cloud خارج باريس وانتقلت اليه مع زوجها الملك لويس السادس عشر • وكانا شبه أسيرين فى هذا القصر منذ سقوط الباستيل • فقد كانا يتجولان فى حدائقه ، بل ويقومان ببعض الزيارات الخاصة فى حرية نسبية ، وكان يحيط بهما الحرس الوطنى الذى بقى نسبيا على ولائه لهما حتى أوائل ١٧٩٠ • وكانت الملكة وهى تمر فى مركبتها تسمع بعض نساء الشعب يهتفن ضدها قائلات : « يحيا دوق أورليان ! » • فقد كان فيليب دوق أورليان ، ابن عم الملك وغريمه يتودد الى الجماهير باسم الديمقراطية ، حتى لقبوه « فيليب المساواة ! » Philippe Egalité وقد لعب دورا فى الاطاحة بلويس السادس عشر ، فتمتقع الملكة وتوشك أن تتهافت ، ومع ذلك فقد كانت تتماسك لشدة غطرستها واحتقارها للرعاع •

وفى ٣ يوليو ١٧٩٠ كانت الجمعية التأسيسية التى تضع الدستور تناقش مادة على غاية ما يكون من الخطورة ، وهى : أيهما يملك الحق فى اعلان الحرب والسلم ، الملك أم الجمعية الوطنية ؟؟

وفى ٣ يوليو ١٧٩٠ كان هناك موعد مرتب بين ميرابو والملكة مارى أنطوانيت فى حدائق قصر سان كلو بعد ـ ان ـ تقاضى ميرابو

من القصر مبلغا من المال فى نهاية شهر مايو ، ودافع فى الجمعية التأسيسية عن حق الملك فى اعـــلان الحرب والسلم ، بما جعل الجماهير تتألب عليه فى حدائق قصر التويلرى فى قلب باريس وتطالب باعدامه شنقا بوصفه عدو الشعب •

وليس هناك بين المؤرخين من عثر على فحوى ما دار بين الملكة وميرابو من مفاوضات وان كان بعضهم يوحى بأن ميرابو طرح على مارى أنطوانيت تصوراته لكيفية انقـاذ العرش وحريات الشـعب معا ، أما الملكة فلم تفصح عن شىء كثير ، بل احتفظت بأفكارهـا لنفسهـــا • وعلى كل ففى نهـــاية المقـابلة قال ميرابو للملكة : « يا سيدتى ، عندما كانت جلالة أمك المعظمة تعطى واحدا من رعاياها شرف المثول فى حضرتها ، لم تكن أبدا تصرفه دون ان تعطيه يدها ليقبلها » •• فقدمت مارى أنطوانيت يدها لميرابو فقبلها • وانحنى ميرابو قائلا فى حرارة وشموخ : « سيدتى أن الملكية قد انقذت ! »•

ولكن التاريخ يقول أيضا أن ميرابو الذى خرج من عند الملكه راضيا بما غمرته به من عطف خرج أيضا مخدوعا ، لأن الملكة كتبت لعميلهـــا فى المانيـــا مسيو دى فلاكســلاندن Flachslanden تقول انهم فى البلاط يستخدمون ميرابو ، ولكن ليس فى علاقتهم به شىء يؤخذ مأخذ الجد » •

ويوحى ميشليه ، الذى يضفى دائما جوا رومانسيا على أحداث التاريخ وشخصياته ، ان هناك بعدا عاطفيا فى هذا اللقاء بين مارى أنطوانيت وميرابو الى جانب البعد السياسى المعروف ، فهو يقول ان الملكة اكتشفت فى هذا المهيج السياسى المرعب ، قلب انسان رقيق على طريقته الخاصة •

مات ميرابو بعـد شهر من لقائه هذا بالملكة • كانت صحته فى تدهور مستمر بسبب اسرافه فى ارضـاء شهواته ، وبسبب

ضراوة صراعاته مع الغير وضراوة صراعاته مع نفسه . قال ميشليه : « كلا .. ان ميرابو لم يمت الا من كراهية الشعب له . كان معبودا ثم كفروا به ، كان له نصره العظيم فى اقليم بروفانس حيث أحس انه يرتاح على صدر الوطن ، ثم فى مايو ١٧٩٠ تظاهر الشعب فى حدائق التويلرى وطالبوا به لشنقه ! ... وكان هو نفسه يواجه هذه العاصفة بضمير غير نقى ، كان يضع يده على صدره ، فلا يحس الا بالمال الذى تلقاه من البلاط فى الصباح » .. هذا عند ميشليه ماجره الى القبر فى سن مبكرة : انه اكتشف انه كان ضحية خديعة كبرى ، ان الملكة كانت تضمر شيئا آخر غير مصالحة الشعب . كانت تحاول تأليب الأقاليم على « الجمعية الوطنية » حتى يمكن حل الجمعية الوطنية وتشكيل جمعية أخرى تقوم بتعديل الدستور الذى وضعته الجمعية التأسيسية .

لقد كانت مأساة ميرابو الحقيقية هى كيف تميز حاجته للمال وكيف تميز ايمانه بضرورة حفظ التوازن بين سلطة العرش وسلطة الأمة بهذا وحده يمكن تفسير تفانيه فى خدمة الشعب والعرش معا . ولكن الملك الأعمى وبلاطه الرجعى وارستقراطيته المنحطة كانوا لا يرون فى ميرابو الا سمسارا سياسيا . أما القيادات الشعبية فى « الجمعية الوطنية » فقد كانت ترى فيه عميلا للبلاط . وقد ذكر هو ذلك فى خطاباته لأصدقائه كما ورد فى كتاب نوجاريه Cbaassinand-Nogaret : « ميرابو » .

كانت أكبر معارك ميرابو الأولى تتصل بقضايا الحرية والمساواة والغاء الامتيازات الطبقية ثم حماية العرش من دكتاتورية الشعب .

وقد تمثلت الأزمة الأولى فى اصرار الملك وطبقة النبلاء على الفصل بين الطبقات فى اجتماعات « مجلس الطبقات » بحيث يجتمع ممثلو كل طبقة على حدة ويجرى التصويت على الضرائب

ومشروعات القوانين فى كل مجلس على حـــدة ، وبهذا يتأكد مبدأ فصـــل الطبقات من جهة وينعدم مبـدأ المســـاواة بين المواطنين من جهة ثانية ، وتهدر الأغلبية المرجحة « للطبقة الثالثة » فى السلطة التشريعية من جهة ثالثة ، لأن نسبتها تكون دائما نسبة ١ الى ٢ فى القرار الأخير : أى صوت واحد « للطبقة الثالثة (الشعب) » ضد صوتين « لطبقة النبلاء » و « لطبقة رجال الدين » ٠

فقد كان مجموع عدد النواب فى البرلمان أو « مجلس الطبقات » ١١٥٤ نائبا ، منهم ٢٩١ يمثلون رجال الدين ، و ٢٨٥ يمثلون النبلاء ، و ٥٧٨ يمثلون الطبقة الثالثة ، أى « الشعب » ٠ ومعنى هذا انه فى أية محاولة لاعتبار البرلمان وحدة واحدة ، تكون لممثلى الشعب أغلبية دائمة من ٥٧٨ صوتا حتى لو اتحدت كلمة النبلاء ورجال الدين ، ومجموعهم معا ٥٧٦ نائبا ٠

وقد ازداد الأمر خطورة حـين تبين منذ اللحظة الأولى بعد الانتخابات ان طبقة رجال الدين انقسمت على نفسهـا فانضـمت أغلبيتها وهم فقراء القساوسة وعددهم أكثر من مائتين ، الى « الطبقة الثالثة » ولم ينضم الى طبقة النبلاء الا نحو ثلاثين نائبا من صدور الكنيسة كالكرادلة والأساقفة ٠

فاذا ذكرنا ان بعض نواب النبلاء كانوا فى جانب الشـعب بسبب الاستنارة الفكرية أو للخصومات الشـخصية أو للمصلحة الخاصة ، كانت الحصيلة النهائية انه فى حالة ادماج الطبقات الثلاث فى برلمان واحد ذى مجلس واحد تكون لنواب الشعب أغلبية دائمة ساحقة قوامها نحو ٨٠٠ صـوت وتكون لطبقة النبلاء اقلية دائمة واضحة قوامها نحو ٢٥٠ صوتا ٠ وكان هذا وحده كافيا لتصفية المجتمع الاقطاعى والغـاء الامتيازات الطبقية ، كافيا لعجن الأمة الفرنسية فى عجينة واحدة ٠

وهذا ما أخاف الملك والنبلاء فاعترضوا على هذا الادماج فى احتقار شديد · بل ان الخطبة الملكية لم تتحدث عن تمثيل الملك « لشعبه » بل تحدثت عن تمثيل الملك « لشعوبه » وكأنما له ثلاثة شعوب فى فرنسا هم الارستقراط ورجال الدين والعامة ·

وقد كانت الأفكار الانجليزية ، أى مبادىء الملكية الدستورية ، منتشرة فى فرنسا وقت هذا القلق العظيم : وهذا ما حدا بالطبقة الثالثة أولا ان تسمى نفسها « مجلس العموم » فهناك أيضا « مجلس لوردات » · وهذا يتضمن اعترافا صريحا بأن المجتمع مكون من طبقتين لا من طبقة واحدة · وربما كان من الممكن أن تقف الأمور عند هذا الحد لولا تعنت الملك وصلف النبلاء الذين أصروا على انفصال الطبقات الثلاث لا فى القاعات وحدها ولكن فى القرارات نفسها ، حتى التحقق من صحة العضوية والطعون قد أصروا على أن تقوم بها ثلاث لجان منفصلة ، كل طبقة تفحص أوراق ممثلى طبقتها على حدة ·

وهذا ما دفع « الطبقة الثالثة » ، ومن ورائها كل هذه الأغلبية الساحقة ان تقفز هذه القفزة الكبرى فتسمى نفسها « الجمعية الوطنية » Lassemblée Nationale أو حرفيا « جمعية الأمة » ، أو ما نسميه نحن « مجلس الأمة » · ليس فى فرنسا امتان « نبلاء وعامة » وانما فيها أمة واحدة هى الأمة الفرنسية بجميع طبقاتها وفئاتها وكلهم متساوون فى الحقوق والواجبات · بهذا يتحقق مبدأ المساواة ·

وفى خارج الجمعية الوطنية كانت جماهير فرساى تظاهر الطبقة الثالثة بالمظاهرات وتهين النبلاء وكانت باريس تغلى ومن ورائها الأقاليم · كان سقوط الباستيل رمزا لانتصار الحرية ، وكان انشاء « جمعية الأمة » رمزا لانتصار المساواة ·

وكان البطل الثانى بعد ميرابو فى هـذه المرحلة هو سييز Sieyes قال سييز : « ان الواجب العاجل على كل ممثلى الأمة ، أيا كانت طبقة المواطنين التى ينتمون اليها ، ان يكونوا بلا تأجيل جديد جمعية عاملة قادرة على البدء فى مزاولة نشاطها وعلى تحقيق رسالتها » • وبدأت الجمعية العمل بدعوة الطبقتين الآخرين للنظر فى صحة عضوية الأعضاء أى صحة تفويضات النيابة •

وكان سييز معتدلا مثل ميرابو ، فاقترح ان تسمى جمعية العموم نفسها « جمعية النواب » أو « مجلس النواب » كما كنا نقول نحن فى دستور ١٩٢٣ • وكان ميرابو يخشى الانزلاق الى التطرف فى تجاهل النبلاء والتكلم باسم « الأمة » كلها بما يستفز الملك الى حل البرلمان « مجلس الطبقات » وبذلك تخسر « الطبقة الثالثة » كل شىء ويعود النبلاء لحكم البلاد حكما مطلقا من خلال الملك وتبدأ أعمالهم الانتقامية من « العموم » دون أن يكون لهم ذلك الشرف البغيض ، شرف جر البلاد الى حرب أهلية » • وبناء عليه اقترح ميرابو على مجلس العموم ان يسمى نفسه « مجلس الشعب » Assembleé du Peuple دون ادعاء انه يمثل كل الأمة •

وسئل ميرابو ان كان فى تصوره مكان لمجلس ثان « كمجلس اللوردات » ، فأجاب : كلا •• فالمجلس لن يعترف « بأى اعتراض من الطبقات الممتازة ولا بأى حق فى اتخـاذ قرارات منفصلة عن قراراتنا » ، واستقبل الأعضـاء خطابه باستياء واضح وازداد الاستياء عندما أيده عضو اسمه مالويه Malouet فقد كان الأعضاء يشتبهون فى ان مالويه كان يعمل لحساب وزير المالية نكر Necker وهاجم ميرابو عضو اسمه توريه Thouret مهاجمة عنيفة قائلا ان كلمة « الشعب » تحمل معنى « الرعاع » لأن كلمة Peuple

كلمة غامضة فهى ترادف كلمة Plebe اللاتينية بمعنى « الرعاع » وفى هذه الحالة توافقون على فصل الطبقات » ، أو ترادف كلمة Populus اللاتينية بمعنى « الأمة » وفى هذه الحالة تتجاوزون بكثير مراد « مجلس العموم » ·

وطرح عضو مغمور اسمه ليجران Legrand اسم « جمعية الأمة » هذا الذى نترجمه الآن بعبارة « الجمعية الوطنية » · واحتدمت المناظرة بين ميرابو وخصومه الى حد المهاترات وايهام ميرابو بأنه عميل السلطة ، وأخذت الأصوات ففاز اسم « جمعية الأمة » أى « الجمعية الوطنية » كما نترجمها فى العربية ، بأغلبية ٤٩١ صوتا ضد ٩٠ صوتا ·

وتحققت مخاوف ميرابو · قال ميرابو : « خسارة ! انهم كانوا يتوهمون انهم فرغوا من كل شيء ، ولكننى لن أدهش اذا جاءت الحرب الأهلية ثمرة لقرارهم البديع هذا » · وبالفعل أصيبت طبقة النبلاء برعب حقيقى وانتابتها حالة سعار لأنها أدركت أنها على وشك أن تفقد كل امتيازاتها الاقطاعية وكانت أول نتيجة لدعوة المساواة ان الملك أدخل « الطبقة الثالثة » الى « مجلس الطبقات » فى فرساى من سلم الخدم ·

ولما وقعت الواقعة وبدأ التحدى العظيم وجد ميرابو نفسه مرة أخرى يقود نواب الشعب ثم الجماهير فى كفاحهم وكفاحها من أجل الحرية والمساواة · كتب ميرابو يقول : « ألا يبدو مجافيا للمنطق ان توضع مصالح مائتى ألف شخص يتمتعون بالامتيازات الطبقية فى موضع التعارض مع مصالح خمسة وعشرين مليونا من المواطنين ؟ » (نوجاريه : « ميرابو » ص ١٦٣) ·

حين كان ميرابو على فراش الموت فى ربيع ١٧٩٠ ، قال : « أنا أمضى وأحمل معى رفات الملكية ، وسوف تتنازع على انقاضها

الأحزاب المتناحرة » .. كانما كان يتنبأ بما سيجرى من أحداث دموية فى الثورة الفرنسية .

كتب ميشليه يصف لحظات ميرابو الأخيرة :

« وسمع طلقة مدفع فصاح منتفضا : أهذا جناز أقيم قبل الأوان ؟ » .

وفى صباح ٢ ابريل فتح نوافذ بيته وقال لى « المتحدث هو طبيبه كابانيس » أنا سأموت اليوم يا صديقى ، وعندما نصل الى النهاية لا يبقى أمامنا الا شيء واحد : ان نتعطر وان نتتوج باكاليل الزهر وان نحيط أنفسنا بالموسيقى لكى ما ندخل برضا فى النوم الذى لا صحو منه » . ثم استدعى خادمه الخاص وقال : « هيا جهز لحلاقتى ، ولغسلى وتزيينى بالكامل » ..

ومات نحو الثامنة والنصف ..

وكان الحزن عليه عظيما وشاملا فسكرتيره الذى كان يعبده والذى جرد سيفه عدة مرات من أجله ، أراد أن ينتحر بحز رقبته .. وأغلق الناس المسارح بل وفضوا بصياحهم حفلا راقصا كان يفسد هذا الحزن الحميم .

★★★

وفى ٣ أبريل تقدمت محافظة باريس للجمعية الوطنية بطلب ووفق عليـه ، وهو أن تخصص كنيسـة سانت جنفييف كمقبرة لعظماء الرجال ، وان يكون ميرابو أول من يدفن فيها ، وان يكتب على واجهة الكنيسة : « الوطن عارف بجميل عظماء الرجال » وكان مدفونا فيها ديكارت ثم لحقه فيها فولتير وروسو . ولكن الآراء

تضاربت فمنها أن فى ٤ ابريل كانت أكبر جنازة عرفهـا العالم واكثرها شعبية قبل جنازة نابوليون فى ١٥ ديسمبر ١٨٤٠ وكان الشعب وحده هو الذى يحافظ على النظام ، ونجح ذلك نجاحا يدعو الى الاعجاب فلم يقع حادث واحد فى هذا الجمع المكون من ٣٠٠ الف أو ٤٠٠ ألف مشيع • وكانت الشوارع والنوافذ والأسطح والأشجار ملأى بالمشاهدين •

وعلى رأس الموكب مشى لافاييت يحفه أثنا عشر من رجاله فى صورة حلقة حاجزة • ثم مشى ترونشيه رئيس الجمعية الوطنية ، ووراءه كل أعضاء الجمعية قاطبة دون تمييز بين أحزابهم السياسية •

وبعد أعضاء الجمعية الوطنية مباشرة مشى قبل كل الهيئات أعضاء نادى اليعاقبة ، مشوا فى كتلة متراصة وكأنهم جمعية وطنية أخرى واعرابا عن حزنهم أعلنوا الحداد ثمانيـــة أيام ، وكل عام للذكرى السنوية الى ما لا نهاية ؟

ولم يستطع هذا الحشد الوصول الى كنيسة سان يوستاش Saint-Eustache الا فى الساعة الثامنـة والقى سيروتى خطبة رثائه • وأطلق عشرون ألفا من الحرس الوطنى من بنادقهم رصاصة الوداع فتكسر زجاج كل النوافذ ، وظن الناس لحظة أن الكنيسة ستنهار على التابوت •

واستأنفت الجنازة سيرها على ضوء المشـاعل وكان الحزن مهيبا ، فقد كانت هـذه أول مرة لا يسمع الناس فيهـا الا آلتين موسيقيتين غاية ما يكون فى القوة همـا النفير والطبلـة • وكان لحنهما متباعدا تماما فهصر القلوب هصرا • وبلغ الموكب كنيسة سانت جنيفييف فى وقت متأخر من الليل •

ومنذ موت ميرابو سارت الثورة فى منحدر سريع مشت فى طريق غائم يؤدى اما الى النصر واما الى القبر • وفى هذا السبيل افتقدت الثورة رجلا كان رفيق طريقها المجيد ، رجلا كبير القلب ، رجلا بلا مرارة ولا ضغينة ، سخى مع أقسى أعدائه • لقد مضى ميرابو وأخذ معه شيئا لم يكن معروفا من قبله ، ولم يعرف الا بعد أن فات الأوان ، ألا وهو روح السلام وقت الحرب ، والطيبة رغم سيطرة العنف : أخذ معه الوداعة والانسانية •

أما لامارتين Lamartine الذى بدأ كتابه « تاريخ الجيروند Histoire des Girondins بموت ميرابو ، فقد قال فيه :

هذا المهيج الجماهيرى العظيم لم يكن أكثر من رجل من رجال البلاط المذعورين الذين يحتمون بالعرش وهم لا يزالون يتشدقون بكلمات رهيبة مثل كلمة « الأمة » وكلمة « الحرية » رجل جعله دوره الذى أداه يصاب فى روحه بكل صغار البلاط وبكل أفكارهم المغرورة • ان عبقريته تدعو للرثاء حين نراه يصارع المستحيل • لقد كان ميرابو أقوى رجال عصره ولكن أقوى الرجال لا يبدو أكثر من مجنون اذا ما صارع عناصر الطبيعة فى هياجها • ان الانهيار لا يكون جليلا الا اذا سقط المنهار مع فضيلته » •

[الكتاب الأول ، الفصل الثانى]

أما ادجار كينيه Edgar Quinet فيلخص الموقف بقوله : « ان فســاد ميرابو هو الذى جاء بروبسبيير الذى لا ســبيل الى افساده » ••

٥ ـ النظام الاقطاعى

انتصرت الجمعية الوطنية على الملك لويس السادس عشر عندما قررت فى ١٧ يونيو ١٧٨٩ ان تطلق على « مجلس الطبقات » اسم « الجمعية الوطنية » أو « مجلس الأمة » وبذلك ادمجت مجلس النبلاء ومجلس رجال الدين ومجلس الشعب فى مجلس واحد لا طبقات فيه ، أى ادمجت طبقات فرنسا كلها فى أمة واحدة ٠ ثم انتصرت عليه مرة أخرى عندما أمرها ، فى غطرسة الحاكم المطلق ، ان تنفض وتعود للانعقاد فى شكلها الطبقى القديم ، فتحدته فى ٢٠ يونيو ١٧٨٩ عندما اقسم أغلبية أعضائها على ميثاق ملعب التنس الا تنفصل أبدا الى طبقات مستقلة ، وعلى ان الجمعية الوطنية سيدة على نفسها وعلى قرارها ٠

فلم يكن أمام الملك اتحاد أغلبية نواب الأمة الا طريقان : أما الرضوخ لارادة الأمة بالموافقة على هذا القرار الذى صفى

● نشرت بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٩/٨/١٢ ٠

« النظام القديم » بالغاء مجلس الطبقات المتخلف من عصور الاقطاع ، وأما التحرك لحل هذا المجلس الثائر وتشتيت أعضائه ٠

والواقع ان لويس السادس عشر ، منذ أن ثار نبلاؤه على سلطاته المطلقة قبل ذلك بعامين أصبح مجرد أداة فى يد طبقة النبلاء ، يحركه اخوة الكونت دارتوا Comted' Artois وأمثاله من الرجعيين ، ولذا اختار الطريق الثانى وسار فى سكة الندامة ٠ اختار التحرك لحل الجمعية الوطنية الثائرة وتشتيت أعضائها ٠ وفى نفس اليوم الذى أصدر فيه الملك قراره باندماج الطبقات الثلاث فى هيئة نيابية واحدة حشد الملك حول باريس وفى ضاحية فرساى Versailles مقر الحكم (القصر الملكى والجمعية الوطنيـة) ، جيشـا قوامه ٢٠ر٠٠٠ جندى ، استعدادا لحل الجمعية الوطنية ٠

وهكذا التهبت المشاعر داخل الجمعية الوطنية وفى الشارع الفرنسى ، فى باريس وخارج باريس ٠ وأخذ رجل الشارع يتحدث عن « المؤامرة الارستقراطية » ٠ وفى أول يوليو ١٧٨٩ نشر مارا Jean-Paul Marat منشورا بعنوان « بيان للشعب ، أو « كشف النقاب عن الوزراء ، جاء فيه : أى أخوتى المواطنين ، راقبوا دائما سلوك الوزراء لتبنوا عليه سلوككم ان هـدفهم هو حل جمعيتنا الوطنيـة ،، ووسيلتهم الوحيدة هى الحرب الأهلية ٠ ان الوزراء يشعلون الفتنة ! ٠٠ انهم يحيطونكم بجهاز العسكر الخطير وبالحراب ٠

وفى ٨ يوليو ١٧٨٩ قررت الجمعية الوطنية بناء على تقرير من ميرابو ، توجيه طلب الى الملك تطلب منه فيه ابعاد الجند الذين كان أكثرهم من السويسريين والألمان ، جاء فيه : « ما الداعى اذن ان يستدعى ملك يعبده خمسة وعشرون مليونا من الفرنسيين بضعة آلاف من الأجانب حول عرشه متكبدا باهظ النفقات ؟ » فرد الملك فى ١١ يوليو عن طريق حامل أختامه انه ما جمع كل هذا الجند الا

ليتقى تجدد الفتن . وفى نفس اليوم أقال وزير المالية نيكر Necker وعين مكانه وزيرا من الداعيين صراحة الى الثورة المضادة ، هو البارون دى بريتوى Baron de Breteuil واستدعى المارشال دى بروجلى Marechal de Broglie وزيرا للحرب .

وأحس الشعب أن ساعة المواجهة اقتربت وعد الممولون وأصحاب ريع الأملاك طرد نيكر بمثابة نذير بافلاس الدولة . واحتج تجار العملة باغلاق البورصة فى ١٢ يوليو . وتدهورت الأحوال ، وأغلقت المسارح وانتشرت الاجتماعات والمظاهرات وخطب كاميل ديمولان Camille Desmoulins فى الجماهير فى الباليه روايال Palais Royal ، وفى حدائق التويلرى Tuileries القصر الملكى القديم تصادمت الجماهير المتظاهرة بقوات الأمير لامبيسك Lambesc فدقت النواقيس منذرة بالخطر ونهبت الجماهير دكاكين السلاح .

وفى ١٣ يوليو أعلنت الجمعية الوطنية تقديرها لنيكر والوزراء المقالين وأسفها لاقالتهم ، وتجددت المظاهرات العنيفة والبحث عن السلاح .

وفى ١٤ يوليو كان الزحف الكبير وكان سقوط الباستيل ، وهكذا أنقذت الجماهير الهادرة الجمعية الوطنية من الحل الذى كان رتبه لها لويس السادس عشر . وسحب الملك قواته من المنطقة بناء على نصيحة بعض النبلاء المعتدلين الراغبين فى انقاذ الملكية ، واغتنمت الطبقات المتوسطة ، فرصة انتصار الجماهير فى الباستيل وأقامت فى دار البلدية (الهوتيل دى فيل) مجلس ثورة أسمته كوميونة باريس Commune de Paris وانتخب بالى Bailly عمدة باريس ، وعين لافاييت Lafayette قائدا للمليشيا البورجوازية التى سميت « الحرس الوطنى » .

وتراجع الملك فاعاد نيكر الى الوزارة فى ١٦ يوليو وقبل إن ينتقل من فرساى الى قصر التويلرى فى باريس تحت ضغط المظاهرات واستقبله العمدة بالى فى دار البلدية ، واهداه الكوكارد La Cocarde وهى الشارة المثلثة الألوان رمزا لوحدة الشعب والملك . وقال الملك فى لحظة انفعال : « يستطيع شعبى أن يعتمد على حبى له » .

وسخطت الارستقراطية سخطا شديدا على انهيار الملك أمام أحـداث منتصف يوليو ١٧٨٩ ، فبدأت حركة هجرة النبـلاء من فرنسا : فى فجر ١٧ يوليو هاجر الكونت دارتوا مع أسرته ومعيته الى هولندا ، وتبعه فورا البرنس دى كونديه Prince Conde وكل أسرته . وهاجر دوق ودوقة بولنياك Polignac الى سويسرا ، وهاجر المارشال بروجلى الى لكسمبورج . وتبعهم المئات ثم الآلاف من النبلاء .

وكما حدث فى باريس استفادت البورجوازية (أى الطبقات المتوسـطة) من ثورات الشعب فى المدن فاستولت على السلطة وسـيطرت على المجالس البلدية ونظمت فى كل مدينة ميليشـيا بورجوازية تحت اسم الحرس الوطنى .

كان تعداد فرنسـا أيام الثورة الفرنسية نحو ٢٥ مليون نسـمة (فى تقدير نيكر ٢٤٫٧ مليون وفى تقدير سـوبول Albert Soboul نحو ٢٧٫٥ مليون نسمة) بينما كان تعداد انجلترا فى نفس الفترة ٩ ملايين نسمة وتعداد أسبانيا ١٠٫٥ مليون نسمة. وقد أدى تضخم السكان فى فرنسا الى غلاء أسعار الأغذية ولا سيما فى المدن المتضخمة .

وكان اقتصاد فرنسا قائما على الزراعة بصفة أساسية ، مما جعل الطبقة الحاكمة من كبار الملاك الزراعيين ، ولكن نمو الطبقات

المتوسطة المعروفة بالبورجوازية (الصغيرة والمتوسطة والعليا) عبر القرون غير مضمون المجتمع الفرنسى دون أن يحدث أى تغيير فى الهيكل السياسى أو القانونى أو الاجتماعى التقليدى المتوارث عن العصور الوسطى · فظلت الطبقات المتوسطة رغم استفحالها محرومة من المشاركة فى حكم البلاد · وهذا الصدع الكبير بين الشكل والمضمون مع انتشار حركة التنوير ويقظة الجماهير والضيق الاقتصادى الشديد الى حد الجوع أحيانا هو الذى فجر الثورة الفرنسية ·

كان المجتمع الفرنسى حتى الثورة الفرنسية مجتمعا اقطاعيا أسسه من مخلفات العصور الوسطى · وكانت أهم هذه الأسس هى تكون المجتمع من ثلاث طبقات تسودها علاقات قانونية وفعلية قائمة على فلسفة تقول ان اختلاف الوظائف ينبع من فوارق أصيلة بين البشر وبالتالى يحتم انعدام المساواة بين البشر · وقد كرست الكنيسة هذه الفلسفة وهذا النظام لأنهما كانا يدعمان سلطانها وامتيازاتها ·

هذا التقسيم الطبقى فى العصور الوسطى جعل الناس كالآتى :

(أ) طبقة من يصلون وهؤلاء هم رجال الدين ·

(ب) طبقة من يحاربون وهؤلاء هم النبلاء ·

(ج) طبقة من يعملون لاطعام الباقين وهؤلاء هم « الشغالة » Laboratores · وهم الطبقة الثالثة · وقد اغتصب النبلاء الأرض من الشغالة لأنهم كانوا يعيشون بالسيف ولم يمتلكوا الأرض وحدها ولكن امتلكوا ما عليها من الشغالة فجعلوهم رقيقا أو اقنانا وفرضوا عليهم التزامات وواجبات محددة مثل الخدمة العسكرية ، ومثل العمل بالسخرة فى أرض النبيل الذى يوفر لهم الحماية ، ومثل

اقتسام المحصول مع النبيل فيما يزرعون من أرض ، وهو نوع من المزارعة بالاكراه أساسه ان حق الرقبة على الأرض ، أى الملكية ، للنبيل وحق الانتفاع بمقابل للفلاحين الأقنان .

وكان النبلاء يرثون أو يشترون الأرض ومن عليها من اقنان بقوة القانون مما ربط الفلاحين بأرض النبيل وشخصه وحدد حريتهم فى الانتقال وبعد ان كانت هذه الحيازات البشرية مجرد اغتصاب بقوة السيف . أصبحت لها وثائق مسجلة وأسانيد قانونية . كذلك كانت للنبلاء حقوق على المراعى وما فيها من قطعان وعلى الغابات وما فيها من صيد ، وفى بعض الأحوال . كانت لهم حقوق على نساء الأرقاء كما فى حالة فيجارو الشهيرة .

وكان الملوك والنبلاء يقطعون الكنيسة والأديرة أطيانا شاسعة ويهبونها حق جباية العشور ، وهو نوع من الزكاة المسيحية ، تحول الى فرض أتاوات ، لكى تقدس الكنيسة النظام الاقطاعى قائما على القوة القاهرة ، أو على سيف المعز وذهبه كما نقول نحن فى بلادنا ، أصبح يقوم على الحق الالهى . وكان الملك هو الاقطاعى الأول ورأس الطبقة الارستقراطية (النبلاء) ، وكان يملك ويحكم بالحق الالهى .

وكان من حق الارقاء أو الفلاحين الاقنان ان يشتروا قانونا عتقهم أو التزاماتهم أو أثقالهم المالية بالمال بموجب صكوك مسجلة .

وهكذا ولدت الطبقة أو الطبقات المتوسطة التى تسمى البورجوازية انسلخت من طبقة الشغالة . فكان قوام البورجوازية الرجال الأحرار فى المدن أو البنادر ممن يحملون وثيقة تحرير أو اعتاق . وأصبحت البورجوازية فى المدن هى « الطبقة الثالثة » فى المجتمع بعد النبلاء ورجال الدين (حرفيا : البورجوازية هى الطبقة

ساكنة « البورج » و « البورج » هو « البندر ») · وكان أكثرهيا من التجار والحرفيين · وباتساع النشاط التجاري والحرفي منذ القرن الحادى عشر ظهرت مصادر جديدة للثروة المنقولة دعمت البورجوازية وجعلت منها طبقة ذات كيان اجتماعي واضح ·

ومنذ تكون فرنســـا كدولة بين ٩٠٠ و ١٠٠٠ ميلادية أخذت قوة الملك تتعاظم فسحب الملك سلطات النبلاء السيادية التي كانت تجعل من النبلاء أشباه انداد له ، ولكنه ترك لهم امتيازاتهم الاقتصادية والاجتماعية ولم يدخل العامة الريفيون « الطبقة الثالثة » الا فى ١٤٨٤ عندما اشتركوا لأول مرة فى الانتخابات · ودرجة درجة تبلور نظام الطبقات الثلاث حتى أصبح نظام الحكم فى الدولة · وفى ١٧٥٦ عرف فولتير الطبقات الثلاث بأنها « أمم داخل الأمة » بالمعنى القانونى فى « بحث فى عادات الأمم وروحها » ولم تكن هـــذه الطوائف الثلاث مجرد طبقات اجتماعية ، فقد كانت كل طائفة منها تنقسم الى فئات بعضها فى تناقض مع بعضها الآخر ·

وفى القرن الثامن عشر كانت البورجوازية (الطبقاته المتوسطة) هى اهم ممول للدولة ، وتضاءل دور النبلاء ، فأصبح الواقع الاجتماعى والقانونى لا يتمشى مع الواقع الاقتصادى ، فاندلعت الثورة الفرنسية لأن النبــلاء استمروا فى حــكم البلاد ، رغــم ان الكوادر الوسطى والسفلى من الادارة الحكومية كانت من ابناء البورجوازيـــة هذا هو التفســير الذى يعطيه العلامة البير ســـوبول Albert Soboul فى كتابه الخطير : « الثورة الفرنسية » · هذا بالاضافة الى الانفجــار السكانى وانتشار التعليم وفلسفة « التنوير » وتقدم طرق المواصلات الذى ربط بين اقطاعيات فرنسا (اماراتها ودوقياتهــا وكونتياتهــا او « سنجقياتها ») التى حافظت على نظمها وتقاليدها البالية المتوارثة عن العصور الوسطى بما جعل من فرنسا عدة دويلات تعددت فيها

المقاييس والموازين والمكاييل وقامت بينها الحواجز الجمركية وتضاربت فيها القوانين ، وبينما حافظ شمال فرنسا على تقاليده كان جنوبها يحكمه القانون الرومانى ٠

وعندما نتحدث عن انحطاط الارستقراطية (أى طبقة النبلاء) منذ ظهور الملكية المطلقة ، انما نقصد ان الملوك الأقوياء ، وكان أخرهم لويس الرابع عشر (١٦٣٨ ـ ١٧١٥) ، سحبوا من النبلاء أهم مصادر قوتهم السيادية مثل تحصيل الضرائب وتجنيد العسكر وسك العملة وتصريف العدالة ، ولكن ابقوا لهم على امتيازاتهم و « حقوقهم » الاقتصادية وعلى وضعهم الاجتماعى ٠

وكان عدد النبلاء قبل الثورة الفرنسية ٣٥٠ر٠٠٠ نبيل (أى ٣ر١ من عدد السكان) وكانوا هم الطبقة الثانية تحت النظام الملكى بعد رجال الدين ، ولكنهم ظلوا الطبقة الأولى فى حكم البلاد ٠ وكانوا يملكون خمس أراضى فرنسا ، ولكن نسبة أراضى النبلاء كانت تختلف من منطقة الى منطقة ، ففى الغرب بلغت نحو ٦٠٪ ، وفى بورجونيا نحو ٣٥٪ ، وفى الشمال ٢٢٪ ، وفى بيكاردى وأرتوا ٣٢٪ ، وفى الوسط ١٥٪ ٠ ومن بين هؤلاء النبلاء كان هناك نحو ٤٠٠٠ نبيل كانوا نبلاء بلاط يعيشون فى فرساى فى معية الملك على كرم معاشاته وعلى مرتباتهم العسكرية حياة البذخ الشديد ٠ ومن النبلاء من كانوا يتزوجون من بنات البنكيرات والبورجوازيين المليونيرات ٠

وكانت للنبلاء بعض الامتيازات الطبقية مثل حق حمل السيف ، وحجز مكان فى الكنيسة ، وحق الافلات من الاعدام اذا لم ينفذ حكم الاعدام شنقا ، وحق الاعفاء من بعض الضرائب المفروضة على عامة الناس ، وحق الاعفاء من سخرة الطرق ، وحق ايواء المحاربين ، وحق الصيد ، وحق الدخول على رؤساء الجيش والكنيسة

والادارة والقضاء • ومن كانت لهم اقطاعيات منهم كان لهم حق جباية بعض الضرائب من الفلاحين ومشاركتهم فى محاصيلهم بدعوى ملكيتهم لحق الرقبة أبا عن جد • وكان هناك نبلاء بلا اقطاعيات كما ان بعض العامة كانوا يملكون اقطاعيات بعض النبلاء •

وكانت طبقة النبلاء منقسمة على نفسها منذ المناوشات البرلمانية التى حاول بها النبلاء الحد من سلطات الملك المطلقة أيام لويس الرابع عشر وفشلوا • وكان نبلاء الريف الرجعيون أكثر النبلاء حرصا على أحياء الاستقلال الاقطاعى ومقاومة الحكومة المركزية • وكان بعض نبلاء البلاط مستنيرين ومتفهمين لمصالح الشعب • أما الطبقة الثالثة بجميع شرائحها فكانت متحدة ضد الامتيازات الارستقراطية وضد معاشات النبلاء •

أما رجال الدين فقد كان عددهم ١٢٠ر٠٠٠ وكانوا يلقبون أنفسهم بالطبقة الأولى فى المملكة وكانت لهم امتيازات سياسية وقانونية وضريبية وكانت قوتها الاقتصادية من تحصيل ضريبة العشور dime ، وهى نوع من الزكاة فى الدين المسيحى كانت تدفع عينا أو نقدا أما للكنيسة وأما للنبلاء بحسب الحالة على غلة الأطيان أو ريع العقارات •

وكان رجال الدين (الكنيسة والأديرة والأفراد) يملكون أطيانا وعقارات كثيرة فى الريف والحضر ويحصلون ايجارات تزداد قيمتها مع الزمن • وكانت أملاكهم فى الريف تتجاوز أملاكهم فى المدن • وقد قدر فولتير ريع أملاك رجال الدين بمبلغ ٩٠ مليون جنيه ، أما نيكر ، وهو معاصر للثورة الفرنسية فقال أنه ١٣٠ مليون جنيه • وكانت أكثر هذه الأطيان قطعا صغيرة قليلة المحصول ، وكانت مساحتها الاجمالية تقدر بنحو ١٠٪ من مساحة أرض فرنسا ،

متراوحة بين ٢٠٪ و ٥٪ فى مختلف أقاليم فرنسا · وكانت ضريبة « الديم » أى العشور ، نسبة من المحصول أو من البهائم تبلغ نحو ١٠٪ يدفعها الحائز لصاحب الحق فى العشور · وكانت تختلف من محصول الى محصول بحسب النوع ، وقدر دخلها بمبلغ يتراوح بين ١٠٠ و ١٢٠ مليون جنيه يضاف اليها ريع الأطيان والعقارات ، وهو نفس القدر تقريبا · أما مصاريف الكنيسة فكانت أساسا من رسوم تسجيل المواليد والوفيات والتعميد وشعائر الدفن ومختلف وجوه الحالة المدنية · ومن الاحسان ومن التعليم · وكان عدد الرهبان يتراوح بين ٢٠٫٠٠٠ و ٢٥٫٠٠٠ راهب ، أما عدد الراهبات فكان ٤٠٫٠٠٠ راهبة · أما القساوسة فكان عددهم نحو ٥٠٫٠٠٠ قسيس · وفى ١٧٨٩ كان هناك فى فرنسا ٧٤٠ ديرا للرجال و ٢٥٣ ديرا للنساء ·

وقد بلغ من فساد الكنيسة أنه كانت هناك اديرة مهجورة ينفق عليها بالاسم فقط · وقد ساءت سمعة كثير من رجال الدين بسبب خراب الذمة حتى داخل الكنيسة نفسها · وكان رجال الدين فيهم الفقراء كالقساوسة والوعاظ وفيهم الأغنياء كالأساقفة والكرادلة · ورغم معاناة أكثرهم وظهور تعاطفهم مع الطبقة الثالثة ظل رجال الدين فى مجموعهم منحازين لطبقة النبلاء ·

كانت فرنسا قبيل الثورة الفرنسية لا تزال بلدا زراعيا بصفة أساسية ولذا كانت البورجوازية فيها اقلية واضحة ، أما العمود الفقرى للطبقة الثالثة فكان من الفلاحين واجراء المدينة · وقد قادت البورجوازية الفرنسية هذه الطبقات الشعبية فى الثورة الفرنسية واستفادت منها أكثر مما استفادت الجماهير نفسها ، وهذا معنى قولهم ان الثورة الفرنسية كانت ثورة بورجوازية ، أى ثورة الطبقات المتوسطة ، العليا والوسطى والصغيرة ·

وكانت البرجوازية الفرنسية مكونة من :

١ ـ ذوى الأملاك التى يعيشون على ريعها ، وهذه كانت شريحة سلبية ٠

٢ ـ الاسطوات واصحاب الدكاكين ، وهذه كانت البورجوازية الصغيرة والمتوسطة ، وكانت مرتبطة بالانتاج التقليدى والتوزيع التقليدى ،وهذه كانت تمثل ثلثى حجم البورجوازية٠

٣ ـ رجال الأعمال ، وهم البورجوازية الكبيرة ، وكانت نشيطة تكسب بين ١٠٪ و ٢٠٪ من دخل البورجوازية ، ومعها المقاولون ومديرو المشروعات ٠

٤ ـ اصحاب المهن الحرة ، واكثرهم من رجال القانون ٠

٥ ـ الموظفون ٠

٦ ـ الضباط ٠ (فى جرينوبل مثلا كان هناك من ذوى الأملاك ٩ر٢١٪ ومن رجال القانون ٨ر١٣٪ ومن التجار ٦ر١٧٪ من حجم البورجوازية) ٠

أما البورجوازية الكبيرة فكانت بورجوازية المال والتمويل ، وكان منهم البنكيرات وموردو الجيش وموظفو المالية ومؤسسو الشركات المساهمة ومقرضو الدولة ، وملتزمو « العهدة » Fermiers Generaux الذين كانوا يشترون من الدولة حق تحصيل الضرائب غير المباشرة ٠

هذه الشريحة من البورجوازية كانت تصاهر الارستقراطية وكانت احيانا تحصل على الالقاب بقوة المال ٠ وكان ملتزمو العهدة اول من ذهب الى المقصلة فى ١٧٩٣ بسبب تعاطفهم مع الارستقراطية،

رغم انهم سايروا الثورة فى بداية الأمر، فلما سيطرت عليها الطبقات الشعبية انقضوا عليها ٠

وكانت أقوى شريحة فى البورجوازية التجارية هم تجار الجملة فى الموانى المطلة على المحيط الأطلسى مثل بوردو نانت ولاروشيل ، بسبب تجارتهم مع أمريكا (الانتيل وسان دومنيجو والمارتنيك) وتجار الجملة فى مرسيليا المطلة على البحر المتوسط ، بسبب تجارتهم مع الشرق ، ولا سيما مع الشام ٠ هؤلاء جمعوا المليارات الفاحشة وكانوا يدعمون قادة « الطبقة الثالثة » فى صراعهم مع النبلاء أول الأمر ، فقد كانوا من دعاة الملكية الدستورية ، ثم انحازوا الى الجيروند ، وهم الثوار المعتدلون ، فأصابتهم نكبة الجيروند عام ١٧٩٣٠

هذه الاجنحة البورجوازية المتعددة فى الثورة الفرنسية ، كانت فى بداية الثورة ، أى فى ١٧٨٩ ، متفقة على شىء واحد وهو ضرورة الغاء الامتيازات الطبقية وتقويض النظام القديم ٠ وما ان تم ذلك حتى ظهر التعارض بين مراميها من الثورة ، وانعكس ذلك فى اتجاهات الثورة المتصارعة كما بين البير سوبول ، وفى غزارة ما أريق من دماء ٠

٦ ـ ثـورة الفلاحين

فلنتحدث الآن عن فقراء المدينـة وفقراء الريـف ابان الثورة الفرنسية ٠

فى ١٧٨٩ كان العامل الفنى يكسب ٢٠ سو Sou يوميـا (فى الفرنك مائة سو) ، وقد يرتفع أجره اليومى الى ٣٠ سو و ٤٠ سو ٠ وكان رغيف العيش زنة رطل واحد يساوى ٢ سو ٠ وذلك يعنى أن اجر اليوم كان يساوى عشرة أرطـال من الخبز ، أى نحو ٤ر٥ كيلو جرام ، فى عام الثورة الفرنسية ٠

وفى عام ١٧٨٨ عرفت فرنسا أسوأ محصول من القمح مما رفع أسعار القمـح حتى فى الريف ٠ وعـرف الشعب الفرنسى الجـوع والبطالة فى المدينة والريف على السواء ، بينما كانت هناك طبقات انتفعت من ارتفاع سعر القمح كملاك الأطيان الذين كانوا يأخذون

● نشـرت بجـريدة الأهـرام بتاريخ ١٩/٨/١٩٨٩ ٠

نصيبهم عينـا من المحصول وكجبـاة العشور والسادة الاقطاعيـين والتجار وكان هؤلاء ينتمون الى الارستقراطية أو البورجوازية أو رجال الدين ٠

وفى ٢٧ ابريل ١٧٨٩ قامت المظاهرات العنيفة فى ضاحيـة سانت انطوان المجاورة لسجن الباستيل احتجاجا على خطب انتخابية القاها رجل يدعى ريفيون Revellon صاحب مصنع ورق ملون وآخر اسمه هنريو Henriot صاحب مصنع بطاس ، ندداً فيها بارتفاع اجور العمال وزعما ان العامل يستطيع ان يعيش مرتاحا على ١٥ سو يوميـا ٠ وفى ٢٨ ابريل ازداد الشغب واحرق المتظاهرون بيت كل منهما ٠واسفرت المصادمات مع البوليس عن سقوط عدد من القتـلى وكان هذا أول يوم من أيـام الثورة سبـق الهجـوم على الباستيل ، وكانت أسباب الهياج المباشرة اقتصادية لا سياسية ٠

وكان فقراء المدينـة مثل فقراء الريف يرون ان وقف الغـلاء لا يكون الا بتحديد الأسعار جبريا ، بينما كان التجار يرفضون مبدأ التسعيرة الجبرية من أساسه ٠

وفى عام ١٧٨٩ كان سكان فرنسا نحو ٢٧ مليون نسمة منهم نحو ٥ ملايين يعيشون فى المدن ونحو ٢٢ مليونا يعيشون فى الريف ولم تكن ثورتهم مجرد ثورة اقتصاديـة وانما كانت أساسا لالغـاء الامتيازات الاقطاعية التى كان يتمتع بها النبلاء ورجال الدين ٠ وقد نجحت ثورتهم عندما قررت الجمعيـة الوطنيـة الغـاء الامتيـازات الاقطاعية فى جلسة ٤ أغسطس ١٧٨٩ ٠

وبوجه عام لم يكن الفلاحون الفرنسيون أسوأ حالا من نظرائهم فى البلاد الأخرى مثل بولندا وروسيا ووسط أوروبا ٠ كان الفلاحون الفرنسيون يملكون نحو ٣٥٪ فى المتوسط من مجموع أراضى فرنسا (ما بين ٢٢٪ فى بعض المناطق و ٧٠٪ فى مناطق أخرى) ٠

فقد كانوا يكافحون عبر الأجيال ليشتروا حريتهم وحقوقهم بالمال من النبلاء • ولكن أغلب أراضي الفلاحين كانت لا تدر كثيرا لأنها كانت تقع في الغابات وفي الجبال وفي المراعي ولضآلة مساحاتها المفتتة •

ومع وجود هذا الفلاح الحر المالك كان هناك مليون من رقيق الأرض ، وكان أولادهم لا يرثون متاع الأب الا اذا دفعوا لمالكهم النبيل فرضة • وفي ١٧٨٩ اتهم الارستقراط بالتآمر لتخزين القمح والغلال لسحق العامة •

وفي أول يوليو كتب مارا Jean-Paul Marat منشورا بعنوان « بيان للشعب أو كشف القناع عن الوزراء » يقول فيه : « أي اخوتي المواطنين ! لاحظوا دائما سلوك الوزراء لتحددوا سلوككم • ان هدفهم هو حل جمعيتنا الوطنية ، وسبيلهم الأوحد هو الحرب الأهلية • ان الوزراء ينفخون في نار الفتنة ! •• انهم يحيطونكم بجهازهم الضخم من الجند والحرب ! » ••

وعلى غرار ثورة باريس التي انتهت بسقوط الباستيل انتشرت الفتن في مدن الاقاليم طوال شهر يوليو في روان Rouen وفي أوك وفي بورج Bourge وفي ديجون Dijon وفي مونتوبان Montauban ثار الناس في كل بلد وطردوا أعضاء المجلس البلدي كما حدث في استراسبورج Strasbourg أو قيدو حركتهم بلجنة موسعة كما حدث في ديجون وغيرها •

استولت اللجان الثورية على البلديات في بوردو Bordeaux ومتز Metz ونانسي Nancy وانجيه Anger ورين Rennes وفي متز ونانسي وجدت اللجان الثورية مقاومة اجتماعية ، وفي مونتوبان ونيم Nimes حد من سيطرة اللجان الثورية العراك بين البروتستانت والكاثوليك • وفي ليموج Limoges كانت المقاومة

شخصية ، وفى ليون Lyon وتروا Troyes جاءت المقاومة من الثورة المضادة • وفى بعض البلاد لم تحدث ثورة على المجالس البلدية لثقة الأهالى فى أعضائها كما حدث فى تولوز Toulouse ، أو لأن الجيش والمحاكم ساندت الثوار كما حدث فى اكس Aix

وتشبهـا بما حدث فى بلديـة باريس تكونت فى كل مكان ميليشيات بورجوازية من الحرس الوطنى لتخدم اللجـان البلديـة الثورية • وفى تولوز تكون حرس وطنى دون ان تكون هناك ثورة بلديات ، وفى البى Albi اصبحت الميليشيات القديمة هى نفسها الحرس الوطنى •

وايا كان شكل ثورة البلديات ، فالنتيجة كانت واحدة فى كل مكان ، وهى انتهاء سلطة الملكية والحكومة المركزيـة ، وتسلم البلديات كل السلطات بعـد ان كان الحكم المطلق قد قضى عليها • وتوقفت جباية الضرائب • وفى شهادة احد المعاصرين : « لم يعـد هناك ملك ولا برلمان ولا جيش ولا بوليس » •

وكان مجدد الاضطرابات فى كل مكان هو قلة القمح وغلاء ثمنه • فبدأت البلديات بفرض التسعيرة الجبرية ، وبجمع التموين ولو بالمصادرة ، ونهب الأهالى تجار الغلال وانتشرت الاشاعات عن غزو أجنبى : قيل ان الانجليز نزلوا فى ميناء برست Brest على المحيط الأطلسى من جهـة بحر المـانش ، وان مملـكة بيدمونت Piedmant فى شمال غرب ايطاليا تتحرك لغزو فرنسا من جهة جرينوبل Grenoble وتحدث الناس عن مؤامرة ارستقراطية لقمع حركة التحرير الشعبى ، فانتشر الرعب الأعظـم فى نهايـة يوليو ١٧٨٩ وراقب الأهالى الطرقات ، وكان الحرس الوطنى يحفظ النظام •

ومنذ اعلان الغاء « مجلس الطبقات » وانشاء «الجمعية الوطنية» فى ١٧ يونيو وقسم ملعب التنس فى ٢٠ يونيو وسقوط الباستيل

فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ ، سقطت السلطة تماما فى يد الطبقات المتوسطة التى كانت تتألف منها الطبقة الثالثة ، وسواء فى باريس أو فى الأقاليم سيطرت البورجوازية وحرسها الوطنى على البلديات ومن خلالها على مقدرات فرنسا .

فماذا اصاب الفلاحون من كل ذلك ؟ لاشىء . فقد بقيت الامتيازات والحقوق والقوانين والاعراف الاقطاعية على حالها ، فلم يلغ شىء منها .

ولم يكن الريف أقل بؤسا من المدينة فازداد فيه الشحاذون والجياع وانتشرت البطالة وعم الغلاء . وكثر اللصوص وقطاع الطرق ، وغدت الطرق غير آمنة . وحتى منذ الربيع بدأ تململ الفلاحين من نير النبلاء يأخذ شكلا ملموسا . فأخذ الفلاحون فرادى وجماعات يقتلون حمام النبلاء ويهدمون ابراجه لأن الحمام كان يلتهم محصولهم من القمح والغلال . كذلك أخذوا يقتلون أرانب النبلاء التى كانت تخرب محاصيلهم ، وأخذوا يصطادون فى غاباتهم وكانت هذه من الجرائم الكبرى .

وكانت مطالب الفلاحين مركزة على الغاء الامتيازات الاقطاعية . وحين ادركوا ان ثورة باريس والمدن الفرنسية لم تعد عليهم بشىء تصاعد عصيانهم الى تحد سافر للنبلاء . وسرت بينهم اشاعة تقول أن هناك مؤامرة ارستقراطية لتجويع الشعب بتنظيم عصابات من المجرمين لحرق أجران الفلاحين وتدمير محاصيلهم وزراعاتهم . فساد الرعب الأعظم فى الريف الفرنسى ، وسلح الفلاحون أنفسهم بأدوات الزراعة وهاجموا قصور النبلاء وطالبوا النبلاء بتسليمهم الوثائق المزعومة لامتيازاتهم الاقطاعية لكى يحرقوها فى ميدان القرية ، فمن رفض منهم تسليم هذه المستندات أحرقوا قصره وشنقوه . وتكونت فى ريف فرنسا لجان وميليشيات من الفلاحين . ورغم تحذيرات

ميرابو للفلاحين من تصديق الاشاعات عمت الثورة كل ريف فرنسا باستثناء مقاطعات بريتاني والالزاس واللورين · وعرفت ثورة الفلاحين ومهاجمة قصور النبلاء باسم « جاكيرى » Jacquerie

كل هذا فى أواخر يوليو ١٧٨٩ · فلا غرابة اذن ان اصيبت طائفة من النبلاء بالرعب وعمدت طائفة أخرى الى مكر الثعالب لتفريغ غضب الفلاحين · وكانت ليلة ٤ أغسطس ١٧٨٩ ليلاء انتهت فيها جلسة الجمعية الوطنية فى الساعة الثانية صباحا بقرار شامل بالغاء الامتيازات الاقطاعية وباعلان حقوق الانسان والمواطن » الذى جعلته الجمعية التأسيسية بمثابة ديباجة للدستور الذى كانت تضعه ·

وقد ظهر أول تعارض فى المصالح بين الفلاحين من جهة وبين البورجوازية المدنية والريفية من جهة أخرى فى موقف الجمعية الوطنية والمجالس البلدية والحرس الوطنى من ثورة الفلاحين وحركة « الجاكرى » لأن البورجوازية كانت تملك الأراضى مثل النبلاء ، ولذا تكفل الحرس الوطنى بقمع حركات الفلاحين بالسلاح ·

أما الجمعية الوطنية فقد كانت ترغب فى قمع حركة الفلاحين ومنع استيلائهم على اطيان النبلاء ، لأن اعضاءها كانوا أيضا من ملاك الأراضى · ولكنها خشيت من استعمال العنف وخشيت من تكليف الملكيين والجيش الملكى بقمع ثورة الفلاحين تحسبا من عودة السلطة القديمة الى الحكم فقررت فى جلسة ٤ أغسطس ١٧٨٩ الغاء الامتيازات الاقطاعية رسميا بوصفها امتيازات مغتصبة « ان الجمعية الوطنية تلغى النظام الاقطاعى الغاء كليا » ولكنها عندما ناقشت « حقوق » النبلاء فى جباية نصيبهم من ربح الأطيان بحجة ملكيتهم لحق الرقبة ، اسندت عملية التحقق من هذه الحقوق الى الدوق ايجويون d'aiguillon اكبر ملاك المملكة وكان معروفا بميوله الليبرالية ، وبهذا تفرقت

صفوف النبلاء واخذوا يتبارون فى التنازل عن امتيازاتهم فى جلسة ٤ أغسطس .

قدم الدوق ايجويون اقتراحا ندد فيه بالاقطاع وبكى فيه على الفلاح وأشار بأن الحل هو ان يتنازل النبلاء عن حقوقهم فى ملكية أراضى فرنسا وجباية نصيبهم من ريعها على أن « يشترى » الفلاحون هذه الحقوق وما يترتب عليها بشروط ميسرة أو « متهاودة » .

بدأت جلست ٤ أغسطس ١٧٨٩ بجملة اقتراحاته قدمها الفيكونت ذى نواى Vicomte de Noailles هى :

١ ـ الغاء كافة الامتيازات الضريبية ٢ ـ الغاء السخرة وكافة خدمات العبودية الشخصية « دون شراء أى دون دفع مقابل » . ٣ ـ شراء الحقوق الفعليـــة على الأرض وليس الحقوق الوهميـــة أو الصورية . وأيده فى ذلك الدوق ايجويون بحـــرارة شديدة ، ووافقت على ذلك الجمعية الوطنية . كذلك الغى حق النبلاء فى احتكار حق الصيد فى الغابات وفى الأنهـــار كما تقررت ازالة أبراج حمام النبلاء التى كانت تلتهم غلال الفلاحين ، والغيت حقوق النبـــلاء فى اقامة العدالة فى مناطقهم . واقترح أحد النبلاء ان تتنازل الكنيسة عن العشور التى كانت تجبيها من الفلاحين فاحرج بذلك رجال الدين الذين ظهروا فى مظهر المتقاعس عن نجدة الشعب الجائع ، فأعلن أسقف نانسى ان الكنيسة تتنازل عن العشور .

ووصل مائتان من النواب ليطالبوا الجمعية الوطنية بالموافقة على مشروع قانون بالنص على ضرورة احترام الملكية « بتسكين اللام » والوفاء بالالتزامات . وكان هذا بمثابة تهديد غير مباشر لحركة احراق قصور النبلاء « الجاكيرى » ولكن الدوق ايجويون خطب فى حرارة منددا بظلم الاقطاع ، بل وتساءل ان كان الفلاحون محرقو القصور

حقا مذنبين · لقد كان الدوق ايجبيون كالمليونير الذكى الذى يضحى بنصف ثروته لينقذ النصف الثانى ·

وفى الساعة الثامنة مساء وافقت الجمعية الوطنية على الغاء الاقطاع بعد ألف سنة من استقراره فى فرنسا ·

وبعد ان انتهت كلمات النبلاء اخذ نواب الشعب الكلمة · ووقف نائب من بريتانى اسمه كيرنجال Kerengal لم يسبق له ان اعتلى المنصة قبل ذلك ولم يحدث له ان اعتلاها بعد ذلك ، وقرأ نحو عشرين سطرا اتهم فيها الجمعية الوطنية بالتقصير لأنها لم تنتبه مسبقا لاحراق القصور ولم تحطم ما فيها من أسلحة مدمرة هى تلك الوثائق والعقود الفظيعة التى تسوى البشر بالبهائم وتربط الانسان والحيوان معا فى المحراث قال :

فلنكن عادلين : اتونا بهذه الصكوك هذه الشواهد على همجية ابائنا ·

« من منا لايضرم النار فى هذه الوثائق الدنيئة من باب التكفير ؟ · · لاتضيعوا لحظة واحدة فكل يوم من التأخير سوف يسبب حرائق جديدة ان سقوط الامبراطوريات لا يحتاج لكل هذه الضجة للاعلان عنه · الا تريدون أن تشرعوا القوانين لفرنسا المخربة ؟ ·

واستقر النذير فى وجدان السامعين ·

وقال نائب أخر من بريتانى أن هناك حقوقا اقطاعية عجيبة وبربرية كحق النبيل فى أن يبقر بطن اثنين من رقيقه كلما عاد من الصيد وأن يغوص بقدمه فى جسدهما الدامى ! ·

ووقف نائب من الأرياف اسمه دى فوكو De Foucauilt ليهاجم النبلاء وطالبهم قبل الكلام فى التنازل عن امتيازاتهم الاقطاعية ان يضحوا بمعاشاتهم ومرتباتهم التى يتقاضونها من الملك وهى من دم الشعب ، وبدلا من ان يرعوا ضياعهم يتركونها للخراب حتى يقيموا فى بلاط الملك فى فرنسا وبالفعل استجاب أثنان من النبلاء لدعوته واعلنا انهما على استعداد للتضحية بكل شىء ؟ .

وتحمس دى بوهارنيه De Beauharnais واقترح أن يسوى النبلاء وعامة الشعب فى العقوبة وأن تكون الوظائف مفتوحة للجميع وطالب نائب بأن تكون العدالة بالمجان ، وطالب دى روشفوكو De Rochefouauld بمعاملة أكثر انسانية للعبيد من الزنوج . وهكذا .. وهكذا ..

وهنا لاحظ رئيس الجمعية الوطنية ان كل الطبقات تكلمت معلنة عن تنازلاتها الا رجال الدين . فتكلم اسقف نانسى باسم اساقفة فرنسا مطالبا الا تئول أموال شراء حقوق النبلاء الى النبلاء أنفسهم بل ان تستثمر فى مشروعات ذات جدوى . وطالب اسقف شارتر Chartres بالغاء « حق الصيد » كانت تنازلات الكنيسة كلها على حساب النبلاء . فقال دوق شاتليه لمن حوله مبتسما : « ان الاسقف يحرمنا من حق الصيد وأنا سأحرمه من حقه فى العشور وقد كان .

وحين رفعت هذه الجلسة التاريخية فى الثانية صباحا اعلنت الجمعية الوطنية أن لويس السادس عشر هو معيد الحرية الى فرنسا كل هذا حدث فى غمرة الحماس الذى يدعى بسخاء القلب وحب الحرية والمساواة والاخاء ولكنه فى واقع الأمر حدث تحت ضغط ثورة الفلاحين حتى يعود النظام الى الريف . ولم يكن خاليا من مكر الثعالب والمناورة لالتقاط الانفاس .

كل هذا حدث شفويا ليلة ٤ أغسطس ولم تتم صياغة القوانين الا بين ٥ و ١١ أغسطس وعند الصياغة حدثت بعض التراجعات فناورت الكنيسة لتسحب تنازلها عن العشور • ورغم اتخاذ القرار : ان الجمعية الوطنية تلغى كلية النظام الاقطاعى الا ان الجمعية الوطنية لم تلزم النبلاء باثبات حقوقهم القانونيـة على الأرض التى يأخـذون بموجبها الفرصة من الفلاحين • بعبارة أخرى تحرر الفرنسى فى ٤ أغسطس من التزاماته الشخصية ولكن أرضه لم تحرر •

وعندما ادرك الفلاحون ان الاقطاع الغى بالاسم فقط هاجت الخواطر ونظم الفلاحون المقاومة ورفضوا دفع حقوق الانتفاع الوهمية وكان على الفلاحين انتظار الجمعية التشريعية والمؤتمر الوطنى ليجنوا ثمار ٤ أغسطس •

وفى جلسة ٤ أغسطس صباحا كانت الجمعية الوطنية قـد قـررت ان تسبـق الدستور ديباجـة هى اعـلان حقـوق الانسان والمـواطن » ، وذلك رغـم اعتراضات المعتدلين • فالأب جريجوار l'abbé Grégoire مثلا طالب بانتهاء الدستور بوثيقة مماثلـة هى اعلان واجبات الانسان وكانت مناقشة المبادىء بطيئة وعسيرة مثال ذلك مناقشة حرية الرأى والعقيدة ففى موضوع حرية العقيدة طالبت الكنيسـة بان ينص على أن يكون للدولة دين رسمى هو المسيحية الكاثوليكية ، ولكن مـيرابو عـارض هذا بشدة على أساس أن هذا يتعارض مع حرية العقيـدة • وكانت مناقشات « حقوق الانسان » متأثرة الى حد كبير بافكار فلاسفة التنوير ، فولتير Voltaire ديدور Diderot ومونتسكيو Montesquieu ودالمبير D'alembert الخ ويفلسفة روسو Rousseau ولذا جاءت مبادىء هذا الاعـلان لتخاطب الانسانية جمعاء وليس مجرد المواطنين الفرنسيين • •

وفى ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ وافقت الجمعية الوطنية على اعلان حقوق الانسان والمواطن « الذى كان « شهادة » وفاة النظام القديم »٠

فهل انتهى كل شيء ؟ كلا لم ينته كل شيء على خير لأن الملك رفض التصديق على مشروعات قوانين ٥ ـ ١١ أغسطس ١٧٨٩ وعلى اعلان حقوق الانسان قائلا: أنا لن أوافق على تجريد كهنتى ونبلائى من ثروتهم ٠ ولم يكن هنـاك ما يرغمـه على التصديق الا اشتعال الفتن من جديد ٠

واعاد لويس السادس عشر نكر وزيرا للمالية ولكن نكر فشل فى اصلاح مالية البلاد لتوقف الناس عن دفع الضرائب وطرح نكر قرضا بمبلغ ٣٠ مليون جنيه ولكن الاكتتاب لم يجمع بعد عشرين يوما الا ٢٫٥ مليون جنيه ٠

بدأت مناقشات الدستور بعد اعلان حقوق الانسان واقترح البعض انشاء مجلس نبلاء على غرار مجلس اللوردات الانجليزى وان يكون للملك حق الفيتو على مشروعات القوانين ٠ ولكن سييز Sieyes اعترض على أى نوع من أنواع الفيتو حق الاعتراض قائـلا لايمـكن لارادة فرد أن تتغلب على الارادة العامة ٠ واذا امكن للملك ان يمنع اصدار القانون فان ارادته الخاصة تجعله ينتصر على الارادة العامة٠ ان اغلبية السلطة التشريعية يجب ان تعمل فى استقلال عن السلطة التنفيذية ٠ والفيتو المطلـق أو المعطـل للقوانـين ليس الا خطـاب كاشيه ، أى أمر اعتقال موجه ضد الارادة العامة ٠

٧ ـ زواج فيجارو أو حق الليلة الأولى

كان بين الامتيازات الطبقية التى يتمتـع بها نبـلاء فرنسا أو بعضهم قبل الثورة الفرنسية امتياز غريب اسمه « حق الليلة الأولى » Jus Prima Noctis ، وهو حق النبيل فى ان يفض بكارة اية عروس من رقيق أرضه ليلة زفافها ٠ وقد كان من واجبات كل نبيل ـ الى جانب حماية ارقائه وكسوتهم فى أيام الأعياد ـ ان يدفع « الدوطة » (المهر) لكل من يتزوجون من ارقائه ٠ وبالطبع كان كل زواج لايتم الا بموافقة النبيل ٠

وقبيل الثورة الفرنسية عرضت في باريس كوميديا اسمها « اليوم المجنون أو زواج فيجارو Le Mariage de Figaro بقلم بومارشيه Beaumarchais صاحب المسرحية الشهيرة « حلاق اشبيلية » Le Barbier de Seville وقد بلغ من شعبية « زواج فيجارو » ان

● نشـــرت بجـــــريدة الأهــــرام بتاريخ ١٩٨٩/٨/٢٦ ٠

الموســيقار العظيم موتســارت ألف أو ــ على الأصــح ــ لحن اوبرا فى موضوعها باسم « زواج فيجارو » عام ١٧٨٦ ، كما ان شهرة « حلاق اشبيلية » جعلت الموسيقار الايطالى العظيم روسينى يضع اوبرا « حلاق اشبيلية » عام ١٨١٦ · وفى الاحتفـال بمرور مائتى عام على الثورة الفرنسية فى ١٤ يوليو ١٩٨٩ كانت فرقة الكوميدى فرانسيز تعرض « زواج فيجـارو » فى باريس وفى فرساى معهـا بالتبادل ·

وحين عرضت « زواج فيجــارو » فى باريس قبيــل الثورة الفرنسية واثناءها ، كانت بمنزلة فضيحة كبرى للنظام الاقطاعى وهيجت الخواطر على طبقة النبلاء ، واعتبرت اداة خطيرة لاثارة مشاعر الناس على الارستقراطية المنحلة ، تماما كما كانت تفعله فى بلادنا الأفلام والروايات التى كانت تصور استغـلال بعض الباشوات فى عهد الملكية لمالهم وسطوتهم فى افتراس اعراض الفلاحات الفقيرات فى عزبهم وضياعهم · ولذا فقد لاقت « زواج فيجارو » منذ تاليفها صعوبات كثيرة من السلطة حالت دون عرضها مرارا بل واستدعت اجراء تعديلات فيها حتى بأذن الرقيب بتمثيلها ·

اما مؤلفها ــ وهو بومارشيه فقد ولد ــ فى باريس عام ١٧٣٢ وتوفى عام ١٧٩٩ عن سبعة وسبعين عاما · وكان اسمه الأصلى بيير أو اغسطين كارون · Pierre-Augustin Caron وكان الأب يعمل ساعاتيا من طبقة الاسطوات ، وبعد ان تعلم ولده تعليما عامــا بدأ يعمل فى دكان ابيه فى ١٧٤٥ · وفى ١٧٥٣ اخترع بيير أو غسطين جهازا لضبـط الساعات عرضه على لابوت Lepaute ساعاتى الملك لويس الخامس عشر فتقدم هذا به لاكاديمية العلوم على انه اختراع من صنعه ، ولكن الأكاديمية اعترفت فى العام التالى (١٧٥٤) ان

الاختراع كان من عمل بيير أو غسطين كارون • وهكذا اشتهر اسمه فتلقى طلبات عديدة من البلاط الملكى ، وقدموه الى ملكة فرنسا •

وفى ١٧٥٥ تعرف بومارشـيه الى أسرة فرانكيه Franpuet وكان فرانكيه هذا يعمل مراقبا فى مكتب الخاصة الملكية فباع لكارون وظيفته لاشتداد وطأة المرض عليه • فلما مات فرانكيه فى العام التالى (١٧٥٦) تزوج كارون من ارملته ، وغير اسمه فسمى نفسه كارون دى بومارشيه Caron de Beaumarchais على اسم ضيعة بومارشيه التى كانت تملكها زوجته ، وليندس فى مجتمع الارستقراط الذين كانوا غالبا ما يحملون لقب اقليمهم أو مكان ضياعهم وفى ١٧٥٧ ماتت زوجته •

وفى ١٧٥٩ دعى بومارشية لتعليم الموسيقى لبنات الملك لويس الخامس عشر ، وعلمهن العزف على آلة الهارب التى كان يتقنهـا • وفى نفس العام تعرف الى البنكير بارى ديفرنى فاتخذه شريكا له وفتح له هذا باب الثراء • وفى ١٧٦١ اشترى وظيفة سكرتير ومستشار للملك ، وبذلك دخل رسميا فى طبقة النبلاء وسمح له رسميا بان يحمل لقب دى بومارشيه • ثم اشترى وظيفة «مدير الصيد» وكانوا فى تلك الأيام يشترون الوظائف العامة • وفى أواخر عهد لويس الخامس عشر سجن فترة وجيزة هو والدوق دى شون لشجارهما على صـداقة احدى الممثلات • وكذلك جرد فترة وجيزة من حقوقه المدنية لمحاولته رشـوة قاض كان ينظر فى نزاع مدنى بينـه وبين أحد شركائه حول استغلال احدى الغابات • وفى أوائل عهد لويس السادس عشر عرضت له الكوميدى فرانسيز « حـلاق اشبيلية » فى ١٧٧٥ •

وفى الفترة من ١٧٧٦ حتى ١٧٨٠ قام بومارشيه بنشاط تجارى مكثف مع أمريكا كان محوره توريد السلاح للثوار الأمريكيين فى

وحقق العرض الأول أكبر ايراد فى تاريخ المسرح الفرنسى وهو ٦٥١١ جنيها ٠

وهنا بدأ فصل جديد فى هذه السيرة العاصفة لكوميديا « زواج فيجارو » ٠ فثارت المناقشات الحامية فى الصحف وحرم كبير اساقفة باريس مشاهدتهـا أو قراءتهـا على المؤمنين كما حرم عليهم قراءة فولتير ٠

وفى ٦ مارس ١٧٨٥ نشر بومارشـيه خطابا مفتوحـا فى « الجورنال دى بارى » Journal de Paris يرد فيه على احد نقاده واسمـه سيوار Suard وهو عضـو فى الاكاديمى فرانسيز ، قائلا : انه لن يرد على الحشرات بعد أن استطاع قهر السباع والنمور٠ ونجح سيوار فى اقنـاع السلطات بأن السباع والنمور التى يقول بومارشيه انه قهرها هم أكبر رءوس فى البلاد ولاسيما الكونت دى بروفانس حفيد لويس الخامس عشر الذى أصبح لويس الثامن عشر بعد سقوط نابوليون فى ١٨١٤ ٠ فسجن بومارشيه فى سان لازار لمدة خمسة أيام فقط عومل فيها معاملة المجانين أو الشباب الفاسد لتأديبه وقام خادم بضربه على عجزه حسب التقاليد ٠

وهنا كتبت الصحافة عن طغيان السلطـة وطالب بومارشيه بمحاكمته فتراجع الملك ليعتذر دون ضياع لهيبته فمنح بومارشيه ٨٠٠ر٠٠٠ جنيـه تعويضـا له عن خسارتـه فى تجارتـه مع ثوار أمريكا ٠ كذلك قدمت له قصر التريانون مسرحية « حلاق اشبيلية »، ومثلت فيها الملكة مارى انطوانيت دور روزين ومثل فيهـا الكونت دارتوا شقيق الملك الأصغر دور فيجارو ٠ وفى ١٨ أغسطس ١٧٨٥ قدمت الكوميدى فرانسيز « زواج فيجارو » بعد ان توقف عرضهـا

منذ ٧ مارس وفى ١٧٨٧ قدم العرض المائة لها ، كما عرضت «زواج فيجارو » فى عدد من مدن فرنسا الكبرى ٠

وهذا لم يمنع أن برلمان بوردو قرر فى ٩ مارس ١٧٨٥ منع عرض « زواج فيجارو » وان هذا المنع استمر اربع سنوات أى حتى قيام الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩ ٠ وكانت « زواج فيجارو » تعرض فى لاهاى ولندن ووارسو كما انها ترجمت الى الهولندية والانجليزية والبولندية والروسية ٠ وفى ١٧٨٦ قدمت أوبرا موزارت الشهيرة « زواج فيجارو » Les Noces de Figaro فى فيينا ٠

فلما سقط الباستيل فى أيدى الثوار فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ خرج بومارشيه فى خمسة وعشرين رجلا مسلحا فى اليوم التالى واقتحم الباستيل ثم تم تكليفه فى الشـــهر التالى (اغسطس) بالاشراف على هدمه ٠ ولكنه فى نفس الشهر استبعد من الجمعية الوطنية من ممثلى كميونة باريس بسبب بعض الاتهامات ، غير أنه لم يلبث أن استرد عضويته فى الجمعية الوطنية فى سبتمبر بعد أن فند هذه الاتهامات ٠ وفى ١٧٩١ قبلت الكوميدى فرانسيز مسرحية بومارشيه « الأم المذنبة » ولكنها لم تعرض الا فى ١٧٩٢ ٠

وفى ١٧٩٢ توسط بومارشيه فى توريد صفقة سلاح لحكومة الثورة من الخارج مكونة من ٦٠٠٠٠ر٦٠ بندقية ولكنه لم ينجح فى اتمام الصفقة واتهم بومارشيه فى الجمعية الوطنية باحتكار صفقة السلاح بناء على اتهام وجهه اليه شـــابو Chabot وقبض على بومارشيه عدة أيام فى أغسطس ١٧٩٢ ، ثم أفرج عنه وبذلك نجا من مذابح سبتمبر ١٧٩٢ وغادر فرنسا فى نهاية سبتمبر مع تكليف بان يشحن من هولندا الى فرنسا صفقة السلاح وتردد بومارشيه بين هولندا وانجلترا وفى نوفمبر ١٧٩٢ وجه اليه المؤتمر الوطنى

شبقه • ولأنها تعلم أن فيجارو لن يستطيع الزواج من سوزان الا اذا وافق الكونت على هذا الزواج فهى لا تعمد الى التحدى الذى يمكن أن يغضب الكونت وانما تلجأ الى الحيلة •

وترتب الكونتيسة مع سوزان وفيجارو مكيدة صغيرة توقع الكونت فى شر أعماله وتكون أقرب الى الملهاة منها الى المأساة : يرتب فيجارو عن طريق خطاب مدسوس على الكونت تحديد موعد لقاء غرامى مع سوزان عند المساء قبل أن تبدأ أفراح العرس فى حضور الفلاحين والفلاحات •

ويحدد الكونت مبتهجا ومشـــوقا موعدا فى مكان قصى من القصر تحيط به غابة من أشجار أبو فروة • وتلبس الكونتيسة ثياب سوزان وتصفف شعرها على طريقة الخدم ، وتلبس سوزان ثياب الكونتيسة وتصفف شعرهـا على طريقة النبيلات • وعندما يأتى المساء تلتقى الكونتيسة بزوجها فى الظلام وهى تصطنع صوت سوزان ولهجتها فى الحديث بينما يختبىء الباقون وراء الأشجار وبعد مطارحات الغرام يدخل الكونت بزوجته فى ذلك الجناح البعيد من القصر متوهما طول الوقت انه مع سوزان ولا يكتشف حقيقة الأمر الا بعد أن ينتهى كل شىء • وهنا تعنفه الكونتيسة على حنثه بقسمه القديم أيام غرام شبابهما انه قد تنازل نهائيا عن حق الليلة الأولى مع عرائس فلاحيه ، فيذوب خجلا ، ويبارك زواج فيجارو من سوزان ويعيش الكل فى « تبات ونبات » •

هذا تلخيص مخل لكوميديا « زواج فيجارو » وهو مخل لأن الكوميديا تقول أكثر من هذا فى الأحداث والأقوال • انظر مثلا الى مونولـوج فيجارو فى الفصـــل الخامس (المشهد الثالث) ذلك المونولوج الذى أغضب لويس السادس عشر كثيرا • يقول فيجارو وهو يجول فى الظلام انتظارا لموعد الكونت مع سوزان •

« كلا يا سيدى الكونت . انك لن تظفر بها ... لن تظفر بها أنت تظن انك عبقرى كبير لأنك سيد كبير ! ... شرف المحتد والثروة وعلو المقام ، كل هذا مدعاة للفخار فماذا فعلت حتى تستحق كل هذه النعم ؟ كل مجهودك انك ولدت ، لا أكثر من ذلك . وفى كل ماعدا ذلك أنت رجل عادى . أما أنا ، أنا الضائع فى الجماهير المغمورة ، فبحق السماء أنا بذلت من المعرفة والحساب لمجرد البقاء على قيد الحياة أكثر مما بذل طوال مائة عام لحكم أسبانيا أو غيرها من الممالك ... » الخ .

هذه التساؤلات الخطيرة حول شرعية الامتياز الطبقى الموروث كانت الألغام التى بثتها البورجوازية أو الطبقات المتوسطة فى طريق الارستقراطية وفى طريق العاطلين بالوراثة . نجدها فى بومارشيه الضاحك الباكى ونجدها فى كل كتابات الثوار الذين مهدوا للثورة الفرنسية .

وقد تابع العالم بكثير من التفكه تلك المبالغات الساذجة التى قامت بها السيدة مارجريت ثاتشر رئيسة وزراء انجلترا لتفسد أفراح الفرنسيين فى احتفالاتهم بمرور مائتى عام على الثورة الفرنسية ، وخلاصتها ان الثورة الفرنسية لم تأت بجديد بعد الماجنا كارتا Magna Carta « ١٢١٥ » و « قانون الحقوق » Bill of Rights « ١٦٨٨ » ، وهى مبالغات أوحت بها العنجهية الأنجلو سكسونية ٠

نص الاعلان

ان ممثلى شعب فرنسا ـ مشكلين فى هيئة جمعية وطنية ، وقد رأوا أن الجهل والاهمال واحتقار حقوق الانسان هى الأسباب الوحيدة للمصائب العامة ولفساد الحكومات ـ قد قرروا أن يطرحوا فى اعلان مهيب هذه الحقوق الطبيعية الثابتة التى لا يجوز الانتقاص منها : ان هذا الاعلان ، وهو ماثل على الدوام فى أذهان أعضاء الهيئة الاجتماعية ، يجعلهم دائما يقظين الى حقوقهم وواجباتهم وان قرارات وتصرفات السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية فى الحكومة وهى خليقة بأن تعد فى كل لحظة مساوية للغاية من المؤسسات السياسية ، مما يوجب المزيد من الاحترام لها ، وكذلك لأن مطالب المواطنين فى المستقبل التى تمليها مبادىء بسيطة لا تقبل الاعتراض عليها لكى تنحو دائما نحو الحفاظ على الدستور وعلى سعادة الجميع ٠

لذلك كله فان الجمعية الوطنية تعترف وتعلن أمام الكائن الاسمى ، راجية بركته وتأييده ، الحقوق المقدسة التالية للانسانية وللمواطنين :

١ ـ يولد الناس ويظلون دائما أحرارا ومتساوين فى الحقوق ٠ وبناء عليه فالامتيازات المدنية لا يمكن أن تبنى الا على المنفعة العامة ٠

٢ ـ ان غاية كل التنظيمات السياسية هى الحفاظ على حقوق الانسان الطبيعية التى لا يجوز المساس بها ، وهذه الحقوق هى الحرية ، والملكية « بكسر الميم » ، والأمن ومقاومة الطغيان ٠

٣ ـ الامة فى جوهرها هى مصدر كل سيادة ، ولا يجوز لأى فرد أو مجموعة من الأفراد أن تزاول أية سلطة ما لم تكن نابعة من الأمة صراحة ٠

٤ ـ تقوم الحرية السياسية على القدرة على عمل أى شيء لايضر بالآخـرين ٠ ومباشرة أى انسان لحقوقه الطبيعية لا حدود لها الا الحدود اللازمة لضمان مباشرة أى انسان آخر لنفس الحقوق مباشرة حرة ٠ وهذه الحدود لا يقررها الا القانون ٠

٥ ـ لا يجوز للقانون ان يحـرم شيئا ما لم يكن فيه اضرار بالمجتمع ٠ ولا تجوز عرقلة شيء لم يحرمه القانون ، كما لا يجوز اكراه انسان على شيء لم يتطلبه القانون ٠

٦ ـ القانون هو التعبير عن ارادة الجماعة ٠ وكل المواطنين لهم حق المشاركة فى وضع القانون أما بأشخاصهم أو عن طريق ممثليهم٠ ويجب أن يكون القانون واحدا مع الجميع سواء فى الحماية أو فى العقاب ٠ وحيث ان الجميع متسـاوون أمام القـانون ، فالجميع متساوون فى حق التكريم وتولى المناصب والوظائف بحسب قدراتهم المختلفة ولا امتياز لأحد على أحد الا بالفضائل والموهبة ٠

٧ ـ لا يجوز أن يتهم انسان أو يقبض عليه أو يعتقل الا فى الأحوال التى حددها القانون وبحسب الطرق التى رسمها القانون ٠ ويجب عقاب كل من أصدر أو سعى الى اصدار أو نفذ أوامر تعسفية أو تسبب فى تنفيذها ٠ وكل مواطن استدعى بالقانون أو قبض

للفقراء وانمـــا صنع للأغنيـــاء وللمضـــاربين وللمتعـاملين فى البورصة !! » .

وربما كانت خير وسـيلة لمعرفة هـذه القوى البورجوازية المحركة للثورة الفرنسية هى دراسة الأفكار الأساسية التى كانت تملأ أدمغة بعض زعماء الثوار فى بداية الثورة الفرنسية عن مكونات « الطبقة الثالثة » وآلامها وآمالها وغاياتها فى الحياة . وقد تبلورت هذه الأفكار الأسـاسية فى الكراسـة التى نشرهـــا الأب سييز L'abbé Sieyès « ١٧٤٨ ـ ١٨٣٦ » بعنوان « ما هى الطبقـة الثالثة ؟ » فى يناير ١٧٨٩ وقد بيع منها عند صدورها ثلاثون ألف نسخة فى ثلاثة أسابيع مما يبين حالة الغليان التى كانت فيها فرنسا . وقد كان سييز أصلا من رجال الدين ولكنه نحا منحى فلاسفة عصر التنوير ولاسيما لوك Locke وكوندياك Condillac قال سييز فى « ما هى الطبقة الثالثة ؟ » :

« ان تخطيط هذه الرسالة بسيط للغاية فلدينا ثلاث مسائل نفكر فيها » :

١ ـ ما هى الطبقة الثالثة ؟ كل شيء .

٢ ـ ما وضعها فى النظام السياسى حتى الآن ؟ لا شيء .

٣ ـ ماذا تطلب ؟ ان تصبح شيئا .

الطبقة الثالثة هى أمة كاملة .

ما هو الضرورى لاعاشة أمة ولرخائها ؟ .. الأعمال الخاصة والوظائف العامة .

والأعمال الخاصة يمكن ان تقسم الى أربعة أقسام :

١ ـ الأرض والماء يعطيان المواد الأولية لاحتياجات الانسان • والفئة الأولى فى هذا النظام هى جميع الأسر المرتبطة بالعمل فى الحقول •

٢ ـ من أول بيع للمواد حتى استهلاكها أو استخدامها تضيف الصناعات اليدوية المختلفة الى هذه المواد الأولية قيمة ثانوية قليلة أو شديدة التركيب بحسب الأحوال • فالعمل البشرى ينجح فى ترقية السلع الطبيعية ويضاعف قيمة المواد الخام مرتين ، بل عشر مرات ، بل مائة مرة • وهذا عمل الفئة الثانية •

٣ ـ وبين الانتاج والاستهلاك وكذلك بين مختلف مراحل الانتاج هناك عدد غفير من الوسطاء النافعين للمنتجين وللمستهلكين جميعا ، وهؤلاء هم التجار •• وهذه المجموعة النافعة هى الفئة الثالثة •

٤ ـ وبالاضافة الى هذه الفئات الثلاث من المواطنين المنتجين المشتغلين بمواد الاستهلاك والاستخدام ، يحتاج المجتمع الى مجموعة من الأعمال الخاصة والخدمات التى تنفعنا مباشرة أو تمتع أشخاصنا • وهذه الفئة الرابعة تضم كل شىء من أجل المهن الحرة والأعمال العلمية الممتازة الى أضأل الخدمات المنزلية شأنا • هذه هى الأشغال التى تقيم عماد المجتمع • ومن هم القائمون بها ؟ هم أبناء الطبقة الثالثة •

« وبالمثل فان الوظائف العامة فى النظام القائم يمكن تبويبها تحت الفئات الأربع المعترف بها ، وهى : السيف وروب القضاء والكنيسة والادارة • ومن المفيد أن نمر فيها تفصيلا لتوضح كيف أن الطبقة الثالثة تمثل $\frac{19}{20}$ من هذه الوظائف مع الفرق التالى ،

وهى انها مسئولة عن كل ما هو مجهد وشاق وكل الخدمات التى ترفض الطبقة الممتازة القيام بها . أما المناصب المجزية والتشريفية فيشغلها أعضاء الطبقة الممتازة . فهل نجدهم أهلا لذلك ؟ .. هذا يمكن تبريره لو ان الطبقة الثالثة رفضت أن تشغل هذه المناصب أو انها كانت ناقصة فى القدرة على أداء وظائفها . وحقيقة الأمر معروفة ، ومع ذلك فقد اجترأوا على أن يضعوا الطبقة الثالثة فى موضع المحظورين . قالوا لأبنائها : أيا كانت خدماتكم وأيا كانت مواهبكم فلن تتقدموا الا الى مدى معين لا تتجاوزونه . فليس من الخير لكم ان يسبغ عليكم التشريف .. اذا كان هذا الحرمان جريمة اجتماعية فهل يمكن تسويغه بقولنا انه يخدم الصالح العام ؟ .. فلننقل ردا على ذلك : أليست أثار الاحتكار معروفة ؟ فاذا كان الاحتكار يحبط المحرومين ، أليس أيضا يحرم أصحابه من الخبرة ؟ أليس معروفا ان كل عمل يحرم من المنافسة الحرة سيكون أكثر تكلفة وأقل اتقانا ؟ » ..

واضح من كلام سييز انه يعبر عن أفكار الطبقات المتوسطة من المشتغلين (١) بالزراعة (٢) بالصناعة (٣) بالتجارة (٤) بالمهن الحرة وبالحرف . وكل من يشارك عن طريق « العمل » فى انتاج خامات الطبيعة وتطويرها وتوزيعها للاستهلاك بين أبناء المجتمع .

هؤلاء هم أبناء الطبقة الثالثة وهم عنده « كل » الأمة . ومع ذلك فهم محرومون من تولى المناصب العليا ومن حكم البلاد ، لأن هذا وتلك كانا وقفا على الطبقة الارستقراطية التى توارثت الامتيازات العلقية استنادا الى حق الفتح بالسيف الذى يدعيه أجدادها الأول او الى شراء الألقاب كالنبلاء المحدثين . فحتى مناصب القضاة كان يشتريها النبلاء من البلاط ، وأبناء الطبقة الثالثة كانوا العمود الفقرى فى سلك الجندية وفى سلك القضاة وفى سلك الكهنوت

وفى ادارة الحكومة ولكنهم كانوا يشغلون كل المناصب الدنيا لأن المناصب العليا كانت حكرا لطبقة النبلاء . ولم يكن دورهم فى السلطة التشريعية « أى فى مجلس الطبقات » أفضل من دورهم فى الحياة العامة .

والحل عند سييز هو سقوط كل الحواجز الطبقية الموروثة وأيلولة الحكم والمناصب العامة الى « الأمة » فى كل مرفق من مرافق الحياة . وهكذا ترجم سييز الفلسفة الاقتصادية لمدرسة « الفيزيوقراط » « الطبيعية » الى فلسفة سياسية أساسها أن « العمل أساس القيمة » بعد موارد الطبيعة كما كان يقول أدم سميث رسول الاقتصاد البورجوازى . الحل عند سييز كان حلول الحق الطبيعى محل الحق الالهى والحقوق الموروثة . الحل عند سييز كان الحكومة النيابية التى تجعل « الأمة مصدر السلطات » .

كان سييز مع ميرابو هما أكبر زعيمين للثورة الفرنسية فى مراحلها الأولى . وهما اللذان قادا الجمعية الوطنية الى وضع دستور للبلاد . فلما جنحت الثورة الفرنسية الى التطرف انزوى نسبيا لأنه رفض راديكالية اليعاقبة ورفض مصالحات الجيروند مع الارستقراطية الفرنسية وظل يشغل مكانة وسطا حتى ١٧٩٩ حين تمكن بوصفه زعيم « حزب السهل » من التآمر مع نابوليون بونابرت ليعود من حملته المصرية ويجرى انقلاب ١٨ برومير الذى استولى به على السلطة فى فرنسا ، وهذا وحده كاف للتدليل على أهميته فى تاريخ فرنسا . ورغم انتصار اليعاقبة فى ١٧٩٣ وشحوب نجم سييز ، كان سييز من القلائل فى الثورة الفرنسية الذين حافظوا على رؤوسهم ومناصبهم طوال عشر سنوات بين ١٧٨٩ و ١٧٩٩ .

وكان أهم ما قام به سييز فى تلك الفترة هو :

١ ــ دعوته للتدريب العسكرى العام لكل المواطنين .

٢ ـ اعادة التنظيم الادارى لفرنسا للقضاء على التقسيمات الاقطاعية القديمة ٠٠

٣ ـ هيمنة الدولة على الدين وعلى التعليم بعد ان كانت الكنيسة هى المسئول الأول عن التعليم فى فرنسا ٠

وبموجب دستور نابوليون فى السنة الثامنة من الثورة كان سييز أحد القناصل ، أى المستشارين ، الثلاثة الذين تولوا حكومة الادارة فى ظل نابوليون" القنصل الأول ٠ وبالطبع انكسف ضياؤه أمام ضياء نابوليون ولكن بقيت له هيبته طوال عصر الامبراطورية ٠ فلما سقط نابوليون عام ١٨١٤ وعادت الملكية نفى سييز ، ولكنه عاد الى فرنسا بعد ثورة ١٨٣٠ وعاش منسيا ست سنوات حتى مات فى ١٨٣٦ ٠

والآن كلمة عامة عن « عرائض الشكوى » Cahiers de Doléances التى تقدم بها نواب « الطبقة الثالثة » الى « مجلس الطبقات » فى انتخابات ١٧٨٩ بقصد تقديمها للملك لويس السادس عشر بقصد اصلاح أحوال البلاد ، فكانت بمثابة نواة دستور للثورة الفرنسية ، ومنها نعرف حالة الرأى العام قبل الثورة الفرنسية مباشرة ٠ وقد كان من هذه العرائض نحو ٢٠٠٠٠ عريضة بعضها تقدم به رجال الدين ، وهم الطبقة الأولى ، وبعضها تقدم به النبلاء ، وهم الطبقة الثانية ، وبعضها تقدم به ممثلو « الطبقة الثالثة » ٠ ومن هذه العرائض نحو ٦٠٠ عريضة تمثل شكاوى عامة ، والباقى مجرد شكاوى فردية ٠ ولعل أهم « كراسة » شكاوى هى الكراسة التى تقدم بها نواب « الطبقة الثالثة » عن دائرة فرساى الانتخابية ، وهذه خلاصة محتوياتها عن التظلمات والمقترحات والمبادىء العامة ٠

« مترجمة عن « مقدمة للحضارة المعاصرة فى الغرب » (جامعة كولومبيا جـ ١) ٠

فيما يتصــل بالدستور : ان سلطة تشريع القوانين هى حق للملك وللأمة عن طريق نوابها الذين تتكون منهم الجمعية الوطنية ، ولا يعتد بقانون ما لم تضعه الجمعية الوطنية ويصدق عليه الملك .

حق وراثة العرش فى النسل من الذكور وحق الابن البكر حقوق قديمة قدم النظام الملكى ويجب أن تحصن بقانون غير قابل للالغـــاء .

القوانين الصادرة عن مجلس الطبقات والمصدق عليها من الملك يجب أن تكون ملزمة لجميع طبقات المواطنين ولجميع أقاليم المملكة .

يجب أن ينعقد مجلس الطبقات على الأقل مرة كل سنتين أو ثــلاث .

يتمتع النواب بالحصانة فلا تجوز محاكمتهم فى القضايا المدنية أثناء فترة نيابتهم ، ولا تجوز للسلطة التنفيذية مساءلتهم عن أية أقوال يدلون بها داخل الجمعية الوطنية ، وتكون مسئوليتهم أمام مجلس الطبقات وحده .

يجب اقرار الحرية الشخصية وحقوق التملك وأمن المواطنين بطريقة واضحة ودقيقة ولا مساس بها . ويجب الغاء كل « الخطابات المختومة » (أى أوامر الاعتقال) الى الأبد .

يجب ادخال نظام المحلفين فى القضايا الجنائيــة والمدنيــة للتثبت من الوقائع وذلك للحيلولة نهائيـــا دون الاضرار بحقوق المواطنين الشخصية وبممتلكاتهم .

يجب الافراج بكفالة خلال أربع وعشرين ساعة عن كل من يقبض عليه فى تهمة لا توجب عقوبة الاعدام ، كما يجب أن يصدر قرار الافراج عن المحلفين .

كل من يقبض عليه اشتباهـا ثم تثبت براءته يسـتحق أن يتقاضى تعويضا من الدولة ، اذا أثبت ان القبض عليه مس بشرفه أو بمصالحه ٠

يعطي المزيد من حرية النشر بشرط آن يعلن الكاتب هويته ويتحمل المسئولية عما يكتب ولا تعد الكتابة قذفا الا بقرار من اثنى عشر محلفـا منعا لاساءة القضاة والسلطات لحق المسـاءلة على ان ترسم الحدود بقانون ٠

لا يجوز فتح الرسائل ٠

يجب الغـاء جميع الفوارق في العقوبات بالنسبة للطبقات المختلفة فالكل سواسية أمام القانون ٠ والعقوبة شخصية ولا يجوز أن تنصب على أقرباء الجانى ٠

يجب أن تتناسب العقوبة مع الجريمـة ، ويجب ابطال كل أنواع التعذيب ٠ ولا يجوز تطبيق عقوبة الاعدام الا على الجرائم الوحشية ٠

يخضع العسكريون للقانون العام فى جرائم القانون العـام كسائر المواطنين ٠

كل ضريبة لا يقرها نواب الشعب ويصدق عليها الملك تعد غير قانونية ٠ ولا يجوز أن تكون هناك امتيازات طبقية فى الضرائب، فالشعب الآن يتحمل العبء الأفدح بالقياس الى النبلاء ٠

فى حالة الحرب أو الظروف الاستثنائية لا يجوز فرض ضرائب جديدة أو عمل قروض الا بموافقة نواب الأمة ٠

يجب اعادة النظر فى نظـام المعاشــات « كان رجال البلاط ينهبون الخزانة بمعاشاتهم •

لما كانت الدولة متكلفة بالمخصصات الملكية فيجب نزع ملكية أملاك الدومين « الأملاك الأميرية » من يد الملك وبيعها بعد تقسيمها الى مساحات صغيرة لأعلى مشتر بالمزاد العلنى •

الوزراء مسئولون عن تصرفاتهم أمام مجلس الطبقات ويمكن محاكمتهم بموجب قانون يوضع لذلك •

لا يجوز تغيير العملة الا بموافقة مجلس الطبقات كما لا يجوز انشاء بنك الا بموافقته •

يعاد تقسيم اقاليم فرنسا « مقاطعاتها » •

يجب أن تتمشى دساتير مقاطعات فرنسا مع دستور مجلس الطبقات الرئيسى فى فرساى حيث الحكومة المركزية ، وان تخضع المقاطعات بلا تحفظ للقوانين التى يصدق عليها الملك •

يجب أن يكون جميع أعضـــــاء المجالس البلدية والقروية منتخبين •

يجب أن تكون الوظائف المدنية والدينية والعسكرية مفتوحة أمام الجميع على قدم المساواة •

كل أجنبى يستوطن فرنسا ثلاث سنوات يكون له الحق فى اكتساب جنسيتها •

يجب الغاء كل ما تبقى من الرق فى الأرض والرق الشخصى • ويعمل مجلس الطبقات على تحرير الزنوج والرقيق فى المستعمرات •

يجب الفصل بين السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيـذية والقضائية ٠

يبطل نهائيا بيع مناصب القضاء ، وتلغى محاكم النبلاء ٠ ويلتزم القضاة بنص القانون دون تصرف من عندياتهم ٠ وتلغى كافة الامتيازات الطبقية ٠

تلغى السخرة ويلغى معها اثنا عشر نوعا من الضرائب والرسوم التى كانت تثقل كاهل المواطنين ٠ كما تلغى الحواجز الجمركيـة بين مختلف مقاطعات فرنسا بحيث لا يتبقى الا الجمارك عند الحدود ٠

الا تدخل البنات الدير دون سن ٢٥ سنة ، وألا يدخل الرجال الدير دون سن الثلاثين ٠

توزع المواريث بالتساوى بين الورثة من الجنسين ومن جميع الأعمار بغض النظر عن الحالة الاجتماعية ٠ ولا يجوز شراء الألقاب ولا اكتسابها بالمناصب ٠

الحرية التامة للتجارة والصناعة ٠

التعليم العام مجانى ٠

مائة مادة ومادة فى عريضة شكوى الدائرة الانتخابيـة فى فرساى ، ولكن أهمها جميعا كان المطالبة بادماج الطبقات الثلاث فى طبقة واحدة هى « الأمة » وان التصويت يكون بالفرد وليس بالطبقة أو الفئة ، وان رجال الدين من كبير الأساقفة الى أصغر قسيس لا يعيشون على الاتاوات أو الاحسان من المؤمنين بل يتقاضون من الدولة المرتبات الكافية ، وأنه نظرا لكفالة الدولة لنفقات الكنيسة والأديرة تباع أملاك الكنيسة وأوقافها وتؤول حصيلتها الى خزانة

الدولة ، وانه من المحظور على رجل الدين فى فرنسا أن يرجع الى بابا روما فى التعيينات أو الترقيات أو الفتاوى أو الاستثناءات الدينية أو استصدار قرارات الحرمان أو صكوك الغفران ، باعتبار ان كل أسقف فى فرنســـا يملك كافة الســـلطات الروحية فى منطقته ·

وهكذا وقف الفرنسيون فى ١٧٨٩ على أعتاب عهد جديد · وقد اثبتت الأحداث ان اللاتفاهم الكامل بين النظام القديم والنظام الجديد جعل كل حوار منتج فى حكم المستحيل ···

٩ ـ الملكة رهينــة

انتهت ثورة الفلاحين فى الريف الفرنسى بعد ثورة باريس فى ١٤ يوليو حتى أوائل اغسطس ١٧٨٩ بانتشار الرعب الأكبر بين النبلاء بسبب اقتحام الفلاحين قصور النبلاء وقيامهم باحراق الوثائق والصكوك الملكية الوهميــة والحقيقية وكافة المستندات القانونية التى كانت تثبت حقوق النبلاء على الأرض وعلى رقيق الأرض وكافة العلاقات الاقطاعية احرقوها فى الميادين العامة وفى أفنية القصـــور . وكذلك لتوقف الفلاحين عن دفع ايجارات الأطيان والضرائب والعشور .

وانزعجت الجمعية الوطنيــة لانتشـــار الفوضى والعنف فى الريف وسعت للتدخل لوضع حد لها ، ولكنها فى الوقت نفســه خشيت من الاستعانة بالســلطة الملكية لقمع حركة « الجاكرى » فاكتفت باعلان ان كل ما يجرى فى الريف من شغب يجرى خارج

● نشــرت بجــريدة الأهــرام بتاريخ ١٩٨٩/٩/٩ .

نطاق الشرعية • خشيت الجمعية الوطنية وأكثر أعضائها من ملاك الأراضى المتوسطى الحال ، ان ينتهى الاستيلاء على أملاك النبلاء بالاستيلاء على أملاك البورجوازية نفسها ، ولهذا عينت الجمعية الوطنية الدوق ايجويون ، وهو أحد كبار النبلاء المتعاطفين مع الفلاحين لفحص مسألة الصكوك لفرز ما هو قانونى فعلا وما هو مغتصب •

وفى ظل الرعب الأكبر كانت ليلة ٤ أغسطس ١٧٨٩ التى الغيت فيها كافة الامتيازات الطبقية الموروثة والغى النظام الاقطاعى نهائيا وصدر « اعلان حقوق الانسان والمواطن » الذى قدس حقوق كافة البشر فى الحرية والمساواة ، ولكنه قدس معها أيضا حق الناس فى التملك • ولأن أبحاث الدوق ايجيون ولجنته لم تسفر عن شىء فى تحديد ما هو مغتصب وما هو شرعى من حقوق النبلاء على أرض فرنسا كان من الممكن لألبير سوبول ان يقول بعد مائة عام فى كتابه عن « الثورة الفرنسية » ان « اعلان حقوق الانسان والمواطن » حرر فلاحى فرنسا كمواطنين ولكنه لم يحرر أرضهم من ربقة النبلاء • لقد كان واضحا ان جلسة ٤ أغسطس كان فيها من العواطف السخية أكثر مما كان فيها من النوايا الصادقة • وكان واضحا ان مزايدات النبلاء كانت مناورة لكسب الوقت حتى يستجمعوا قوتهم من جديد •

وقد احتاج الأمر الى ستة أيام بين ٥ و ١١ أغسطس لصياغة قرارات ٤ أغسطس فى صورة قوانين أرسلت الى الملك لويس السادس عشر ليصدق عليها • ولكن الملك رفض التصديق وكان رفضه تعبيرا عن ثورة النبلاء فى سبتمبر ١٧٨٩ • رفض الملك التصديق على قوانين الغاء النظام الاقطاعى وعلى « اعلان حقوق الانسان والمواطن » قائلا : « أنا لن أوافق على تجريد كهنتى ونبلائى من أموالهم » ••

بدأت ثورة النبلاء أثناء مناقشات لجنة الدستور فى الجمعية الوطنية ، وقد بدأت اللجنة أعمالها بعد اعلان حقوق الانسان مباشرة ، وكان لها مقرران هما مونييه Mounier ولى ـ تولاندال Lally-Tollendal اللذان اقترحا انشاء مجلس للنبلاء على غرار مجلس اللوردات فى انجلترا ، يكون تابعا للملك مباشرة لأنه يعين أعضاءه على ان يكون للملك حق الفيتو المطلق على قرارات الجمعية الوطنية ، وبهذا يكون مجلس النبلاء بمثابة قلعة للارستقراطية . واعترض سييز بشدة قائلا : « ان ارادة فرد لايمكن ان تعلو على الارادة العامة » واعترضت جماعة « الباليه رويال » Palais-Royal وهو قصر الدوق فيليب دورليان Philippe d'Orleans ابن عم الملك الذى اشتهر باسم « فيليب المساواة » Philippe Egalité واتخذت قرارا بأن « الفيتو ليس حق رجل واحد ، بل حق ٢٥ مليون مواطن » وفى ٣١ أغسطس أرسلوا وفدا الى « الهوتيل دى فيل » (بلدية باريس) مطالبين بدعوة جمعية عمومية لجميع أقسام باريس « لمنع الجمعية العمومية من ايقاف مداولاتها فى موضوع الفيتو حتى تبدى الأقسام والأقاليم رأيها فى الموضوع » .

وفى الجمعية الوطنية قاد زعماء الحزب الوطنى وهم بارناف Barnave ودى بور Du Port والكساندر Alexandre وشارل دى لامبيت Charles de Lambeth معارضة انشاء مشروع مجلس النبلاء أو مجلس الأعيان . وفى ١٠ سبتمبر رفض هذا المشروع بأغلبية ٨٤٩ صوتا ضد ٨٩ صوتا فى الجمعية الوطنية ، وامتنع غلاة اليمين عن التصويت . وفى ١١ سبتمبر اقترح بارناف الموافقة على ان يكون للملك حق الفيتو لا بصفة مطلقة ولكن لتعليق القوانين حتى يعاد النظر فيها ، ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح بأغلبية ٥٧٥ صوتا ضد ٣٥٢ صوتا . وكان هدف

الوطنيين من هذه المهادنة اقناع الملك بالتصديق على قوانين أغسطس .

غير ان الملك أصر على رفض التصديق وهنا رأى الزعماء الوطنيون تأليب الجماهير حين استحكمت الأزمة . وبدأت هجرة النبلاء بأموالهم الى الخارج ، فزاد ذلك من الضيق الاقتصادى وتأثرت صناعات الترف فى باريس وانتشرت البطالة وشح الخبز ، فظهرت الطوابير أمام أفران الخبازين ، وتظاهر العمال مطالبين بزيادة الأجور أو للشكوى من البطالة .

وباشتداد أزمة الخبز كتب مارا Marat فى جريدته « صديق الشعب » L'Ami du Peuple يضع المسئولية على لجنة التموين فى بلدية باريس « الهوتيل دى فيل » :

« اليوم « الأربعاء ١٦ سبتمبر » أحس الناس من جديد بفظاعة الضنك ، فالمخابز محاصرة والشعب لايجد الخبز . كل ذلك برغم ان المحصول كان وفيرا للغاية . وفى وسط هذه الوفرة نوشك ان نموت من الجوع . فهل بقى لدينا شك فى اننا محوطون بخونة يريدون لنا الخراب ؟ .. فهل جاءتنا هذه الكارثة من سعار أعداء الشعب ومن جشع الاحتكاريين ومن عدم أمانة الاداريين ؟ » .

وأصبح الباليه روايال مركز قيادة الكفاح السياسى وانتشرت الصحف الثورية مثل « رسالة باريس الى فرساى » Courrier de Paris à Versailles لجورساس Gorsas و « ثورة باريس » Révolution de Paris للوستاليه Loustalet و « صديق الشعب » L'Ami du Peuple لمارا Marat « سبتمبر ١٧٨٩ » و « الوطنى الفرنسى » Le Patriote Francais لبريسو Brissot وانتشرت المنشورات والكتيبات وكلها تتحدث عن مؤامرة الارستقراط على

الحرية وعن ضرورة تطهير الجمعية الوطنية من كبار رجال الدين ومن النبلاء الذين فقدوا مبرر تمثيلهم لطبقاتهم بعد انتهاء مجلس الطبقات . وأصدر كاميل ديمولان Camille Desmoulins « حديث المصباح الى أهل باريس Discours de la Lanterne aux Parisiens وهو يقصد صراحة عمود المشنقة فى ميدان جريف Place de Greve بجوار بلدية باريس حيث كانت المشنقة قائمة . وشاعت المطبوعات المجهولة المؤلفين .

وفى نهاية سبتمبر بدا وكأن الثورة أجهضت ، فالملك رفض دائما التصديق على قوانين أغسطس بالغاء الاقطاع والامتيازات الطبقية وعلى « اعلان حقوق الانسان » ودخل فى مرحلة الهجوم فحشد الجنود فى فرساى . وتيقن النواب اليساريون انه لامفر من صراع عنيف مع النظام القديم . ودعا مارا أهل باريس للتحرك قبل حلول الشتاء « صديق الشعب » (فى ٢ أكتوبر) وحذرت « كرباج الوطن » Fouet national التى انشئت فى سبتمبر ١٧٨٩ . أهل باريس من الاستقراط المتاهبين لاعادتهم للأصفاد . وللمرة الثانية أنقذ الشارع الفرنسى « الجمعية الوطنية » .

وكانت حوادث أكتوبر ..

فجرها ان ضباط الحرس الملكى أقاموا فى فرساى وليمة لضباط فرقة فلاندرز ، وفى هذا العشاء سكروا وداسوا بالأقدام الكوكارد La Cocarde « شارة الثورة المثلثة الألوان : الأزرق والأبيض والأحمر » فى حضور الأسرة المالكة ، ووضعوا الشارة الملكية البيضاء ، فهاجت الخواطر فى باريس . قالت « الكرباج » فى برواز : « منذ يوم الاثنين والباريسيون الطيبون لايجدون الخبز الا بصعوبة ولن يأتيهم بالخبز الا السيد عامود النور (يقصد مشنقة ميدان جريف ل . ع) ومع ذلك فالباريسيون يأنفون من اللجوء

الى هذا السيد الوطني المخلص » (بقصــد شــنق الارستقراط على عامود النور) كما يقول النشيد الثوري المعروف : « سنعلق الارستقراط على عامود النور » .

وفي ٥ أكتوبر تجمعت نســاء من سانت انطوان ومن الهال Les Halles (ســوق باريس) أمام الهوتيــل دي فيل « بلدية باريس » وطالبن بالخبز . وكان عددهن بين ٦٠٠٠ و ٧٠٠٠ امرأة . وقررن الزحف الى فرساي تحت قيادة رجل يدعى ماريار Maillard كان أحــد فاتحي الباســتيل ومعــه بعض مكافحي ١٤ يوليــو منظمين عسكريا . ونحو الظهر دق الناقوس فتجمعت ميليشــيا الحرس الوطني في ميــدان جريف ، واضطر المركيز دي لافاييت Marquis de Lafayette ان يقود هذه الميليشيا وسط الهتافات الى فرساي . ونحو الخامسة مساء سار الى فرساي نحو ٢٠٫٠٠٠ مواطن ، وفي نفس الوقت وصلت نساء باريس الى فرساي وأرسلن وفدا الى الجمعية الوطنيــة ثم للملك الذي وعد بالخبز والقمح . ووصل الحرس الوطني بعد العاشرة مساء . وأبلغ الملك الجمعية الوطنية بتصديقه على قوانين أغسطس ١٧٨٩ لتهدئة الحالة من باب المناورة لكسب الوقت . وهكذا أنقذ الشــارع الباريسي الجمعية الوطنية مرة جديدة .

وفي فجر ٦ أكتوبر اقتحمت جماعة من المتظاهرين قصر فرساي حتى الغرفة المؤدية الى مخــدع الملكة ماري انطوانيت ، وحــدثت مشاجرة مع حرسها الخاص فضها الحرس الوطني الذي أخلى القصر من المتظاهرين . وقبــل الملك والملكة ان يظهرا في الشرفة مع ولي العهد ومع الجنرال لافاييت ، وبعد تردد صفقت له الجماهير هاتفة : « الى باريس » ، ووافق الملك . وفي الجمعية الوطنية قرر الأعضاء ان البرلمان لاينفصل عن الملك .

وهكذا انتقل الملك والملكة من قصر فرســـاى الذى يبعـد ١٤ كيلو مترا جنوب غربى باريس الى قصر التويلرى Les Tuileries فى قلب العاصمة « بجوار ميدان الكونكورد » ·

وأصدر كاميل ديمولان جريدته « ثورة فرنســا وبلجيكا » Révolution de france et de Brabont وفى العدد الأول منها أعرب عن تفاؤله بانتقال الملك من فرساى الى التويلرى لأنه بداية تواصل كل المواطنين مع ملكهم ، وبداية عهـد جديد من الازدهار · ولكن بعض الزعماء كانوا محترسين من التفاؤل اليسير · ونمـوذج هذا مارا الذى كتب يقول فى « صديق الشعب » (العـدد ٧) : « هذا عيد الباريسيين المخلصين ان يمتلكوا أخيرا ملكهم : فحضـــور الملك فى باريس سوف يغير وجه الأشياء سريعا · والشعب البائس لن يموت جوعا بعد الآن ، ولكن هذا الهناء سوف يتلاشى قريبا وكأنه حلم اذا لم نوطد بقاء الأسرة المالكة بيننا حتى يتم وضـع الدستور والتصديق عليه نهائيا · ان « صديق الشعب » تشارك مواطنيهـا الأعزاء أفراحهم ولكنها لن تستسلم للنوم » ·

بعبارة أخرى ، لقد أصبح الملك بانتقاله من قصره بضاحية فرساى ، الى قصر التويلرى فى قلب باريس رهينة فى يد جماهير باريس وزعمائهم المتطرفين ·

كانت أحداث أغسطس هزيمة ساحقة للارستقراط من جهـة وللديمقراطيين المعتدلين من أمثال مونييه Mounier ومالـويه Malouet ممـن كـان حزبهـم يســـمى « المونارشـيان Les Monarchiens وفيها معنى « كلاب الملك » فانسحب حزبهم من الصراع ، وتبع الفوج الثانى من المهاجرين الارستقراط رغـم انهم كانوا من دعاة الملكية الدستورية · كان عليهم ان ينتظروا حتى اعلان القنصلية ليعودوا الى فرنسا فيجدوا النظام الذى يريدونه ،

كانوا دعاة ملكية دستورية فلما رأوا الثورة تنجرف الى الشارع تخلوا عنها · وقد أثبتت أحداث أكتوبر ١٧٨٩ انه كانت هناك علامة استفهام كبيرة حول مستقبل الملكية فى فرنسا ·

والآن فلنر كيف وصف ميشليه أحداث ٥ و ٦ أكتوبر ١٧٨٩ فى كتابه العمدة « الثورة الفرنسية » (الكتاب الثانى ، الفصلان الثامن والتاسع) ·· قال :

« فى ٥ أكتوبر كان هناك جمع من البؤساء الذين لم يذوقوا الزاد منذ ثلاثين ساعة · وكان منظرهم المحزن يفطر القلوب ، ومع ذلك لم يفعل أحد شيئا لمعالجة الموقف · كان كل الناس يتوارون فى بيوتهم ويشكون قسوة الزمان · وفى مساء الأحد ٤ أكتوبر كانت هناك امرأة شجاعة لم تحتمل رؤية الجياع أكثر من ذلك ، فجرت من حى سان دنيس الى الباليه روايال « حيث كان يسكن الدوق دورليان وتتجمع المعارضة ل · ع » وبرزت بين الجمهور الصاخب الذى كان يلقى الخطبة الرنانة ، وجعلتهم ينصتون اليها · كانت هذه المرأة فى السادسة والثلاثين من عمرها ، حسنة المظهر ، طيبة القلب ، ولكنها كانت قوية البنية والشكيمة · وطالبت الجماهير ان تذهب الى فرساى وهى على رأسهم · وسخر منها بعضهم فصفعت أحد الساخرين · وفى اليوم التالى سارت فى مقدمة الجموع شاهرة فى يدها سيفا وأخذت من المدينة مدفعا واعتلت المدفع كما يعتلى الجواد وجروه الى فرساى وكانت فتيلته مشتعلة ·

(وكان بين الحرف المنقرضة من العهد القديم حرفة الحفر على الخشب لديكور المنازل والكنائس ، تحترفها كثيرات من النساء فأصابتهن البطالة) ومن بين هؤلاء ، كانت هناك فتاة اسمها مادلين شابرى Madeleine Chabry وجدت نفسها عاطلة فاشتغلت ببيع الزهور فى حى الباليه روايال واشتهرت باسم لويزون

Louison وكان عمرها ١٧ سنة وكانت جميلة ذكية الفؤاد ٠ وبالقطع لم يكن الجوع هو الذى ساق هذه الفتاة الى فرساى ٠ لقد تبعت التيار العام لطيبة قلبها ولشجاعتها ٠ ووضعتها النساء فى مكان القيادة وجعلن منها خطيبتهن ٠

« وكان هناك غيرها ممن لم يحركهن الجوع ٠ كانت هناك تاجرات وبوابات وموسسات تعاطفن مع الجياع بقلب سخى ، كما هو شأنهن فى كثير من الأحوال ٠ وكان بينهن عدد غفير من نساء العمال فى سوق باريس ٠ وكانت هؤلاء النسوة من المتحمسات للملكية ، ومع ذلك فقد كن راغبات فى اقامة الملك فى باريس بدلا من فرساى ٠ وحين رأين الملك فى فرساى قلن : « ياله من رجل مسكين ! حبيب الى القلوب ٠٠ ياله من أب عطوف » ٠ أما الملكة فقلن لها فى جهامة : « ياسيدتى ! ياسيدتى ! افتحى لنا صدرك !٠٠ فلنفتح قلوبنا ولا نخفى شيئا ! لنقل بصراحة كل ما ينبغى علينا قوله ٠

« ونساء الأسواق لسن من النساء اللواتى يشكون كثيرا من البؤس لأنهن يتاجرن فى ضروريات الحياة ٠٠ ولكنهن يرين البؤس أكثر مما يراه غيرهن ويشعرن به ٠ ولأنهن يقمن دائما فى السوق فليست تفوتهن كما تفوتنا مشاهد البؤس ٠ وليس هناك من يرثى للبؤساء أو يعطف عليهم أكثر منهن ٠ وهن بأجسادهن الغليظة وكلامهن الخشن العنيف كثيرا ما يتميزن بقلوب من ذهب وطيبة لا حد لها ٠

وفى ٥ أكتوبر فى الساعة السابعة سمعن النداء فلم تستطعن المقاومة ٠ أخذت فتاة صغيرة من رجال الحرس الترمبيطة ودقت عليها دقات المارش ٠ وكان ذلك يوم الاثنين ، وخلت السوق ٠ وخرجن وراءها ٠ جميعا قائلات : سوف نعود بالخباز « أى الملك »

والخبازة « أى الملكة » ... ونسعد بالاستماع الى خطبة صاحبتنا ميرابو الصغيرة » .

وسار وراء مظاهرة النساء ٢٠٠٠٠ رجل . ولما احتشدوا حول قصر فرساى وافق الملك على التصديق على قوانين الغاء الاقطاع وعلى اعلان حقوق الانسان ووعد بالخبز والقمح . وفى فجر اليوم التالى « ٦ أكتوبر » تجمهر المتظاهرون من جديد وتسلقوا أسوار قصر فرساى ، ومنهم من اتجه الى مخدع الملكة بنوايا عدوانية ومنهم من اتجه الى جناح الملك ، ونادت الجماهير بانتقال الملك والملكة الى قصر التويلرى بباريس واستغرقت المعارك داخل القصر حتى الواحدة بعد الظهر ، ووافق الملك على مغادرة فرساى التى لم يعد اليها بعد ذلك أبدا :

« وتقدم النهار فاقتربت الساعة من الواحـــدة .. لابـد من الرحيل .. لابد من مغادرة فرساى .. وداعا للملكية القديمة !

« كان حول الملك مائة من النواب وكان حـوله جيش كبير ، وجموع الشعب . وخرج من قصر لويس الرابع عشر الذى لم يعد اليه بعد ذلك أبدا .. » .

« وكان كل هذا الجمع مضطربا وهو عائد الى باريس ، قسم منه يتقدم الملك وقسم يسير من ورائه » .

« انطلق الرجال وانطلقت النساء كل بحسب اجتهاده : على الأقدام ، على ظهور الخيل ، فى عـــربات الحنطور ، وعلى عـربات الكارو وعلى المدافع المجرورة ، وفى الطريق صادفوا بابتهاج قافلة عظيمة تحمل الدقيق ، الخير والبركة للمدينة الجائعة .

ورفع بعض النساء على اسنة الرماح أرغفة الخبز ، ورفعت الأخريات أغصان أشجار الحور الذابلة من خريف اكتوبر .. وكن

فى فرح عظيم يتحدثن فى مودة ، فيما خلا بعض الاهانات الموجهة الى الملكة ، قائلات : لقد عدنا بالخبازة وبالعجان الصغير « يقصدون ولى العهد » ٠

« وكن يتصورن جميعا انهن لن يمتن من الجوع مادام الملك معهن ٠ وكن جميعا من أنصار الملكية وفى ابتهاج عظيم لأنهن سيضعن هذا « الأب العطوف » فى أيد أمينة ، فقد كان محدود التفكير عاجزا عن التعبير ، ولكن ذلك كان بسبب زوجته ٠ وحين يصل الى باريس سوف يجد العديد من النساء الطيبات لينصحنه النصيحة النافعة ٠

« كل ذلك كان مبهجا وحزينا وعنيفا ومفرحا وملبدا فى وقت واحد » ٠

كان يوما مليئا بالأمل ، ولكن السماء لم تشارك فى هذا الأمل ٠ كانت السماء قد أمطرت فمشى الناس ببطء فى الأوحال ٠ ومن وقت لآخر اطلق البعض الأعيرة النارية من بنادقهم اما ابتهاجا واما لمجرد افراغها ٠

« وتقدمت المركبة الملكية ومن حولها الحرس ولافاييت عند بابها وكأنها نعش يتقدم ٠

وكانت الملكة قلقة ٠ ترى هل كان واثقا من وصولها الى باريس ؟ وسألت لافاييت رأيه فى ذلك ، فسأل لافاييت مورو دى سان ميرى Moreau de Saint-Méry الذى كان الرئيس فى بلدية باريس أيام الباستيل الشهيرة وكان يعرف الموقع معرفة جيدة ، فأجاب هذه الاجابة ذات الدلالة : « أشك فى ان الملكة يمكن ان تصل بمفردها الى قصر التويلرى ، ولكن اذا وصلت الى دار البلدية « الهوتيل دى فيل » ، فعودتها ممكنة » ٠

هذا هو الملك في باريس فى المكان الوحيد الذى كان ينبغى ان يكون فيه ، فى قلب فرنســا نفسه عسى ان يكون خليقا بمكانه فى القلب ٠

لقد كانت ثورة ٦ أكتوبر ضرورة طبيعية وشرعية رغم أنها كانت تلقائية تماما وغير منتظرة وشعبية بكل معنى حقيقى ، وكان الفضل فيها لنساء باريس كما كان الفضل فى ١٤ يوليو لرجــال باريس ٠ الرجال استولوا على الباستيل والنساء استولين على الملك٠

لقد كان ١ أكتوبر يوما أفسدته نساء فرساى « يوم ديست الشارة المثلثة الألوان بالأقدام » ٠

وكان ٦ أكتوبر يوما أصلحته نساء باريس »

ملاحظة : شــاع في تلك الأيــام وردد بعض الســاسة ان انتفاضة ٥ و ٦ أكتوبر ١٧٨٩ كانت بايعــاز أو تدبير من فيليب دوق أورليان ابن عم الملك لويس السادس عشر والطامع فى عرشه ، ولكن المؤرخ ميشليه يبرئه من كل علم سابق بما كان يجرى ٠٠

١٠ ـ عيد الاخاء الفيدرالى

لمدة عام كامل ـ تقريبا ـ برز الماركيز دى لافاييت كاهم : أقوى رجل فى فرنسا وأكثر الزعماء شعبية ، بين انتفاضة أكتوبر ١٧٨٦ والاحتفال الاسطورى بالاخاء الفيدرالى فى باريس فى ١٤ يوليــو ١٧٩٠ . ثم أفل نجمه فجأة فى أغسطس ١٧٩٠ بعد مذبحة نانسى . افل نجمه كما افل نجم ميرابو من قبل بعد ان كشف الناس علاقاته الخفية بالبلاط الملكى وارتشــاءه منــه لكى يدعم سلطة الملك على حساب سلطة الجمعية الوطنية .

فلافاييت هو الذى قاد الحرس الوطنى من بلدية باريس الى قصر فرساى يوم زحف نساء باريس على فرســـاى فى ٥ أكتوبر ١٧٨٩ . ولافاييت هو الذى عاد بالملك مخفورا من قصر فرساى الى قصر التويلرى فى قلب باريس فى اليـــوم التالى (٦ أكتوبر ١٧٨٩) .

● نشــرت بجــريدة الأهــرام بتاريخ ١٩٨٩/٩/١٦ .

ولا فاييت هو الذى أنقذ الملك والملكة من غضب المتظاهرين والمتظاهرات الذين اقتحموا أسوار فرساى واقتحموا جناح الملكة وجناح الملك وقيل ان منهم من أراد أن يفتك بالملكة مارى انطوانيت. وفى هبة ٥ أكتوبر صدق الملك على قوانين الغاء الاقطاع وعلى اعلان حقوق الانسان . وفى هبة ٦ أكتوبر قبل الملك ان يقيم فى قلب باريس وسط شعبه الجائع .

كان لافاييت ، مثل ميرابو ، من النبلاء الأحرار المؤمنين بالملكية الدستورية ، أى أن « الملك يملك ولا يحكم » . ولذا كانت سياسته مثل سياسة ميرابو — سياسة الحلول الوسط والمصالحة بين الاضداد ، وقد فشلت هذه السياسة . كان المثل الأعلى عند لافاييت، كالمثل الأعلى عند ميرابو ، هو نظام الحكم فى انجلترا الذى استقر منذ « الثورة المجيدة » . ثورة ١٦٨٨ ، ثورة « الحل الوسط الأعظم » بين الأحرار والمحافظين .

كان الخطأ فى سياسة الحل الوسط أو المصالحة الطبقية هو تصور ان الوضع فى فرنسا كان شبيها بوضع انجلترا فى ١٦٨٨ . ولكن الأمر كان مختلفا تماما . فانجلترا كانت قد سبقت فرنسا فى ثورتها البورجوازية على حكم الملكية المطلقة وحكم الارستقراطية بنحو مائة وخمسين سنة ، أى منذ ثورة البرلمان الانجليزى فى ١٦٤٠ على الملك المستبد شارل الأول ونبلائه والحرب الأهلية بقيادة كرومويل واعدام شارل الأول فى ١٦٤٩ .

١ — كانت الامتيازات الضريبية قد ألغيت فى انجلترا وكان نبلاء انجلترا يدفعون الضرائب كسائر أفراد الشعب الانجليزى :

٢ — كان النبلاء فى انجلترا قد انتهوا — كطبقة عسكرية — بينما كان نبلاء فرنسا لايعرفون لهم حرفة الا حرفة القتال وكأنهم

طبقات من المماليك يعيشـــون بالسيف وحـده ولا ضـمان لرزقهم واستقرارهم الا امتيازاتهم الطبقية وخيرات الأرض المغتصبة وعرق رقيق الأرض وخدمات العبودية المتوارثة بين اقنانهم ٠

٣ ـ كان نبلاء انجلترا قد تحولوا الى رجال أعمال وصاهروا البورجوازية العليا ، وبذلك شاركوا فى التجارة والانتاج الصناعى فأصبحوا جزءا من نسيج الأمة ، بينما ظل نبلاء فرنسا متمسكين بمهنة الجندية ، فمن زاول منهم التجارة أو الصناعة فقد اعتباره الاجتماعى وسقطت عنهم نبالة الأرض والدم الأزرق ٠ وقد ساعد نبلاء انجلترا على هذا التحول البورجوازى التوســع الاستعمارى بانتصارهم فى حـرب السنوات السبع (١٧٥٦ ـ ١٧٦٣) مع بروسيا على فرنسا والنمسا فانفردوا بكندا والهند ولويزيانا دون الفرنسيين ٠

هذه الفوارق الأساسية الثلاثة هى التى جعلت موقف لويس السادس عشر ونبلاء فرنسا موقفا يائسا شبيها بموقف شـــارل الأول ونبلائه فى انجلترا قبل الحرب الأهلية واحبط كل المصالحات الطبقية وسياسات الحلول الوسط ٠

كان لافاييت معبود البورجوازية الثائرة لأنه حماها من اليمين « الارستقراطية » ومن اليسار « الطبقات الشعبية » ٠ والواقع ان لافاييت أصبح فى انتفاضة ٥ و٦ أكتوبر ١٧٨٩ منقذا رغم أنفه ٠ فحين علم فى ٥ أكتوبر بخروج مظاهرة الخبز الى فرســـاى ودعى لقيادة الحرس الوطنى بوصفه رئيسا له قبل ذلك على مضض لأنه وجد نفسه فى موقف المواجهة للشعب وللملك أو فلنقل فى موقف الحارس للشعب وللملك معا ٠

وبانتقال الملك الى التويلرى انتقلت معه الجمعية الوطنية بناء

على اقتراح من ميرابو • وكانت تعقد اجتماعاتها فى « قاعة الألعاب » Salle du Manège « مراجيح اللونابارك » ، بعد اعدادها • وكان النبلاء يجلسون فى يمين القاعة ، وكانوا يسمون « بالسود » Les Noirs على غرار الحزب الارستقراطى فى السنيوريه بفلورنسا أيام دانتى اليجييرى • وكان «الوطنيون» Les Patriotes وهم مجموع أنصار النظام الجديد ، يجلسون فى يسار القاعة • ومنذ ذلك التاريخ استقر اصطلاح « اليمين » للدلالة على المحافظين وأنصار القديم واصطلاح « اليسار » للدلالة على الأحرار والثوار وأنصار الجديد بصفة عامة • ولم تكن هناك تجمعات أخرى ، ولكن درجة درجة ظهرت الأحزاب المتعددة ، وكان من حق أصحاب العرائض ان يراقبوا أعمال الجمعية الوطنية من وراء درابزين الجمعية •

وكانت أغلبية « الوطنيين » تسمى نفسها « الدستوريين » Les Constitutionnels تحت قيادة لافاييت ، وكانوا جميعا مؤمنين بقوانين ١٧٨٩ التى انتزعت من الملك انتزاعا ، ويمثلون البورجوازية، وكان أشهرهم ميرابو وسييز • أما اليسار فكانت له قيادة ثلاثية مكونة من : بارناف Barnave وديبور Du Port ودى لاميت de Lameth ولكن هؤلاء الزعماء كانوا يجنحون الى الملك • وعندما أفل نجم لافاييت فى نهاية ١٧٩٠ حلوا محله كمستشارين للملك • وفى أقصى اليسار كان هناك ثالوث آخرهم : بيزو Buzot وبتيون Pétion وروبسبيير Robespierre وكانوا يدافعون عن مصالح الجماهير ويطالبون بالتصويت العام •

أخذت الحياة السياسية فى فرنسا الثائرة تتكون درجة درجة فتعددت « النوادى السياسية » التى كان يجتمع فيها نواب « الطبقة الثالثة » أو نواب « الجمعية الوطنية » • فبدأوا منذ مايو ١٧٨٩

يجتمعون فى « النادى البريتون » Club breton لمناقشة قضاياهم السياسية ، ولكنهم بعد أحداث أكتوبر ١٧٨٩ أخذوا يجتمعون فى « نادى اليعاقبة » Club jacobin فى شـــارع ســـانت أونوريه Saint-Honoré « وهو دير القديس ســـان جـــاك أى القديس يعقوب » بعد ان استأجروا قاعة الطعام فيه لاجتماعاتهم ٠ وكانوا يسمون أنفسهم « جمعية أصدقاء الدستور » Société des Amis de la Constitution وكان هذا النـــادى يتراســـل بانتظـــام مـــع فروع له فى كل مدن فرنســـا ، مما جعله بمنزلة المركز العصبى للبورجوازية الثائرة المناضلة ٠

وفى ابريل ١٧٩٠ افتتح نادى الكوردلييه Club des Cordeliers الذى كان يجتمع فى دير الرهبان الفرنسيسكان ويسمى نفســـه « جمعية أصدقاء حقوق الانسان » ، وهو ناد ديمقراطى كان أبرز من فيه دانتون Danton ومارا Marat ٠

ومن نادى اليعاقبة إنفصـــل « نادى الفوليـــان » Club des Feuillants برياسة لافاييت عندما أعلن اليعاقبة فى ١٧٩١ بعد هرب الملك ومذبحـــة شـــان دى مارس Champ de Mars اتجاههم الديمقراطى الشعبى بقيـــادة روبسبيير وكان الفوليـــان يجتمعون فى نـــادى الرهبـــان البندكتين Benedictines ، وكان ناديهم يضم النبلاء الأحرار وأبنـــاء البورجوازية العليا « كبـــار الرأسماليين » المتمسكين بالملك وبالدستور بدرجة متساوية ٠ وقد ضاعف الفوليان رسوم اشتراك ناديهم ليستبعدوا من عضويته أبناء البورجوازية المتوسطة ٠

والغريب ان كل هذه التجمعات السياسية كانت تختار مقارا لاجتماعات خارج الجمعية الوطنية أبنية الأديرة ، وكأنهم « رهبان الليل وفرسان النهار » ، أو كأنهم كانوا يحسون فى أعماقهم انهم

بسببل صياغة دين جديد • وربما ساعد على ذلك خراب العديد من أديرة فرنسا التى هجرها رهبانها فلم يبق من حياة الرهبانيــة المسيحية الا واجهات ظاهرية بغير مضمون دينى حقيقى •

وقد عبر كاميل ديمولان Camille Desmoulins عن هذا المعنى الغريب فى عدد ١٤ فبراير ١٧٩١ من جريدته « ثورات فرنسا والبرابانت » (بلجيكا وهولندا) بقوله : « ان نادى اليعاقبة هو كنيسة اليعاقبة ، ويبدو انه مدعو لنفس القيادة التى تتولاها كنيسة روما فى نشر المسيحية ، وذلك فى نشر الوطنية ، أى حب البشر •• وفى قلب نادى اليعاقبة تأتى من كل جهة شكاوى المظلومين قبــل عرضها على الجمعية الوطنية الموقرة » •

فى الظاهر ، فى الظاهر فقط • كان انتقال لويس السادس عشر من قصر فرساى الى قصر التويلرى انتصــارا لشعب باريس • أما الحقيقة فهى ان الملك سرعان ما استرد بعض قوته بسبب سياسة الحل الوسط التى كان يمثلها لافاييت وميرابــو ودعاة الملكيــة الدستورية ، رغم ان كلا من الرجلين كان يكره الآخر كراهيـــة عميقة •

كان ميرابو يطمح فى ان يكون وزيرا فأخذ يناور بين الملك والجمعية الوطنية • وأفسد عليه لافاييت مخططه فاستصدر فى ٧ نوفمبر ١٧٨٩ قرارا من الجمعية الوطنية يحظر على أعضائها تقلد منصب فى السلطة التنفيذية أثناء فترة تمثيلها للأمة • وهنا اتصل ميرابو سرا بالبلاط الملكى ليحل مشاكله المالية • واستخدم الملك ولافاييت ميرابو ليدافع فى لجنة الدستور عن حق الملك فى اعلان الحرب والسلم ، فاستصدر ببلاغته الرهيبة قرارا بذلك من الجمعية الوطنية ، فدعم بذلك مركز الملك بخراب ذمته ، بل أسبغ الشرعية على تحركات الملك ليتواصل سرا مع الدول الأجنبية لحصار فرنسا وغزوها •

كان ميرابو يكره لافاييت ويسخر من عسكريته لأنه استمد كثيرا من شهرته من مشاركته فى حرب الاستقلال الأمريكية ، وكان يسميه « جيل سيزار » Gilles César بدلا من Jules César اى « قيصر الصغير » .

ولم يهدأ نبلاء فرنسا بل استمروا فى تأليب أنصارهم فى الاقاليم على الثورة . وكان سلاحهم الخطير فى ذلك هو تقوية الروح الاقليمية لتمزيق اوصال البلاد والاستفادة من التقسيمات الاقطاعية التقليدية الى امارات ودوقيات وكونتيات كانت لها برلماناتها وكان لها ما يشبه الاستقلال الذاتى ، لتحريض الأقاليم على الحكومة المركزية فى باريس وعلى الجمعية الوطنيـــة وقوانينها الجديدة . وكان هدفهم الغاء الجمعية الوطنية واعادة « مجلس الطبقات » ، والغاء قوانين الغاء الاقطاع ، والغاء « اعلان حقوق الانسان والمواطن» . كذلك كان من أسلحتهم الخطيرة منع نقل القمح والمواد التموينيـة والسلاح من اقليم الى آخـــر لتجويع الشعب وشـــل قدرته على المقاومة .

ورد الشعب على ذلك بحركة واسعة لمناهضة الاقليمية ، عرفت فى التاريخ باسم حركة الاخاء الفيدرالى التى كان شـــعارها : « فرنسا ! فرنسا ! لا اقليمية بعد اليوم ! » .

(تذكروا قصة « رابطة أبناء الصعيد » فى أوائل ثورة ١٩٥٢ و « الصعايدة وصلوا » فى عهد الرئيس مبارك ، و « جمهورية زفتى» جمهورية المنيا » بعد ثورة ١٩١٩ ») .

بدأت حركة « الاخاء الفيدرالى » فى جنوب فرنسا بالتقاء فرق الحرس الوطنى من ١٤ قرية ريفية حول مدينة جرينوبل عاصمة مقاطعة الدوفينيه Dauphiné بجنوب شرق فرنســـا فى

٢٩ نوفمبر ١٧٨٩ ، وتعاهدوا على ان ينسوا اقليميتهم وألا يذكروا الا « الوطن » وان يكونوا أمناء على مبادىء الثورة . وكان ذلك ردا على موقف نائبهم مونييه Mounier الذى كان يثير فيهم عنجهية أهل الجنوب ، واستقال من « الجمعية الوطنية » فى ١٠ أكتوبر ١٧٨٩ بعد ما رآه من أحداث أكتوبر ونيقنه من فشل سياسة الحل الوسط التى كان يتبناها النبلاء الأحرار من دعاة الملكية الدستورية وقد انضم مونييه الى معسكر الارستقراطية والثورة المضادة ثم هاجر من فرنسا مع النبلاء فى ٢٢ مايو ١٧٩٠ .

واتسعت هذه الحركة واتسعت حتى شملت جميع أقاليم فرنسا فى ربيع ١٧٩٠ من بريتانى وبورجونيا والفلاندرز حتى البرانس فى جنوب غرب فرنسا . عشرات الآلاف من رجال الحرس الوطنى المسلحين يتحركون تلقائيا ليلتقوا بعشرات الآلاف من نظرائهم فى الأقاليم المجاورة ليقسموا معا يمين الاخاء الوطنى والولاء لمبادىء الثورة واخيرا عقدوا مؤتمرهم العام فى ١٤ يوليو ١٧٩٠ بساحة ـ الشأن دى مارس ـ فى باريس حيث شارك فى احتفال « الاخاء الفيدرالى » نحو ٢٠٠٫٠٠٠ شخص جاءوا ليشهدوا بين باسى وشايو تجمع نحو ٥٠٫٠٠٠ يحلفون اليمين ، منهم ١٤٫٠٠٠ من رجال الحرس الوطنى من الأقاليم يضاف اليهم الحرس الوطنى الخاص بباريس وممثلو الجيش والبحرية وأكثرهم قطعوا مئات الكيلو مترات سيرا على الأقدام ليحتفلوا بوحدة فرنسا .

وأمام المدرسة العسكرية اقيمت منصة عالية جلس عليها الملك والملكة وأقيم شىء اسمه « مذبح الوطن » اجتمع حوله مائتان من القساوسة بقيادة تاليران Talleyrand أسقف أوتان Autin الذى كان يزك فى سيره وقد تحزموا بأحزمة من قماش مثلثة الألوان ، وكان لافاييت على صهوة جواده الأبيض فترجل ليتلقى

أوامر الملك . وألقى لافاييت على المحتشـــدين من الحرس الوطنى ومندوبى الأقاليم الذين رددوا وراءه هذا القسم :

« نحن نقسم ان نظل على ولاء دائم للامة وللقانون وللملك ، وان نحافظ بكل ما نملك من قوة على الدســتور الذى تصـــدره الجمعية الوطنية ويوافق عليه الملك ، وان نحمى ـ بموجب القوانين ـ الأشخاص والممتلكات وتداول الغلال والمواد التموينية داخل المملكة والضرائب العامة أيا كان شكلها وان نظل متحدين مع الفرنسيين كافة بعرى الاخاء التى لا تنفصم أبدا » .

هذا هو القسم الذى أقسمه رجال الحرس الوطنى ومندوبو الأقاليم بصوت عال فى ساحة « الشأن دى مارس » وأقسمه الملك أمام المذبح بصوت خفيض لم يسمعه الا الكهنة . وفى هذا الوقت بالذات كانت تجرى المذابح فى جنوب فرنسا بترتيب من الملكيين والنبــلاء وكان مبعوث الملكة مارى انطوانيت الخاص يستقبل فى نيس مدبر المذابح ويهنئه على نجاحه فى ترتيبهـــا وكانت جيوش ليوبولد الثـــانى امبراطور النمســـا منذ ١٧٩٠ ، تدق أبـــواب فرنســـا .

وحين شاعت الأخبار فى فرنسا هاجت الخواطر واســـتعد الفرنسيون للدفاع عن وطنهم . كان فى فرنســـا ٣ ملايين مواطن مسلح هم الذين أوفدوا الوفود التى حلفت يمين « الاخاء الفيدرالى » فى « الشأن دى مارس » وكان هؤلاء يفوقون عددا كل ما يمكن للملوك أوروبا ان يحشدوا من جيوش . وتطوعت أقاليم السين Seine وشارانت Charente والجيروند Gironde وغيرها وغيرها ان ترسل كل منها الى الحدود فرقة من ٦٠٠٠ مقاتل متكفلة بتسليحها وتموينها . وفى مرسيليا بالذات ـ باب الجنوب ـ أقسم أبناؤها الا يعودوا اليها الا منتصرين وهكذا خرج جنودها زاحفين على نشيد

المارسيليز La Marseillaise الشهير الذى وضعه روجيه دى ليل Roger de Lisle وأصبح منذ ذلك الوقت نشيد فرنسا القومى ·

وفى الداخل تفاقمت المشاكل حيث تفجرت داخل الجيش نفسه فكثرت التحرشات بين الضباط الموالين للنبلاء وجنودهم الموالين للثورة ، وانتهت هذه التحرشات بكارثة تعرف بمذبحة نانسى ·

طلبت فرقة جنود الملك فى نانسى وهم من الفرنسيين — من ضباطهم ان يدفعوا لهم استحقاقاتهم ، فكان لهم ما أرادوا وأرادت الفرقة السويسرية ان تقلدهم فطبقت عليهم الأحكام العسكرية وقوانين الاقطاع السويسرى معا وعوقب عدد منهم عقابا وحشيا · وحاولت الفرقة الفرنسية حماية السويسريين فاستصدر لافاييت من الجمعية الوطنية فى ٦ اغسطس ١٧٩٠ قرارات رادعة · وكلف ابن عمه الماركيز دى بوييه Marquis de Bouillé قائد عام الموز Meuse والموزيل Moselle ان يفرض النظام ·

وقد فعل بذبح نصف الفرقة السويسرية وشنق العشرات ونفى العشرات ، وكان الضباط الفرنسيون يتشفون فى ضحايا هذه المذبحة ويهنئون ضباط الفرقة الألمانية التى أطلقها بوييه على السويسريين بأمر من لافاييت ، وكأنما كان النبلاء يتشفون فى اخماد ثورة العبيد ·

لقد كانت الفرقة السويسرية التى ابيدت ، وهى فرقة شاتوفيو Chateauvieux ، هى الفرقة التى كانت تقيم فى الانفاليد يوم الباستيل وتركت ثوار الباستيل ينهبون آلاف البنادق وبعض المدافع فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ · ياله من انتقام رهيب هز الضمير الثورى فى فرنسا ·

شيء آخر خطير حدث خلال العام التالى لسقوط الباستيل ، هو ان توقف المواطنون عن دفع الضرائب العامة فى وقت افلاس الخزانة العامة وهجرة النبلاء بثرواتهم على نطاق واسع ، وفشل نيكر فى طرح قرض وطنى جديد ، زاد موقف الدولة المالى تأزما ، الى حد ان الملك نفسه اضطر الى ارسال الأوانى الملكية الذهبية الى دارسك النقود • وفى ٢٩ سبتمبر قررت الجمعية الوطنية ان تسلم الكنائس للخزانة كل الأوانى الفضية غير الضرورية حقيقة للطقوس الدينية ، وفى ١٠ أكتوبر ١٧٨٩ اقترح تاليران ، أسقف أوتان ، وضع أملاك الكنيسة تحت تصرف « الأمة » ، قائلا فى بيانه للجمعية الوطنية :

« ان رجال الدين ليسوا ملاكا مثل الملاك الآخرين •• ونحن نعلم ان ذلك الجزء من أملاك الكنيسة والأديرة اللازم لضمان معاشهم هو الوحيد الذى يخصهم • أما الباقى فهو ملك للفقراء • فلو ان الأمة ضمنت لهم هذا المعاش ، فان ملكية المنتفعين لن تمس • فالأمة اذن تستطيع أولا الاستيلاء على أملاك الهيئات الدينية التى تستحق الالغاء مع ضمان معاش للأفراد الذين تتكون منهم هذه الهيئات ، وتستطيع ثانيا الاستيلاء على المنافع التى لا وظيفة لها • وتستطيع ثالثا تخفيض جزء ما من الايرادات الفعلية التى يتقاضاها أصحابها ، بالاضطلاع بالمسئوليات المرتبطة بهذه الاموال التى نزعت ملكيتها من حيث المبدأ » •

وثارت فى الجمعية الوطنية مناقشة عاصفة حول هذا الموضوع فأكد الأب مورى Maury والأب كازاليس Casalès ان حق التملك حق مصون ومقدس بموجب نصوص « اعلان حقوق الانسان » وبالتالى لا يجوز المساس به ، فرد ميرابو والأب سييز بأن المادة ١٧ من اعلان حقوق الانسان تبيح للدولة نزع الملكية اذا كان ذلك يخدم المصلحة العامة ، بشرط دفع التعويض العادل • كذلك بين ميرابو

وسييز ان الكنيسة فى حقيقتهـا ليست « مالكة » وانما هى مجرد مديرة لأملاكها لتنفق ريعها فى سـبيل الخير ، على المستشفيات والمدارس والملاجىء · وبما ان الدولة قد أصبحت مسئولة عن علاج المواطنين وتعليمهم وعن ايواء العجزة والأيتام وعن اغاثة المحتاجين فلا مناص من ان تنتقل اليها أملاك الكنيسة والأديرة ·

وقد كان ·· ففى ٢ نوفمبر ١٧٨٩ أصدرت الجمعية الوطنية قانونا بمصادرة أملاك الكنيسة والأديرة بأغلبية ٥٦٨ صوتا مقابل ٣٤٦ صوتا ، مع تكفل الدولة بمعاش القساوسة وباغاثة المعوزين · وهكذا بيعت أملاك الكنيسـة والأديرة ابتـداء من مارس ١٧٩٠ فاشتراها أبناء البورجوازية « الطبقات المتوسـطة » والفلاحـون الميسورو الحال ، وكذلك بيعت أملاك الدومين الملكى · ومن قبل ذلك كانت الجمعية الوطنية قد ألغت الأديرة فى فرنسا بقانون صدر فى ١٣ فبراير ١٧٩٠ · واستدعى كل ذلك اعادة تنظيم الكنيسـة فأصدرت الجمعية الوطنية فى ١٢ يوليو ١٧٩٠ « الدستور المدنى لرجال الدين » ·

ورغم ان أعضاء الجمعية الوطنية أعلنوا مرارا ان محركهـم لاصدار هذه القوانين لم يكن أى عداء للدين ، وانما كان رغبتهم فى انقاذ الدولة ، الا ان مصادرة أملاك الكنيسة اضافت مزيدا من الوقود لاشعال فتنة الثورة المضادة ··

١١ ـ لافاييت المركيز المذبذب

كانت للماركيز دى لافاييت (١٧٥٧ ـ ١٨٣٤) Gilbert Marquis de La Fayette مأساة فى الثورة الفرنسية شبيهة بمأساة ميرابو ، فهو مثله قد دخل مسرح الأحداث صغيرا فقد كان فى الثانية والثلاثين من عمره عام ١٧٨٩ ، عام سقوط الباستيل • وهو مثله خرج من مسرح الأحداث خروجا مشينا بعد عامين أو ثلاثة فى ١٧٩٢ ، فوجد نفسه فى قائمة الخونة الذين تطلب الثورة رأسهم ، مرفوضا من زعمائها مرفوضا من أعدائها •

لم يمت لافاييت فى شبابه أو رجولته الباكرة ، بل عاش حتى بلغ ٧٧ عاما • وشارك فى خلع ملكين ، هما لويس السادس عشر عام ١٧٩٢ ، وصديق شبابه شارل العاشر (الكونت دارتوا) فى ثورة ١٨٣٠ التى جاءت بلويس فيليب ملك الفرنسيين ، كما حدثنا

● نشرت بجريدة الأهرام
بتاريخ ١٩٨٩/١١/١١ •

رفاعة الطهطاوى الذى شاهد هذه الثورة ووصفها لنا فى « تخليص الابريز » .

ومثل ميرابو كان لافاييت من طبقة النبلاء ومثل مرابو كان النبلاء من أعداء الثـورة يصفونه بأنه خائن لطبقته ، بينما كان الكثيرون من الثوار يرون فيه منذ البداية خطرا على الثورة وانتهازيا يمتطى الجماهير ، أحمق ، قليل الكفاءة ، عاشقا للدعاية لنفسه . أما هو فقد كان فى شيخوخته يقول عن نفسه انه كان دائما جمهوريا ولكن كراهيته لليعاقبة جعلت اتباع روبستيير يبغضونه .

ويبدو ان نشأة لافاييت كانت لهـا صلة بشخصيته المعقدة المحيرة التى تميزت بالتمرد والذبذبة بين المتناقضات . فقـد ولد لافاييت فى قصر شافانيـاك Chavaniac من أعمال مقاطعـة الاوفرنى Auvergne ، ولم يكن واسع الغنى ولا من نبلاء الدرجة الأولى ، وكان من الصعب عليه أن يثبت نبالة أسرته قبل عام ١٤٠٠ مثل آل روهان Rohan وآل نواى Noailles وآل لاروشفوكو La Rochefoucauld ، وبالتالى فلم يكن فى امكانه ان يلتحق بالبلاط الملكى فى فرساى ، حيث كانت هناك لغة خاصة وعادات خاصـة وسلوك خاص ، بل ومشية خاصة أشبه بالتزحلق ، وحيث رضـا الملك ضرورى للترقية السريعة . كانت هنـاك ثلاث طبقات من النبلاء : نبلاء البلاط ونبلاء الريف ونبلاء القضاء المعروفين بنبـلاء الروب ، وكان هؤلاء أغنياء ، ولكن كان يحتقرهم غيرهم من النبلاء .

كان جيلبر لافاييت ابنا لواحـد من نبـلاء الريف : مات أبوه الضابط بقذيفة انجليزية فى ١٧٥٩ دون أن يرى ابنه جيلبير . فنشأ لافاييت الذكر الوحيـد فى محيط من النساء فى قصر شافانيـاك ، وسرعان ما تركته أمه فى ١٧٦٠ وعاشت فى باريس ، فكفلته جدته لأبيه ، وكانت سيدة متدينة من الطراز القديم ، تصحب حفيدها دائما

الى الكنيسة كره منه ، ولكنه توقف عن اصطحابهـا عندمـا استطاع ذلك • أما دخل الأسرة فكان ٢٥٠٠٠ جنيه سنويا (فى الجنيه وقتئذ ٢٥ فرنكا بالأسـعار الحالية ، أى ان دخل الأسرة سـنويا كان ٦٢٥٠٠٠ فرنك بأسعار ١٩٨٣ عام نشر كتـاب أوليفييه برنيه Olivier Bernier « لافاييت » فى طبعة مايو Payot ، ولم يكن هذا المبلغ كافيا للسطوع فى بلاط فرساى ، أو حتى لشراء الأورطة التى كان يقودها أى ضابط فى الجيش ، حتى ١٧٨٩ كان الملك يمنح الرتب العسكرية ، ولكن كان على النبيل ان يشترى الكتيبة التى يقودها •

وفى ١٧٦٨ ، حين كان لافاييت فى الحادية عشرة من عمره ، أرسلت أمه فى طلبه ليقيم معها فى باريس • وكانت تقيم فى جناح بقصر لوكسمبورج حيث كان يقيم آل لاريفيير La Riviere ، وهـم أسرة لافاييت لأمه ، وقد كانوا من نبلاء الطبقة الأولى ، نبلاء البلاط ، وكانوا يعودون بنسبهم الى سـنة ١٠٠٠ ميلادية ، وكان منهـم مارشال فى القرن الخامس عشر ، وكانت منهم محظية الملك لويس الثالث عشر ، ومؤلفة أول رواية فى اللغة الفرنسية • وقد ساعدت أم لافاييت أباه الضابط ان يحصل على رتبـة كولونيل قبل مقتله فى ١٧٥٩ •

وكان غرض الأم من استقدام ابنها الى باريس هو ادخـاله المدارس الراقية وتقريبه من المجتمع المتمدن ومن مركز السـلطة وتعريفه بصدور الدولة • وكان لافاييت يشعر بشعور الريفى وسط كل هؤلاء الارستقراط المتمدنين ، ففى باريس لا أحد يعرف شيئا عن آل لافاييت • وحين صدر تقويم الأعيان فى ١٧٧٧ لم يرد فيه ذكر لآل لافاييت •

وكانت أمه شابة فى الثلاثين ، وأدخلته كلية دى بليسيس College Du Plessis بجوار السوربون ، وكان كل زملائه أرفع

منه ارستقراطية ، فأحس بالغربة ولم يخالط أحدا ونشأ صموتا ومنزويا وربما ماكرا يظهر ما لا يبطن ، أو على الأقل مزدوج الشخصية مذبذبا متأرجحا بين المتناقضات . هذه النشأة بذرت فى نفسه بذور التمرد على طبقته وحب الحرية والمساواة والاحساس بحقوق الانسان من جهة ، دون تفريط فى النبالة والامتياز من جهة أخرى .

وفى ١٧٧٠ مرضت أمه وماتت فى سن الثانية والثلاثين ، ثم تبعها جده لأمه وعم له بالزواج . وبهذا أصبح لافاييت من أغنى الشباب فى فرنسا لأنه كان الوريث الوحيد لكل هؤلاء وهو فى سن ١٢ سنة : ورث أطيان جده فى بريتانى وعلى نهر اللوار ، وأصبح دخله ١٢٠٫٠٠٠ جنيه سنويا أى نحو ٣ ملايين فرنك بالاضافة الى ما كان قد ورثه عن أبيه . واشترى له جده رتبة ملازم فى الأورطة التى كان أبوه يقودها . وبدأ لافاييت خدمته العسكرية فى ١٧٧١ وهو فى سن ١٤ سنة . ولكنه استمر فى الدراسة عاما آخر .

وكانوا فى تلك الأيام يخطبون للشباب وهم بعد صبية ، فرتب له جده قبل ان يموت ان يزوجه من أدريين Adrienne بنت الدوق أيان Duc Dayen قائد الحرس الملكى وحفيدة المارشال الدوق نوادى Duc De Noailles كانت دوطتها ٤٠٠٫٠٠٠ جنيه أى ١٠ ملايين فرنك .. والتحق لافاييت بأكاديمية الفرسان فى سن ١٦ سنة ، وكان نجم الأكاديمية هو الكونت دارتوا ، ووجد لافاييت نفسه فجأة فى البلاط الملكى تحت جناح عديله الفيكونت دى نواى . وتزوج لافاييت فى ١٧٧٤ قبل ان يبلغ الثامنة عشرة من عمره . وفى هذا العام ارتقى لويس السادس عشر ومارى انطوانيت عرش فرنسا . وفى عمر ١٨ سنة رقى لافاييت الى رتبة كابتن ، ثم احيل الى الاستيداع فى سن ١٩ سنة . وكان شقيا فى حياة

البلاط فقد وجدها موزعة بين الرقص والأزياء والثرثرة التافهة الذكية والخيانات الزوجية والنفاق ، الخ ٠٠ فاعرض عنها وتركزت أحلامه فى الجندية ٠

وفى ١٧٧٧ سافر الى أمريكا ليقاتل مع الثوار فى حرب الاستقلال الأمريكية تحت امرة واشنطون ، وكان برتبة لواء رغم انه كان لايزال فى العشرين من عمره ، فقد كانوا فى تلك الأيام يشترون الرتب ٠ ومع ذلك فقد أبلى بلاء حسنا فى حرب الاستقلال الأمريكية ، وكان آخر عمل عسكرى قام به فى أمريكا عام ١٧٨١ مساعدة واشنطون على الانتصار فى يوركتاون Yorktown وبعدها عاد الى فرنسا متوجا بأكليل الغار وسمى يومئذ ببطل العالمين ، القديم والجديد ٠ وصفح عنه الملك لأنه قام بمغامرته الأمريكية ضد ارادة الأسرة وضد الأمر الملكى ، واستقبله بالحفاوة الكبرى لأن مغامرته الأمريكية جعلت منه نجما فى صالونات باريس وفرساى وشخصية رومانسية تسحر خيال الشباب والنساء والجماهير ٠

وبعد عودته الى باريس انتخب ممثلا للنبلاء فى مجلس الطبقات ، فكان من أوائل الدعاة لاعلان حقوق الانسان ٠ وفى يوم الباستيل اختير قائدا للحرس الوطنى ٠ وبلغ قمة مجده فى عيد الاخاء الفيديرالى (١٤ يوليو ١٧٩٠) ٠ ولكن نجمه أفل بعد مذبحة نانسى وسقط كزعيم سياسى ولم يبق منه الا « الجنرال » المسئول عن جانب من الجبهة عندما غزيت فرنسا ٠ وفى محاولة هرب الملك كان له دور غريب فى محاولة انقاذ الملك والملكية ، فتألبت عليه كافة القوى الديمقراطية وصدر قرار من الجمعية التشريعية فى ١٠ أغسطس باتهامه بالخيانة فلجأ الى النمسويين الذين اعتقلوه وعاد الى فرنسا بعد انقلاب ١٨ برومير (١٧٩٩) الذى استولى به

بونابرت على السلطة واعتكف فى الريف فى ظل الامبراطورية لأنه لم يجد له مكانا فى نظام نابوليون ٠

كان لافاييت دائم التودد للجمعية الوطنية ، وكأنه يريد ان يقنع الجميع بأن قاعدته مدنية وليست عسكرية ٠ وفى ١٩ يونيو ١٧٩٠ اقترح على الجمعية الوطنية الغاء جميع الألقاب فأغضب الملك، ولكنه لم يلبث ان اعتذر للملك عن ذلك فى ٢٧ يونيو ٠ وهذا هو نفس الرجل الذى اقنع الجمعية الوطنية باتخاذ اجراءات رادعة مع الحامية المتمردة على ضباطها الارستقراط فى نانسى ، فاسفر ذلك عن مذبحة نانسى الرهيبة فى أغسطس ١٧٩٠ ٠

وبعد مذبحة نانسى قامت مظاهرات الاحتجاج فى التويلرى ففرقها لافاييت برصاص الحرس الوطنى بأمر من بالى عمدة باريس وبقرار من الجمعية الوطنية التى كانت تخشى اشتراك العامة فى الحياة السياسية ٠ ومنذ ذلك الحين شحب نجمه عند الجماهير ٠ ورغم ان لافاييت حذر الحرس الوطنى من الخطر على « النظام العام » من « الفوضى » و « الحرية المعربدة » فقد أخذت الجماهير تستمع لكلام زعماء « اليسار » : مارا Marat وبريسو Brissot ودانتون Danton ٠ وفى عدد ١٣ سبتمبر ١٧٩٠ من « صديق الشعب » هاجم مارا « ذلك الرجل » واتهمه بأنه جلل الحرس الباريسى بالعار بموافقته على « مذبحة الوطنيين فى نانسى » ٠ ولم يوزع هذا العدد ولكن بعد وقت نشر كاميل ديمولان Camille Desmoulins مقالا يقول فيه ان لافاييت ليس من قماش واشنطون فهو ينتظر اللحظة التى يمكنه فيها أن يقوم بدور الجنرال مونك Monck وهو الجنرال الذى أعاد الملكية فى انجلترا عام ١٦٦٠ بعد جمهورية كرومويل ٠

وفى صيف ١٧٩٠ أصدر مارا منشورا بعنوان «ما يفعلونه بنا» قال فيه ان حشودا من القوات الأجنبية بقيادة الكونت دارتوا تستعد

لغزو فرنسا ، ولكن لا أحد يتكلم عن ذلك خوفا من الوزراء ومن بالى عمدة باريس ، ومن قائد المليشيا الباريسية الذى تربطه مع البلاط روابط تدعو للأسف الى الانزعاج ، ودعا مارا الشعب ليزحف الى ضاحية سان كلو Saint-Cloud حيث يقضى الملك والملكة أجـــازة الصيف ويعيد الملك الى باريس ويضـــع النمسوية فى الســجن ويقبض على قيادة الجيش ، واختتم بقوله : « خمسمائة أو ستمائة رأس يفصم وتكونون قد ضمنتم بها أمنكم وحريتكم وسـعادتكم • ان الرحمة الزائفة قد شلت سواعدكم وأوقفت ضرباتكم ، وهى ستكلفكم حياة الملايين من اخوتكم • فلو نجح اعداؤكم لحظة لسالت دماؤكم أنهارا ، لذبحوكم بغير رحمة ، وبقـــروا بطون زوجاتكم ، ولا تنتزعوا بأيديهم الدموية قلوب أطفالكم من أحشائهم لكى يشفوكم تماما من حب الحرية » •

وفى صباح ١٨ ابريل ١٧٩١ أراد لويس الســادس عشر وأسرته ان يغادروا قصر التويلرى ليقضـــوا عيد القيامة فى قصر سان كلو ،فمنعه الحرس الوطنى من مغادرة التويلرى • لقد كان واضحا ان الأسرة المالكة كانت سجينة التويلرى ، واستقال لافاييت من قيادته الحرس الوطنى ، ولكنه عاد وسحب استقالته •

وفى ٢٠ يونيو ١٧٩١ هرب الملك وأسرته من قصر التويلرى قاصدين حدود فرنسا الشرقية ليكونوا فى حماية ليوبولد الثانى ، امبراطور النمســا شقيق مارى انطوانيت ، وجيوشه المتأهبــة مع حلفائها لغزو فرنسا وتثبيت لويس السادس عشر على عرشه واعادة النظام الاقطاعى وسحق كل مكتسبات الثورة الفرنسية •

ولم يعرف لافاييت بهرب الملك الا فى اليوم التالى (؟) وبدت ورطة حقيقية لأن الخبر كان على كل لســـان والخواطر هائجة • فاجتمع لافاييت فورا ببالى Bailly عمدة باريس وبالكساندر دى بوهارنيه Alexandre De Beauharnais الذى كان رئيس الجمعية

الوطنية ، وسألهما : ما رأيكما هل القبض على الملك وأسرته ضرورى لتجنيب البلاد الحرب الأهلية ؟ » فاجابا بالايجاب . فقال لافاييت : « اذن سآخذ على عاتقى هذه المسئولية » .

وكتب لافاييت على ورق الحرس الوطنى :

« أمر : بما ان أعداء الثورة قد اختطفوا الملك ، فحامل هذا مكلف باخطار المواطنين الصالحين ، وهو مكلف باسم الوطن الذى يكتنفه الخطر ، باستخلاص الملك من أيديهم واعادته الى قلب الجمعية الوطنية ، وهي سوف تجتمع ، ولكننى آخذ على عاتقى كل المسئولية عن النظام الحالى » . وأرسل لافاييت الرسل وراء الملك الهارب .

وفى ٢١ يونيو أعلنت الجمعية الوطنية نبأ خطف الملك وبعض أفراد أسرته بأيدى « أعداء الشعب » للتآمر على الحرية الفرنسية . وكان كل هذا الكلام غبيا لأن الملك ترك وراءه فى التويلرى وثيقة تندد بالثورة ولكل أعمالها ، ولأن الكونت دى بروفانس ، ولى العهد، كان قد هرب أيضا . وفى أثناء تغيير الجياد فى فارين Varennes قبض على لويس السادس عشر وأسرته وأعيدوا مخفورين الى باريس فوصلتها فى ٢٥ يونيو ١٧٩١ .

وفى باريس خطب دانتون فى نادى اليعاقبة قائلا : لقد حلف لنا القائد العام للحرس الوطنى برأسه ان الملك لن يغادر التويلرى ، ونحن الآن نطالب بشخص الملك أو برأس القائد العام . واعترض الكساندر دى لاميت De Lameth على هذا الاقتراح فرفض .

لم يصدق أحد هذه الكذبة الغبية ، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة التى أنقذ بها لافاييت والجمعية الوطنية الملك والملكية فى

فرنسا مؤقتا ، فلو انهم تحدثوا عن هرب الملك الى معسكر الأعداء لكان من الواجب خلعه ومحاكمته واعدامه ، بل واعلان الجمهورية . واكتفى بايقافه عن وظائفه . وقد نجح الملكيون الدستوريون بقيادة لافاييت فى وقف المد الجمهورى واستمرار لويس السادس عشر على عرش فرنسا .

وفى ١٦ يوليو ١٧٩١ قامت المظاهرات فى شأن دى مارس تطالب بخلع الملك ووقعت العرائض التى أعدها اتباع فيليب أورليان لذلك . وفى ١٧ يوليو بدأ الشعب فى الشأن دى مارس . وكانت أغلبية الجمعية الوطنية ضد الدوق أورليان وضد النظام الجمهورى ، فطالبت باقرار النظام وأغلقت نادى الكوردلييه وعطلت صحف اليعاقبة وطالب بالى عمدة باريس لافاييت باستخدام قوة الحرس الوطنى ، وأعلنت الأحكام العرفية وجرت محاولة فاشلة لاغتيال لافاييت . ورغم نجاح لافاييت فى قمع المظاهرات الا ان هذه كانت نهاية شعبيته وسيطرته على جماهير باريس ، وقد سمى بالسفاح لأنه أطلق الرصاص على الجماهير فاردى خمسين قتيلا كذلك انتهت سلطة الجمعية الوطنية ، ولم يعد لأحد سلطة فى باريس الا اليسار ، وهم اليعاقبة والجيروند . وفى سبتمبر ١٧٩١ أعيد الملك الى عرشه . وفى ١٣ سبتمبر أعلن العفو العام بناء على اقتراح الملك . وفى ١٨ سبتمبر صدر الدستور المنقح . وفى ٣٠ سبتمبر انفضت الجمعية الوطنية بعد ان أصدرت قانونا يحرم على أعضائها الاشتغال بالسلطة التنفيذية . فاستقال لافاييت من قيادة الحرس الوطنى الذى أهداه سيفا مقبضه من ذهب . وسكت الجمعية الوطنية له ميدالية بصورته .

كانت مذبحة الشأن دى مارس (١٧ يوليو ١٧٩١) بداية صفحة جديدة فى تاريخ الثورة الفرنسية ، فقد أفضت كذبة « اختطاف الملك » الى تبرئة لويس السادس عشر عن تهمة الخيانة

العظمى ، وبذلك استرد سلطاته الدستورية وعاد الى الجلوس على عرشه والى قيادة الارستقراطية فى المناورة للاطاحة بكافة مكاسب الثورة الفرنسية • وكانت وسيلتهم الى ذلك اشعال الحرب الخارجية وفتح الطريق أمام الجيوش الأجنبية بقيادة النبلاء المهاجرين التى كانت تدق أبواب فرنسا لتثبيت الملك على عرشه واعادة النظام الاقطاعى الى البلاد •

كذلك كانت وسيلتهم الثانية هى اشعال الفتن الداخلية بالاستعانة برجال الدين الغاضبين بسبب مصادرة أملاك الكنيسة والأديرة وبسبب قطع كل صلة بينهم وبين بابا روما والفاتيكان وتحويلهم الى كنيسة قومية ينظمها دستور مدنى •

كذلك كانت وسيلتهم الثالثة هى الاستفادة من مخاوف الجمعية الوطنية ثم الجمعية التأسيسية حامية مصالح البورجوازية ، أى الطبقات المتوسطة المالكة ، بعزل الطبقات الشعبية عن المشاركة فى الحياة السياسية بحرمانها من حق الانتخاب ومن الاشتراك فى الحرس الوطنى •

وقد ساعد لافاييت على تدهور الموقف بسياساته المذبذبة بين الارستقراطية والجماهير •

ولم يكن الملك ونبلاؤه وجنرالاته وحدهم دعاة حرب ، بل كان الثوار المعتدلون من الجيروند وبعض المتطرفين من اليسار دعاة حرب أيضا آملا فى أن يلهبوا بالاشتعال الوطنى روح الثورة فى مواجهة الملك ونبلائه ، فاعلنت الحرب على النمسا فى ٢٠ ابريل ١٧٩٢ ووقف روبسبيير وحده يندد بالحرب •

وفى أول مايو ١٨٩٢ خطب روبسبيير فى اليعاقبة يقول : « كلا ! انا لا أثق بتاتا فى الجنرالات ، فباستثناء قلة منهم شريفة

فانى أقول انهم جميعا على وجه التقريب أسفون على ضـياع النظام القديم وعلى ضياع المزايا التى كان البلاط يغدقها عليهم . كلا . انا لا أعتمد الا على الشعب ، على الشعب وحده » لقد كان روبسبيير يخشى خيانة الجنرالات . قال روبسبيير : « حطموا لافاييت تنقذوا الأمة » أما دانتون فقال فى اليعاقبة فى ١٨ يونيو ١٧٩٢ : « ليس من شك فى ان لافاييت هو زعيم أولئك النبلاء المتحالفين مع كل طغاة أوروبا » .

وكان لافاييت يقود الجيش فى الحدود الشمالية الشرقيـــة (بلجيكا) وكان ظهيره الجنرال روشامبو Rochambeau وكان الجنرال لوكنز Lackner يقـــود جيش الرايـن قـــرب متـز Metz. وكان لافاييت وضباطه النبلاء مشغولين بالسياسة أكثر من اشتغالهم بالحرب ، ثائرين للحصار الذى فرضه اليعاقبـــة فى باريس على الملك الهارب ، فأثاروا روح التمرد فى جنـودهم . وكان لافاييت يخطط للزحف على باريس ليقيم مذبحة لليعاقبة كما كتب هو فى خطـــابه للجمعية التشريعيـــة فى أول أكتـــوبر ١٧٩١ وفقـــا لدســـتور ١٧٩١ :

« أفلأننا يجب أن نحارب الأجانب الذين يتدخلون فى خلافاتنا فهل يعفينا هذا من انقاذ وطننا من الطغيان الداخلى ؟

« يجب ان تبقى سلطة الملك غير منقوصـــة لأن الدســـتور يضمنها يجب ان تكون مستقلة ، فاســـتقلال سلطة الملك دعامة من دعامات حريتنا . يجب ان يكون الملك موقرا لأن الملك يجســـد الجلالة القومية . يجب ان يتمكن الملك من اختيار وزارة لا تقيدها اصفاد أى حزب من الأحزاب . فان وجد متآمرون فيجب ان يهلكوا بالسيف وحده » (خطـاب لافاييت الى الجمعية التشريعيـــة فى ١٦ يونيو ١٧٩٢) .

اما أولئك المتآمرون الذين كان يتحدث عنهم لافاييت فى خطابه فهم « حزب اليعاقبة الذين يثيرون كل القلاقل . انه الحزب الذى اتهمه بصوت مرتفع . هو الحزب المنظم وكانه امبراطورية مستقلة داخل العاصمة وفى فروعه المختلفة ، يقوده قيادة عمياء بعض الزعماء بدافع من طموحهم الشخصي . هذه الطائفة تشكل نقـــابة واضحة داخل الشعب الفرنسى » .

بل ان لافاييت تركه مكانه في جبهة القتال وعاد الى باريس ، ليردد بشخصه نفس الكلام أمام الجمعية التشريعية فى ٢٨ يونيو ١٧٩٢ فاستمعت الجمعية التشريعية لخطابه فى فتور واضح ، فقفل راجعا الى ميدان القتال ، وبدأت الجمعية التشريعية تتشكك فى ولاء جنرالاتها للثورة . وتوالت الهزائم العسكرية فى جبهة القتال .

وفى ١٥ يوليو ١٧٩٢ اقترح النائب باسير Basire ادانة لافاييت بتهمة الخيانة فرفضت الجمعية التشريعية اقتراحه .

وفى ٢٠ يوليو طالب روبسبيير مرة أخـــرى بالقبض على لافاييت . وفى ٤ اغسطس ١٧٩٢ أيدت لجنة اقتراح روبسبيير ، ولكن الجمعية التشريعية رفضت اقتراح روبسبيير بأغلبيـــة ٤٠٦ اصوات ضد ٢٤ صوتا . وبعد ستة أيام اقتحمت الجماهير الثائرة قصر التويلرى من جديد فلجأ الملك الى الجمعية التشريعية ليحتمى بها . وبعد مناقشــــة طويلة قررت الجمعية اعتقال الأسرة المالكة وأرسلتها مخفورة الى السجن ـ وعينت القائد ديمورييز Dumouriez بطل معركة فالى Valmy الذى أمر باعتقـــال لافاييت ، ولكن لافاييت هرب من سيدان Sedan التى أقام فيها مقر قيادته الى معسكر الأعداء مع ثلاثين من ضباطه فى ١٩ أغسطس ١٧٩٢ .

هذا ما فعلته خمرة العقائد أو الطموح الشخصى أو المصـــالح

الطبقية بجندى باسل خرج منذ خمس عشرة سنة ليحرر الأمريكيين من ربقة الانجليز ، ولكن أمره انتهى بعجزه عن تحرير وطنه من ربقة النمساويين والجيوش المتحالفة · أليس فى مأساة لافاييت وجـه شبه من مأساة كريولانوس فى شكسبير ؟

لم يقاتـل لافاييت بسبب مبادئه ، فى صـفوف أعداء بلاده النمسويين والبروسيين كما فعل غيره من نبلاء فرنسا المهاجرين ، بل آثر ان يعيش معتقلا فى بلاد الأعداء حتى أفرج عنه القائد المظفر نابليون بونابرت عام ١٧٩٧ على الا تطأ قدماه أرض فرنسا ، ولكن هذه قصة أخرى ·

قال لافاييت · بالسيف سـوف تهلكون · وقال الثـوار : بالمقصلة سوف تهلكون لقد انتهت حرب الكلام وبدأت حرب النضال· لقد أدخل لافاييت الثورة الفرنسية فى مرحلتها الدموية ·

١٢ ــ قارين : هروب الملك واعدامه

عندما هرب الملك لويس السادس عشر من باريس مع أسرته ليلحق بجيش النبلاء وبجيش الاعداء المرابط على حدود فرنسا الشمالية الشرقية « بلجيكا » ، أعلن لافاييت ومن بعده الجمعية الوطنية ان اعداء الشعب « اختطفوا » الملك والعائلة المالكة ، لأن اعلان « هرب » الملك كان بالضرورة يستدعى محاكمة لويس السادس عشر وخلعه وربما اعدامه ، ولو غيابيا ، واعلان الجمهورية باعلان دستور جديد غير دستور ١٧٩١ الذى كان مؤسسا على مبدأ الملكية المقيدة وهذه حقيقة ما حدث :

فى ليلة ٢٠/٢١ يونيو ١٧٩١ ، نحو منتصف الليل خرج لويس السادس عشر من باب جانبى بقصر التوليرى تصحبه أسرته ، وكان الملك متخفيا فى زى خادم خاص · وكان لافاييت فى الوقت

● نشرت بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٩/١١/٢٥ ·

نفسه يتفقد الحراسة على أبواب القصر لكنه منذ وقت طويل تد ترك بلا حراسة أحد أبواب القصر ، ليسمح للكونت اكسيل فيرسن Axel Fersen صديق الملكة مارى انطوانيت بالدخول والخروج عند الملكة كما يريد • وكان يشاع عنه أنه عشيق الملكة •

وكان الكونت اكسيل فيرسن سويدى الجنسية ، وكان سفيرا لبلاده فى باريس مقربا ولامعا فى البلاط الفرنسى بسبب وسامته وولائه لمارى أنطوانيت ، فلما انتهت مدة سفارته آثر ان يقيم فى البلاط الفرنسى بسبب صداقته للملكة وبسبب مباهج الحياة فى فرساى •

وكان اكسيل فيرسن قد أعد خصيصا للهرب مركبة ضخمة يمكن للأسرة المالكة أن تتكدس فيها ومعها حقائب أكثر من المعتاد • تحت ستار ان المركبة كانت تحمل خزائن من العملات الذهبية المرسلة الى الجنرال بوييه Bouillé لتمويل حاميته فى نانسى وضعت نقط حراسة من الفرسان على طوال الطريق من باريس الى سانت منيهو Sainte-Menehould عن طريق ستالون Chalons-Sur-Marne وارجون Argonne وهكذا كان من المقرر أن يبلغ لويس السادس عشر مونميدى Montmédy وكانت تحف بها من الجانبين كوكبة من الفرسان • وتأخر رحيل العربة الملكية من قصر التويلرى خمس ساعات •

ولما تأخر وصول العربة الملكية الى شالون انصرف الفرسان فى نقط الحراسة التالية لشالون • ووصل الملك الى فارين Varennes فى ليلة ٢١/٢٢ يونيو ، ولم يجد فرسان الحراسة ، وتوقف فيها ليغير جياد عربته فى فندق فى سانت منيهو كان يديره صاحبه واسمه درويه Drouet يديره كمحطة لتغيير الجياد • وفى سانت منيهو تعرف ابن صاحب الفندق على الأسرة المالكة حيث كانت العربة

واقفة ، وأقام المتاريس على كوبرى بنهر اير Aire ليمنع مرور العربة •. ولما أراد الملك العبور وجد الكوبرى مسدودا • ودق ناقوس البلدة فتجمع الفلاحون فى حالة استنفار وانضم اليهم الفرسان نفسه يتفقد الحراسة على أبواب القصر لكنه كان منذ وقت طويل الهوسار ممن كانوا يحرسون العربة متضامنين معهم •

وفى صباح ٢٢ يونيو عادت العائلة المالكة فى طريقها الى باريس فى حراسة بارناف Barnave وبيتون Pétion تحفها من الجانبين كوكبة من الحرس الوطنى جاءوا من كل القرى المجاورة وعومل الملك والملكة معاملة السجناء الفارين • وعرف الجنرال بوييه بالأمر ولكنه وصل بعد رحيل الملك بساعتين • وفى مساء ٢٥ يونيو دخل الملك باريس وسط الصمت الرهيب ، يحف به من الجانبين الجنود حاملين بنادقهم مقلوبة الى أسفل ، وكانهم يسيرون فى « جناز الملكية » •

كان البيان الذى كتبه لويس السادس عشر موجها الى الشعب الفرنسى وتركه فى قصر التويلرى قبل هروبه واضحا تماما فى اعرابه عن نوايا الملك : فقد أعلن انه ينوى اللحاق بالجيش النمسوى المرابط فى بلجيكا ، وانه ينوى العودة الى باريس ليحل الجمعية الوطنية والنوادى السياسية وليوطد الحكم المطلق • وقد كانت جميع سياسات لويس السادس عشر السرية تستهدف تدخل اسبانيا والنمسا لصالحه • ومنذ أكتوبر ١٧٨٩ كان قد أرسل معبوثا سريا من رجال الدين هو الأب دى فونبرون L'abbé de Fonbrune الى كارلوس الرابع ملك أسبانيا ليحرض أمراء الالزاس على فرنسا •

كلا •• لم يكن لويس السادس عشر ذلك الرجل البسيط الذى يصوره لنا بعض المؤرخين لاعفائه من المسئولية عما حدث ،

بل كان على شيء من الذكاء وقد سخر ذكاءه لخدمة عناده الكبير وايمانه المطلق باسترداد سلطته المطلقة ولو كان فى ذلك خيانة لأمته ..

فماذا كانت نتائج هرب الملك الى فارين ؟

فى الداخل اتقسمت الأمة الفرنسية الى قسمين لامهادنة بينهما : الديمقراطيون المتجمهر زعماؤهم فى نادى الكوردلييه ، وقد طالبوا الجمعية باعلان الجمهورية أو على الأقل عدم البت فى مصير الملك دون رجوع الى القواعد الشعبية ، والبورجوازية الحاكمة بقيادة الثالوث البورجوازى : بارناف Barnave ولاميت Lameth وديبورت Duport يظاهرهم لافاييت بحرسه الوطنى ، وهذه كانت تخشى دخول الجماهير الشعبية فى الصراع السياسى خوفا على أملاكها ، فابتكرت اكذوبة اختطاف الملك .

ولعل أوضح تعبير عن موقف البورجوازية الحاكمة كان قول بارناف فى خطبته بنادى الكوردلييه فى ٢١ يونيو ١٧٩١ : « الدستور : هذا هو رائدنا . الجمعية الوطنية : هذه هى مركز تجمعنا » . أو قوله فى الجمعية الوطنية فى ١٥ يوليو ١٧٩١ : « فهل ننهى الثورة ؟ هل نبدأها من جديد ؟ .. خطوة أخرى تكون عملا اسيفا ومدانا . خطوة أخرى فى اتجاه الحرية تكون تحطيم الملكية ، وفى اتجاه المساواة تكون تحطيم الملكية الفردية » ..

ظلت الثورة الفرنسية البورجوازية الحاكمة هى ثورة الطبقات المالكة رغم خيانة الملك وخطر الارستقراطية . عند البورجوازية الحاكمة لقد انتهت الثورة .

وهكذا حدث صدع كبير فى نادى الكوردلييه فى ١٦ يوليو ١٧٩١ فخرج منه دعاة الملكية الدستورية : بارناف ولاميت وديبورت

بقيادة لافاييت ، واسسوا نادى الفوليان ، وخرج منه اليعاقبة بقيادة دانتون وروبسبيير ومارا ·

وحدثت المواجهة بينهما فى اليوم التالى مباشرة « ١٧ يوليو » فى مذبحة الشان دى مارس Chamo de Mars حيث اجتمع فى الميدان الفسيح عشرات الآلاف من المتظاهرين ليوقعوا العرائض مطالبين باعلان الجمهورية ، ففرقهم لافاييت برصاص الحرس الوطنى وترك على الأرض خمسين قتيلا ومئات الجرحى واعتقل المئات · وأغلق نادى الكوردلييه وعطلت الصحف · كل ذلك بتكليف من الجمعية الوطنية لعمدة باريس ان يحفظ النظام وبتكليف من عمدة باريس للافاييت ان يتخذ الاجراءات اللازمة ·

وتم تعديل الدستور بحيث قصر فيه حق الانتخاب على الملاك أو المستاجرين الذين لاتقل قيمة ملكيتهم أو ايجارهم عن ١٥٠أو٢٠٠ أو ٤٠٠ يوم عمل بحسب المهنة · وقد صدر الدستور المعدل فى ١٣ سبتمبر ١٧٩١ · وهكذا استبعد ثلاثة ملايين من أبناء الطبقات الشعبية من مزاولة حق الانتخاب · وكان روبسبيير منذ بداية الثورة يطالب بالتصويت العام المباشر ·

وفى ٢٨ يوليو و ١٩ سبتمبر ١٧٩١ وضع نظام للحرس الوطنى بحيث لايجوز أن ينضم اليه الا المواطنون الايجابيون actifs ويحظر على المواطنين السلبيين Passifs الانضمام اليه أو حمل السلاح · وكان تعبير « الايجابى » و « السلبى » هو من ابتكار سييز Sieyes تعبيرا مهذبا عن قولهم « من يملكون » و « من لايملكون » · وهكذا تحول الحرس الوطنى لفترة الى ميليشيا للبورجوازية المسلحة فى مواجهة شعب اعزل ·

أما النتائج الخارجية لهرب الملك الى فارين فكانت غضب ملوك أوروبا وانزعاجهم لما يجرى فى فرنسا ، واسفرت أولا عن بيان

بيلنيتز Pillnitz الذى وقعه ليوبولد الثانى امبراطور النمسا وفريدريك وليم ملك بروسيا مهددين الثوار الفرنسيين في ٢٧ اغسطس ١٧٩١ بأنهما سيتدخلان عسكريا اذا وافق بقية ملوك أوروبا على التدخل الأوروبي لنصرة الملك والنبلاء •

ومات ليوبولد الثانى ، أخو ماري انطوانيت ، فجأة فى أول مارس ١٧٩٢ وتولى مكانه فرانز الثانى وفى ٢٠ ابريل ١٧٩٢ تقدم الملك الى الجمعية التشريعية وأعلن الحرب على « المجر وبوهيميا » أى على دولة النمسا من دون دول الامبراطورية النمسوية الهنغارية ووافق كل النواب على اعلان الحرب « ٧٤٥ نائبا » ولم يعترض الا عشرة نواب رغم تنديد روبسبيير بالحرب منذ البداية ، قائلا انها مؤامرة ملكية ارستقراطية لتحطيم الجيش الفرنسى وغزو فرنسا من الخارج لاعادة الملكية المطلقة والنظام الاقطاعى •

كان الجيش الفرنسى فى أيدى ١٢٫٠٠٠ ضابط من النبلاء هاجر نصفهم على الأقل وانضموا الى اعداء البلاد أو رحلوا الى انجلترا • وكانت القيادة العليا فى أيدى المارشال روشامبو Rochambeau العجوز الذى بنى سمعته العسكرية فى حرب الاستقلال الأمريكية ، والمارشال لوكنر Luckner الألمانى الأصل العاطل من الكفاءة والجنرال لافاييت الذى كان يشتغل بالسياسة أكثر مما يشتغل بالحرب • وكانت هناك أزمة ثقة بين القادة وجنودهم بسبب الصراعات السياسية والاجتماعية التى مرت بها فرنسا منذ ١٧٨٩ • ولم يكن لدى النمسا فى الجبهة البلجيكية الا ٣٥ ألف مقاتل أما الجيوش الفرنسية فكان قوامها ١٥٠٫٠٠٠ مقاتل من الجيش النظامى والمتطوعين وبالفعل فى أول مواجهة ، عندما أمر الجنرال دنموريز Dumouriez الجيوش الثلاثة بالاستيلاء على بلجيكا كلها ، أمر الجنرال ديلون Dillon والجنرال Biron

جنودهمـا بالانسحاب فى أول مواجهـة • وأحس الجنود بخيانـة قيادتهم وتشتتوا وقتلوا الجنرال ديلون •

وتوالت الهزائم • فالهب ذلك الشعور الوطنى فى الداخـل ولا سيما بين الجماهير الشعبية المحرومة من المشاركة السياسية وفى الانخراط فى سلك الحرس الوطنى ، كما اجج ذلك مشاعر الجماهير الشعبية ضد الطبقات الحاكمة لانها لاتدرك أن الوطن ملك لكل من يعيشون على أرضـه وأن الطريق للدفاع عنه هو مسـاواة جميع المواطنين فى الحقوق والواجبات بما فى ذلك حق الانتخاب وواجب الدفاع الوطنى •

وفى بداية يوليو ١٧٩٢ جـاءت الأنباء بأن الجيش البروسى المرابط فى كوبلنتز Coblentz بقيادة الدوق برنسويك Brunswick يتأهب لعبور الحدود الفرنسية من الشمـال الشرقى ، ومن ورائه جيش النبلاء الفرنسيين المهاجرين بقيادة البرنس كونديه Condé فاتفق روبسبيير مع بريسو Brissot زعيم حزب الجيروند المعتدلين Le Gironde على توحيد الصفوف لدرء هذا الخطر الوطنى • وفى ١١ يوليو اصدرت الجمعية التشريعية بيانا تقول فيه : « ايها المواطنون ، ان الوطن فى خطر » وكان ذلك بمبـادرة من بريسو • فاستقالت الحكومة ، وكانت من حزب الفوليان ، اتباع لافاييت ، بعد ان اتهمها فيرنيو Vergniaud بالتقصير •

ولكن بريسو والجيروند المسيطرين على الجمعية التشريعيـة دخلوا فى مفاوضات مع القصر لتولى السلطة • وغير بريسو موقفه فى الجمعية التشريعية فادان الاضطرابات الشعبيـة ورفض اقتراحا بخلـع الملك قـدم فى ٢٦ يوليو ، ورفض التصويت العام الذى كان يقترحـه روبسبيير ، بل وهـدد « بسيف القانون » زعمـاء الثورة وسواهم بزعماء الثورة المضادة ، رغم ان الملك أصر على الفيتو الملكى

Veto برفض قانون ابعاد رجال الدين الرافضين ليمين الولاء لتبعية الدين للدولة .

وكانت مارى أنطوانيت قد طلبت من ملوك أوروبا اصدار بيان تهديدى لثوار فرنسا ، فاعد هذا البيان أحد المهاجرين ووقعه دوق برنسويك وعرف ببيان كوبلنتز . وهدد البيان الحرس الوطنى وكل من تسول له نفسه مقاومة الغزو بالاعدام ، وهدد شعب باريس « لو مس العائلة المالكة بأدنى ضرر فانه سيجلب على نفسه انتقاما رهيبا لا يمحى من الذاكرة ، لأنه سيجر على مدينة باريس الاعدام العسكرى والتخريب الشامل » .

وعرف أهل باريس ببيان كوبلنتز فى أول أغسطس ١٧٩٢ وسرعان ماتوالت العرائض من أقسام « أحياء » باريس مطالبة بخلع الملك . وحددوا للجمعية التشريعية يوم ٩ أغسطس كأجل أقصى لخلع الملك . فلما انفضت الجمعية التشريعية دون اتخاذ قرار اقتحم الشعب قصر التويلرى فلجأ الملك الى الجمعية التشريعية المجاورة . ولما انتصر الثوار وافقت الجمعية التشريعية على ايقاف الملك عن منصبه كما وافقت على عقد المؤتمر الوطنى المنتخب بالتصويت العام كما اقترح روبسبيير ليحل محل الجمعية . واقتيد الملك مخفورا الى سجن التامبل Temple هو وزوجته وبنوه .

وهكذا انقلب العرش ، وسقط حزب الفوليان والنبلاء الأحرار الذين ساعدوا على قيام الثورة ثم حاولوا احتواءها ، وسقط معهم حزب الجيروند المعتدل الذى كان يمثل مصالح البورجوازية العليا ويرفض اشتراك الطبقات الشعبية فى الحياة السياسية : اكتسحهم الشارع السياسى بقيادة دانتون Danton ومارا Marat وروبسبيير Robespierre هذا الثالوت الثورى الذى شكل كتلة عرفت بحزب الجبل أشد تطرفا فى الثورية من ثالوث بريسو Brissot ورولان

Roland وفيرنيو Veryniaud فى الجمعية التشريعية وبقيــة الجيروند الذى اضطرهم خوفهم من دخول الطبقات الشعبية مسرح السياسة الى مهادنة الملك وطبقة النبلاء واللجوء الى السلام الأوروبى بعد أن كانوا دعاة حرب ٠

فى ٣٠ يوليو ١٧٩٢ اصدرت الجمعية التشريعية تحت ضغط الخطر الخارجى قانونا بفتح باب الحرس الوطنى أمام « المواطنــين السلبيين » أى « من لا يملكون » ، بعد أن كان مقصورا على «المواطنين الايجابيين » وحدهم أى « من يملكون » ٠ وبهذا أؤتمن الفقراء على حق حمل السلاح ٠ وبعد ان حصل الفقراء على حق الانتخاب بصدور قانون التصويت العام فى ١٠ أغسطس سقطت الحواجز نهائيا من طبقات المجتمع ودخل « الشعب » فى بنية « الأمة » ، ودخلت « الطبقة الرابعة » المسرح السياسى ٠

وفى تاريـخ الثـورة الفرنسيــة يسمى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ « الثورة الثانية » ، ففيه دقت النواقيس ليلا ودعا سكان حى سانت انطوان بقية أقسام « أحياء » باريس الى التجمع فى دار بلدية باريس وهناك اقاموا « الكوميون الثورى » الذى حكم الحياة السياسية فى فرنسا مباشرة ومن خلال المؤتمر الوطنى نحو عامين ، أى سقوط روبسبيير ، وهى الفترة التى تسمى فى تاريخ الثورة الفرنسيــة « عهد الارهاب » وهو عهد الثورة المضادة وعهد الحرب الأهليــة ، وعهد الخيانات الوطنية ، وعهد الاعدامات بالجملة ٠ باختصــار : كان عهد المذابح و « القديسة جيلوتين » ٠

وفى وسط هذه الهستيريا الوطنية والشعبية التى نجمت عن غزو فرنسا من الخارج وتحرك الثورة المضادة فى الداخل ، أوفدت الجمعية التشريعية ١٢ مبعوثا من اعضائها فى ١٠ أغسطس لجبهات القتال لايقاف الجنرالات والضباط والموظفين العموميين من عسكريين

ومدنيين ايقافا مؤقتا لداعى الاشتباه • وأرسل المجلس التنفيذى الى الأقاليم قومسيرن من الكوميون الثورى فى باريس ، اختارهم دانتون ، وكانوا مزودين بسلطة القبض على المشبوهين •

كذلك انشأ الكوميون فى الأقاليم لجان « مراقبة » مع سلطات التطهير وطالب كوميون باريس بانشاء « محكمة جنايات » استثنائية منتخبة من أحياء « أقسام » باريس للنظر فى جرائم الثورة المضادة • وفى ١٧ أغسطس ١٧٩٢ وافقت الجمعية التشريعية على ذلك على مضض • وقبل ذلك كانت الجمعية التشريعية قد كلفت البلديات بالبحث عن جرائم أمن الدولة ، وفرضت على جميع المواطنين ، بما فيهم رجال الدين ان يقسموا يمين الولاء للحرية والمساواة • وفى ٢٦ أغسطس قررت الجمعية التشريعية نفى كل رجال الدين الذين يرفضون أداء اليمين خلال ١٥ يوما الى البلاد التى يختارونها ، والا أبعدوا الى مستعمرة الجويان Guiyane فى أمريكا الوسطى • وفى ١٨ أغسطس قررت الجمعية التشريعية بضغط من كوميون باريس تفتيش المنازل بحثا عن السلاح فى حيازة المشبوهين •

وفى ٢٦ أغسطس ١٧٩٢ جاءت الأخبار بسقوط لونجوى Longwy وببدايات ثورة مضادة فى اقليم الفانديه La Vendée فاشتد فزع الجماهير • وحين تدهور الموقف العسكرى أمام الغزاة فكر رولان ، رئيس الوزراء ، وهو من حزب الجيروند ، فى نقل الحكومة من باريس ، فحذره دانتون قائلا : « رولان ، اياك ان تتحدث عن الهرب • حذار ان يسمع الشعب كلامك » •• وقبض على ٣٠٠٠ مشبوه ثم افرج عن الكثيرين منهم • وفى ٢ سبتمبر كان هناك فى سجون باريس ٢٨٠٠ معتقل ، كان أقل من نصفهم معتقلا منذ ١٠ أغسطس • وفى ٢ سبتمبر جاءت الأنباء بأن فردان Verdun محاصرة ، وكانت آخر معقل بين الحدود وباريس • وفى ٢ سبتمبر أيضا قتل القساوسة الذين رفضوا اداء يمين الولاء للحرية والمساواة

ورفضوا الدستور المدنى للكنيسة ، قتلهم حراسهم المارسيليون والبريتون فى سجن الدير Abaye وهم من الحرس الوطنى واصحاب الدكاكين والاسطوات من نجارين وجزمجية ، كما قتلوا القساوسة المسجونين فى سجن كارم Carmes وفى الأيام التالية « ٢ — ٦ سبتمبر » قتل سجناء سجن لافوريس La Forse والكونسيير جرى Conciergerie والشاتليه Châtlet وغيرها • وتعرف هذه المقتلة « بمذابح سبتمبر » • وكان مجموع من قتلوا ١١٠٠ سجين أكثر من ثلاثة ارباعهم من سجناء القانون العام • ولم تتدخل السلطات لانقاذهم • كان دانتون وزيرا للعدل ، وكان الجيروند مرتعبين ، وروت مدام رولان ان دانتون قال لزوجها « رئيس الوزراء » : « أنا لايهمنى شىء من أمر السجناء » (بلغة أكثر بذاءة) •

وفى ٢٠ سبتمبر كان انتصار فالمى Valmy وانعقد المؤتمر الوطنى وفى ٢١ سبتمبر ألغيت الملكية فى فرنسا •

وقد تأخر اتهام لويس السادس عشر عدة شهور بسبب رغبة الجيروند فى انقاذه • وفى ١٦ أكتوبر ١٧٩٢ احيل الموضوع الى لجنة التشريع فى المؤتمر الوطنى فأفتت فى ٧ نوفمبر بأن فى امكان المؤتمر ان يحاكم الملك • ولم يشترك حزب الجيروند فى المناقشة •

قال الفتى سان جوست Saint-Just وهو من حزب الجبل فى ١٣ نوفمبر ١٧٩٢ :

« نفس الرجال الذين سيحاكمون لويس لديهم جمهورية يؤسسونها : ومن يعلق بعض الأهمية على العدل فى عقاب الملوك لن يكون فى امكانه تأسيس جمهورية •• أما أنا فلست أرى طريقا وسطا : هذا الرجل أما ان يحكم وأما أن يموت • الملك لا يمكن تقلده فى براءة : هذا الافتراض محض جنون • كل ملك خارج و «مغتصب»

« انه سفاح الباستيل ، سفاح نانسي ، سفـاح الشبان دى مارس ، سفاح تورناى ، سفاح التويلرى • أى عـدو ، أى أجنبى انزل بكم شرا أكثر من ذلك ؟ »

وقد اكتشف فى قصر التويلرى دولاب سرى من الحديد بنى داخل الحائط بأمر من لويس السادس عشر ، وفيـه أوراق تثبت اتصاله بالأعداء • وقدمت هذه الوثائق الى المؤتمر فى ٢٠ نوفمبر فجعلت من المستحيل تأجيل القضيـة • وفى ٣ ديسمبر استأنف روبسبيير منطق سان جوست : « الملك ليس متهما ، وأنتم لستم قضاة • ليس لديكم تصدرونه له أو عليه ، وانما لديكم اجراء يتخذ للأمن العام ، عمل يعمل لحماية الوطن » •

ورغم مناورات الجيروند لانقاذ الملك ، قرر المؤتمر الوطنى فى ٦ ديسمبر ١٧٩٢ تشـكيل لجنة تضع بيانا بجرائم لويس كابيه ، Louis Capet المدعو لويس السـادس عشر ، وأعد قرار الاتهام لانديه Lindet وبدأت المحاكمة فى ١١ ديسمبر بقراءة عريضة الاتهام ، ومحورهـا ان لويس السادس عشر كان دائمـا مخادعـا بوجهين فى كل الفترات الحرجة التى مرت بها الثورة • وترافع دى سيز de Seize محاميا عن الملك ، فقرأ دفاعا جميلا صادقا محوره ان ذات الملك مصونة لاتمس بموجب دستور ١٧٩١ •

وطالب الجيروند لانقاذ الملك بعرض الأمر للاستفتاء العام ، لأن الشعب وحده يملك تجريد الملك من حصانته الدستورية • فوجد الجمهوريون ان فى مبدأ الاستفتاء محاولة لاشعال الفتنة الأهلية من جديد • وكتب روبسبيير فى يناير ١٧٩٣ رسالة الى « ناخبيه » عن سيادة الشعب قال فيها :

« ان الشعب نطق بالحكم قبلا على لويس : المرة الأولى حين حمل السلاح ليخلعه من عرشه •• والمرة الثانية عندما فرض ادانته

كواجب مقدس بطريقة تجعل منه عبرة من أجل سلامة الوطن ، وليكون عظة للعالم .. وتعريض الدولة لهذه الأخطار خلال أزمة نظام اقتراب الأعداء المتحالفين ضدنا ، ليس له معنى الا الرغبة فى اعادتنا الى النظام الملكى من خلال الفوضى والقلاقل » .

وفى ١٤ يناير ١٧٩٣ أسفرت المداولة عن طرح هذه الأسئلة الثلاثة على المؤتمر الوطنى للأجابة عليها : « لويس كابيه ، هل اقترف جريمة التآمر ضد الحرية العامة لتهديد سلامة الوطن ؟ .. أهناك رجوع الى الأمة فى الحكم الصادر ؟ .. وماهى العقوبة التى توقع على لويس » ؟

وجاءت الادانة باجماع الأصوات الا بعض من امتنعوا عن التصويت . ورفض مبدأ الرجوع الى الأمة بأغلبية ٤٢٦ صوتا ضد ٢٧٨ . وهكذا هزم الجيرونده ، وصدر الحكم باعدام لويس السادس عشر ، بأغلبية ٣٨٧ صوتا ضد ٣٣٤ . وكان التصويت بنداء الأسماء فاستمر ٢٤ ساعة بدأت مساء ١٦ يناير . وصوت ٢٦ نائبا للاعدام مع وقف التنفيذ . وفى ١٨ يناير جرى التصويت على وقف التنفيذ فرفض الاقتراح بأغلبية ٣٨٠ صوتا ضد ٣١٠ اصوات .

وفى ٢١ يناير ١٧٩٣ الساعة ١١ صباحا اعدم لويس السادس عشر على المقصلة فى ميدان الثورة وسط حراسة مشددة وجماهير غفيرة .

أما مارى انطوانيت فقد قبض عليها مع الملك فى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ وسجنت معه ، ثم نقلت بعد اعدامه الى الكونسيير جرى . ثم حاكمها المؤتمر الوطنى بناء على اقتراح من بيو Billaud-Varenne وماتت على المقصلة فى ١٦ أكتوبر ١٧٩٣ وقت محاكمات الجيروند .

وقد اشتهر الجمهوريون المتطرفون المؤمنون باشتراك الجماهير الشعبية في الحياة السياسية وفي الدفاع الوطني باسم « حزب الجبل » لأنهم كانوا يجلسون في قمة مدرج المؤتمر الوطني •

ترك اعدام الملك أثرا عميقا في فرنسا واصاب أوروبا بذهول عميق ، فقد كان شخصه مقدسا بموجب نظرية حق الملوك الالهي • فأعلنت أوروبا على فرنسا الثورية حربا لاهوادة فيها استمرت أكثر من عشرين عاما ولم تنته الا بسقوط نابوليون في ١٨١٤ • وباعدام الملك قطع المؤتمر الوطني الكبارى من ورائه وغدا مسرحا لصراع رهيب بين حزب الجبل وحزب الجيروند ، صراع حياة أو موت عرف بعهد الارهاب لأن « القديسة جيلوتين » كانت راعية هذا البيت الكبير •

كان أمل الجيروند ان يصلوا الى تسوية سلمية مع أوروبا • قال بريسو : « نحن في مناقشاتنا لانرى أوروبا كثيرا » فأجابه روبسبيير : « سوف يقرر النصر ما اذا كنتم عصاة أم أصحاب فضل على الانسانية » •

وهكذا اقترب الجيروند ـ أصحاب المصالح الحقيقية ـ بسبب ميلهم للسلام ، من وجهة نظر طبقة النبلاء الذين ما قامت الثورة الفرنسية الا لتجردهم من امتيازاتهم ••

١٣ ـ الأحرار

لم اجد كلمة اتعبتنى تعريبها مثل كلمة « صان كيلوت » Sans-Culotte الفرنسية التى شاع استعمالها ابان الثورة الفرنسية • وهى كلمة تعنى ، كما نقول فى العامية المصرية «عريان» أو حرفيا « اللى بلا سروال أو بنطلون » أو أى شىء يستر العجز • وهى كلمة زراية قصد بها فى فترة الثورة الفرنسية ان تصف الطبقات الشعبية الشديدة الفقر ، أو « الرعاع » أو « الغوغاء » ، أو « الدهماء » بلغة صدقى باشا ، من عمال أو صنايعية أو أنفار أو باعة سريحة وكل من يكسب قوته بعرق جهده اليومى ان وجد عملا • وكانت هذه الطبقات فى ذلك الزمان تلبس طاقية حمراء وزنارا أحمر ، وتلبس مكان البنطلون المألوف البنطلون الحريرى الارستقراطى « المحزق » ، سراويل من التيل المخطط بخطوط رأسية زرقاء وبيضاء وحمراء ، كبنطلون البيجاما •

● نشرت بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٩/١٢/٢ •

ولذا رأيت أن أعرب هذه الكلمة باصطلاح «أبوسروال ملون» ، وجمعها « أصحاب السراويل الملونة » ، وهو تقريب للزى المعروف فى مصر بين الطبقات الكادحة بعد ان تخلع الجلباب أو تطويه عند الخصر • والاصطلاح اصلا باريسى •

هذه الطبقات « الشعبية » التى تعيش « من اليـد الى الفم » كما يقول التعبير الانجليزى ، وعددها بالملايين ، كانت كما رأينـا مصدر رعب الطبقـات المالكة الموسرة التى كانت تخشى على أموالهـا وأملاكها ، وربما أشخاصها ، لو تحررت سياسيا ودخلت طرفا فى الصراع السياسى • وقد صدق حدسها ، لأن هذه الطبقات الشعبية وقد اسلمت قيادها للبورجوازية المتوسطة ، أقرب الطبقات المستنيرة اليها ، وأكثرها احساسا بنبضها واحتياجاتها ، بزعامة مارا ودانتون وروبسبيير ، فأطاحت بالنظام الملكى وأعلنت الجمهورية ولجأت الى المصادرات والتاميمات والحراسات ، والى تعبئة الموارد لاطعام الشعب والتعبئة العامة للدفاع الوطنى وتوفير السلع التموينية الأساسية كالخبز والسكر والشمع والصـابون ، وطاردت التجار المكتنزين الجشعين لحماية جماهير المستهلكين من جشعهم •

فى بداية المؤتمر الوطنى كانت هناك هدنة بين حزب الجيروند وحزب الجبل • فالغى المؤتمر الوطنى الملكية وأعلن الجمهورية باجماع الأصوات يوم ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ بناء على اقتراح قدمه كولو ديربوا Collot Dherbois وزكـاه الأب جريجـوار L'abbé Grégoire جاء فى ديباجته : « ان الملوك كالوحوش وبلاط الملوك هو مصنع للجرائم وبؤرة للفساد ومأوى للطغـاة • وتاريخ الملوك هو تاريخ الشعوب الشهيدة » •

أما رئيس الوزراء ، رولان ، وهو من حزب الجيروند ، فقـد

أرسل منشورا الى رجال الادارة يقول فيه : « احرصوا أيها السادة على أن يكون اعلان الجمهورية هو نفسه اعلان الأخاء » .

وفى اليوم التالى «٢٢ سبتمبر »قرر المؤتمر الوطنى بالاجماع الغاء التقويم المسيحى « الميلادى » من جميع وثائق الدولة ، بناء على اقتراح من بيو فارين Billaud - Varenne رتاريخ كافة الوثائق العامة ابتداء من العام الأول للجمهورية .

وفى ٢٥ سبتمبر وافق المؤتمر الوطنى بالاجماع بعد مناقشة طويلة على اقتراح قدمه كوتون Couthon بالصيغة الآتية : « ان الجمهورية الفرنسية وحدة واحدة وغير قابلة للتجزئة » ، تأسيسا على ان مبدأ الاتحاد الفيدرالى مبدأ أخذه الجيروند عن لافاييت الذى كان متأثرا بالتجربة الأمريكية التى كانت تبقى الباب مفتوحا أمام انسلاخ الولايات . وفى ١٦ ديسمبر وافق المؤتمر الوطنى على توقيع عقوبة الاعدام « على كل من يحاول هدم وحدة الجمهورية الفرنسية أو ان يسلخ اجزاء من كيانها لضمها الى اقليم أجنبى » .

ثم انتهت الهدنة ، وبعد أيام أعلن حزب الجيروند الحرب على حزب الجبل وزعمائه ، مارا ودانتون وروبسبيير . وبدأ الهجوم على معقل حزب الجبل ، وهو باريس . كانت فرنسا مقسمة اداريا منذ الثورة الى ٨٣ اقليما بدلا من الاستقلال أو شبه الاستقلال الاقطاعى القديم . وكان الجيروند يعلمون ان حزب الجبل يعتمد بصفة خاصة على الشارع الباريسى . فقدم النائب الجيروندى لاسورس La source اقتراحا سخيفا غير قابل للتحقيق بالا يكون لباريس نفوذ خاص يتجاوز واحدا على ٨٣ أسوة ببقية الأقاليم .

وفى ٢٥ سبتمبر أيضا اتهم الجيروند مارا بالديكتاتورية فرحب مارا بهذا الاتهام ، وكتب فى جريدته « صديق الشعب » :

« نعم ـ أنا أعتقد انى كنت أول كاتب سياسى ، وربما الوحيد فى فرنسا منذ الثورة ، الذى اقترح اقامة حكم عسكرى أو ديكتاتورية أو حكومة ثلاثية Trimvirat بوصفها الطريقة الوحيدة لسحق الخونة والمتآمرين » • ثم مضى مارا يذكر الجيروند بآلامه فى السجن وتضحياته فى التشريد خلال ثلاث سنوات ، قائلا : « نعم ! أنا باق معكم لاتصدى لجنونكم » • وانتهت الهجمة مؤقتا •

أما دانتون فقد نجحت معه حملة الجيروند الذين غدروا به رغم كثرة قبوله للمصالحات وللحلول الوسط ، فأقيل من منصبه كوزير للعدل فى ٩ أكتوبر ١٧٩٢ وحل محله جارا Garat وهو من الجيروند • وفى اليوم التالى « ١٠ أكتوبر » كان عليه أن يقدم كعادة كل وزير يخرج من السلطة كشف حساب عن تصرفاته المالية اثناء توليه السلطة • وربما استطاع دانتون أن يبرر بذخه فى الانفاق أثناء توليه الوزارة ، ولكنه ارتبك فى تفسير انفاق ٢٠٠ر٠٠٠ جنيه انفقتها وزارته فى « المصروفات السرية » •

وفى ١٨ أكتوبر اعيد فتح الموضوع فى المؤتمر الوطنى ، وعجز دانتون عن تقديم تفسير مقنع • قال : « عن أغلب هذه المصروفات اعترف بأنه ليس لدينا أية ايصالات من الناحية القانونية » وفى ٧ نوفمبر جدد الجيروند الهجوم على دانتون وحجب المؤتمر الوطنى عنه ابراء ذمته المالية • وفيما بعد ذلك كان الجيروند يستثمرون موضوع نزاهته المالية لتحطيمه سياسيا ، فعدل عن سياسة المصالحة •

أما روبسبيير فقد كانت التهم الموجهة اليه هى الافراط فى الطموح والسعى لاقامة الديكتاتورية • وفى ٢٥ أكتوبر قال لوفيه Louvet فى المؤتمر الوطنى : « روبسبيير ! انى اتهمك بأنك

مشغول دائما بأن يعبدك الناس . انى اتهمك بممارسة الطغيان بكل ألوان الدسائس والارهاب على مجموع الناخبين فى منطقة باريس . انى اتهمك اخيرا بالسعى لتكون لك السلطة العليا » .

ونفى روبسبيير ذلك عن نفسه قائلا بأنه كان دائما يحارب الطامعين فى السلطة وانه لايتحرك الا بدافع من وطنيته . وفى ٥ نوفمبر رد على لوفيه بدفاعه عن تحريك الجماهير فى ١٠ أغسطس وعن قيادته للعمل الثورى بقوله فى المؤتمر الوطنى :

« كل هذه الأشياء كانت خارج اطار الشرعيــة كما ان الثورة ذاتها خارج اطار الشرعية ، وسقوط العرش وسقوط الباستيل كانا خارج اطار الشرعية كما ان الحرية ذاتها خارج اطار الشرعية : نحن لا نستطيع أن نريد ثورة دون القيام بثورة » .

وقد خرج روبسبيير من هذه المعــارك اقوى مما كان : خرج زعيما لحزب الجبل . وانهزم الجيروند للمرة الثالثــة . وانتهت هذه التحرشات ببدء الحرب بين الجيروند والجبل .

ولم تكن لحزب الجبل المتطرف فيه أغلبية . وانما كان هؤلاء وأولئك يظفرون بالأغلبية من تأييد الوسط وهو كتلة كبيرة من نواب الأقاليم الذين كان يسميهم كامبل ديمــولان فى جريدتــه « منبر الــوطنيين » La Tribune des Patriotes حــــزب الفــــاترين » Les Flegmatigues المترددين فى الصعود والهبوط بين روبسبيير وبريســـــو وأخــيرا انشــــق على الجيروند انذكارســــيس كلوتز Anachatrisis Cloots فى جلبة حين أصــــدر منشــورا بعنوان « لامارا ولا رولان » وأنشأ كتلة ثالثة فى أوئل نوفمبر ١٧٩٢ .

وهكذا ضــاعت الأغلبيــة من الجيرونــد فى المؤتمر الوطنى

وضاعت منهم رياسة المؤتمر فى ١٦ نوفمبر وفى نفس اليوم انتخب نائب مستقل هو الأب جريجوار L'abbé Grégoire رئيسا للمؤتمر ..
لقد احست كتلة الوسط الكبيرة ان الجيروند يضيعون وقت المؤتمر الوطنى فى تسوية حساباتهم القديمة مع حزب الجبل .

ولم يكن فى المؤتمر الوطنى أحد من الملكيين أو أنصار العهد البائد أو دعاة الملكية الدستورية . كذلك لم يكن فيه عضو واحد من « الصان كيلوت » « أصحاب السراويل الملونة » الذين كانوا يسيطرون على أحياء باريس .

ولم تكن فى المؤتمر الوطنى أحزاب بالمعنى المحدد وانما مجرد تيارين أو اتجاهين واضحين فى السياسة والاقتصاد هما تجمع الجيروند La Gironde أو الجيروندان Les Girondins أو التجمع اليمينى ، وهو يمثل اقتصاديا الطبقة البورجوازية العليا ، من ملاك ورجال أعمال فى التجارة والصناعة والخدمات . هؤلاء كانوا دائما يتحدثون عن الشرعية وسيادة القانون ، وكانوا يؤمنون بالحرية الاقتصادية ويقدسون الملكية الفردية ، ويعارضون تدخل الدولة فى تحديد الأسعار أو اتخاذ اجراءات استثنائية لصيانة الأمن العام . كانوا يؤمنون بالفوارق والامتيازات الطبقية « المكتسبة » بالثروة أو الذكاء أو العمل أو العلم ، ولكنهم لم يؤمنوا كالنبلاء بالامتيازات الطبقية « الموروثة » ولعل أصدق معبر عن فلسفتهم كان قول فونيو Vergniaud للمؤتمر الوطنى فى ١٣ مارس ١٧٩٣ : « المساواة فى الحياة الاجتماعية ليست الا المساواة فى الحقوق » ، أى ما يسميه الانجليز تكافؤ الفرص . وقد كان زعماؤهم بريسو Brissot ورولان Roland وبيتيون Pétion وأكثرهم من أغنياء الثورة .

أما تجمع الجبل Les Montagnards فكانوا يمثلون الطبقة البورجوازية المتوسطة ، وكانوا أكثر تعبيرا عن مصالح

الطبقات الشعبية والأجراء أو « الصسان كيلوت » أو « أصسحاب السراويل الملونة » وكانوا يرون أن الحرية اذا أسيء استخدامها قد تصبح كلمة جوفاء وستارا للاستغلال بل ومبررا لخيانة الوطن • ولهذا نجدهم يجنحون الى النظر الى الملكية الخاصة على أنها وظيفة اجتماعية لا على أنها حق مقدس من حقوق الانسان ، ولذا فهى خاضعة للمصادرة والحراسة والتأميم والانتقاص • وكانوا يتحدثون كثيرا غن انقاذ الوطن وانقاذ الثورة وانقاذ الجمهورية ولو بمصادرة حرية أعداء الحرية •

وبين هاتين الكتلتين كانت هناك كتلة ثالثة هلامية من الوسط عرفت فى التاريخ باسم « السهل » La Plaine وكان نوابها من الجمهوريين الصادقين فى الدفاع عن الجمهوريين الثوريين الصادقين فى دفاعهم عن الثورة • وكانوا يؤمنون بالحرية الاقتصادية وكانوا فى سريرتهم يخاقون من الطبقات الشعبية • ولكن وطنيتهم وايمانهم بالثورة جعلهم يدركون أهمية دور الشعب طالما كان الوطن فى خطر أو الثورة فى خطر • وهكذا قبلوا الاجراءات الاستثنائية « مؤقتا » وحتى النصر • وانضم بعضهم ، مثل بارير Barère وكامبون Cambon وكارنو Carnot ولانديه Lindet الى حـزب الجبـل وأيد سياسته فى الأمن العـام • هذه الكتلـة اتضحت معالمهـا فى نوفمبر ١٧٩٢ ، فانفضت عن حزب الجيروند وقبلت قيـادة حزب الجبل •

اشتد الصراع بين الجيروند والجبل بعد اعدام لويس السادس عشر • فبعد انتصارات فرنسا فى فالمى كان استيلاؤها على بلجيكا والألب والراين ونيس والسافوا فى سبتمبر ١٧٩٢ • وبعد اعدام الملك أعلن البلاط الانجليزى الحداد على لويس السادس عشر ، وزاد وليم بت William Pitt من اجراءاته العدوانية ضد فرنسا •

فأعلن المؤتمر الوطني الحرب على انجلترا وهولندا معا فى أول فبراير ١٧٩٣ ، بناء على تقرير من بريسو ، زعيم الجيروند ، فقد كان من مقاصد الجيروند الاستيلاء على بنك امستردام • وفى ٧ مارس أعلن المؤتمر الوطنى الحرب على اسبانيا ، وتلا ذلك اعلان الحرب على ملوك ايطاليا : أولا على البابا ثم ملك نابولى ثم ملك توسكانيا ، ثم ملك البندقية وفى خلال شهور وجدت فرنسا فى حالة حرب مع كل ملوك أوروبا ، فيما خلا دول اسكنديناوة والتحالف السويسرى • وكانت انجلترا تقوم بقيادة الحلفاء ضد فرنسا وتربط نفسها بسلسلة من المعاهدات الثنائية بين مارس وسبتمبر ١٧٩٣ •

وكان نجاح الحلفاء فى الحرب ضد فرنسا ونشوب الحرب الأهلية فى الفانديه La Vendée من العوامل الرئيسية فى تدمير حزب الجيروند •

كذلك اشتد الغلاء نتيجة للتضخم الناجم عن التوسع فى اصدار العملة الورقية Assignats وطالب سان جوست Saint-Just المؤتمر الوطنى بتقييد اصدار العملة الورقية فى خطبة ٢٩ نوفمبر ١٧٩٢ باعتبار انها أساس التضخم ، ولكن الجيروند لم يلتفتوا الى كلامه • واستمر كامبون رئيس اللجنة المالية ، فى اصدارها • وفى بداية أكتوبر ١٧٩٢ كان حجم العملة الورقية المتداولة ٢ مليار جنيه ، وفى ١٧ أكتوبر زادها كامبون الى ٢ر٤ مليارا • وبعد اعدام الملك هبطت قيمتها الى ٥٠٪ من قيمتها الاسمية •

وبعد مذابح سبتمبر ١٧٩٢ أصدر المؤتمر الوطنى قانونا يبيح حصر الغلال والاستيلاء عليها • ولكن رولان ، رئيس الوزراء تجاهل هذا القانون لأنه كان من دعاة حرية التجارة • وفى ٨ ديسمبر ألغى المؤتمر الوطنى قانون تنظيم تجارة الغلال استنادا لمبدأ « الحرية

الكاملة » فى تداول الغلال والدقيق ، مع الحكم بالاعدام على من يقوم بتعطيل هذا التداول .

وجاءت المقاومة من كوميون باريس ومن أقسامها . وفى أول ديسمبر ١٧٩٢ ألقى الأب جاك رو Jacques Roux أحد زعماء « المسعورين » Les Enragés خطبة عنيفة مطالبا بمطاردة الجشعين والخونة » وفى ليون دعا شاليبه Chalier ولكلير Leclere الى فرض ضرائب على الأغنياء لدعم أسعار الضروريات والى الاستيلاء على الغلال وتنظيم المخابز . وفى ١٢ فبراير ١٧٩٣ قدم وفد يمثل ٤٨ قسما من أقسام باريس عريضة الى المؤتمر الوطنى بهذه المطالب، وتقول هذه العريضة : « ليس بكاف اننا اعلنا اننا فرنسيون جمهوريون ، بل يجب أن يكون الشعب سعيدا أيضا . يجب أن يوجد الخبز : فحيث لايوجد الخبز لا يوجد القانون ولا توجد الحرية ولا توجد الجمهورية » . وندد أصحاب العريضة « بالحرية المطلقة فى تجارة الغلال » . وكان روبسبيير ومارا يشتبهان فى مصدر هذه « القلاقل » . قال روبسبيير : « انها مؤامرة حيكت ضد الوطنيين أنفسهم » و «كان أولى بالشعب ان يثور ليصرع اللصوص من ان يثور من أجل حفنة من السكر » . وقد فرض الأهالى على البقالين أسعارا محددة للسكر والصابون والشمع .

وتدهور الموقف العسكرى على طول جبهات القتال مع اعداء فرنسا فى الخارج واعداء الثورة فى الداخل . وقد انتهت الحروب الخارجية الخاسرة بخيانة الجنرال ديمورييز Dumouriez وانضمامه الى الأعداء ، كما أدت الحرب الأهلية التى استمرت فى الفانديه الى التشدد فى اجراءات الأمن والى سقوط الجيروند .

ففى ١٠ مارس ١٧٩٣ أنشأ المؤتمر الوطنى « محكمة الثورة » ،

وهي محكمة بلا استئناف ولا نقض ، رغم معارضة الجيروند · وكان اختصاص هذه المحكمة : « النظر فى كل أعمال الثورة المضادة وكل عدوان على الحرية والمساواة ووحدة الجمهورية وتكاملها ، والسهر على الأمن الداخلى والخارجى للدولة ، والكشف عن كل المؤامرات التى تسعى لاعادة النظام الملكى » · واحتفظ المؤتمر الوطنى لنفسه بحق تعيين القضاة والمحلفين ، وبحق الاتهام على وجه الخصوص · وكان الجيروند يقول ان هذه ديكتاتورية ، فأجابهم دانتون يقول : « فلننتفع من أخطاء اسلافنا ، ولنفعل مالم تفعله الجمعية التشريعية · فلنحكم بالأرهاب لنعفى الشعب من الأرهاب » ·

وفى ٢١ مارس ١٧٩٣ انشئت لجان المراقبة الثورية بعد معركة نيرويندن Neerwinden بهولندا · وقد عمم المؤتمر الوطنى نظاما كان معمولا به بى كوميون باريس وأقسامها الأجانب ، وسرعان ما اتسع نشاط هذه اللجان فشمل اصدار بطاقات تحقيق الشخصية وفحص أوراق المجندين ، واعتقال كل من يضبط بغير شارة الكوكارد المثلثة الألوان » الأزرق والأبيض والأحمر » · ثم كلفت هذه اللجان باعداد قوائم المشبوهين وتوجيه الاتهام لهم · وكان أكثر أفرادها من الصان كيلوت « أصحاب السراويل الملونة » المعروفين بالوطنية والثورية · وقد كانوا السلاح الضارب الذى استخدمه حزب الجبل ضد الارستقراط والجيروند « البورجوازية العليا » ·

وفى ٢٨ مارس ١٧٩٣ شدد المؤتمر الوطنى قوانين المهاجرين ، فاعتبر مهاجرا كل فرنسى ترك أرضا فرنسا منذ أول يوليو ١٧٨٩ ، ولم يعد اليهـا حتى تاريخ ٩ مايو ١٧٩٢ ، وكل من لا يستطيع تبرير عدم الاقامة المتصلة فى فرنسـا ، منذ ذلك التاريخ وقضى القـانون بالنفى المؤبد للمهاجرين من الأراضى الفرنسية وبالموت

المدنى وبمصادرة أملاكهم لصالح الجمهورية ، وقضى بالاعدام على من يخالف هذا القانون ٠

وفى ٥ و ٦ ابريل ١٧٩٣ أنشئت « لجنة الانقاذ القومى » لتحل محل « لجنة الدفاع العام » المنشأة فى أول يناير ١٧٩٣ ، والتى ثبت أنها عديمة الجدوى ٠ وكانت « لجنة الانقاذ القومى » مكونة من ٩ أعضاء يختارهم المؤتمر الوطنى ، ويتجدد اختيارهم كل شهر ، وكانت مداولاتها سرية ، وكان على المجلس التنفيذى تنفيذ قراراتها دون ابطاء ٠ ووصف الجيروند قيام هذه اللجنة بالديكتاتورية ، فأجابهم مارا : « نعم ، انما بالعنف نحقق الحرية ٠ وقد آن الأوان لننظم طغيان الحرية لنسحق طغيان الملوك » ٠

ودخل دانتون « لجنة الانقاذ القومى » مع كامبون وبارير اللذين انضما الى حزب الجبل ٠

وفى ٩ ابريل ١٧٩٣ أوفد المؤتمر الوطنى « ممثلى الشعب المبعوثين لدى الجيوش » (٢ مبعوثين لكل جيش ، وعدد الجيوش ١١ جيشا) لمراقبة أعمال ممثلى المجلس التنفيذى وتصرفات الموردين والمقاولين المتعاملين مع الجيوش ، ولمراقبة القواد والضباط والجنود ٠٠ ثم عدل هذا القانون فى ٣٠ ابريل وجعل من اختصاص هؤلاء المبعوثين القبض على الجنرالات ٠

وبالنسبة للاجراءات الاقتصادية والاجتماعية فى خدمة الجماهير اشتد الصراع بين حزب الجيروند وحزب الجبل ٠ ففى ١١ ابريل ١٧٩٣ حدد المؤتمر الوطنى سعر صرف اجبارى للعملة الورقية مع عقاب من يرفضون التعامل بها ٠

وفى ٤ مايو ١٧٩٣ حدد المؤتمر الوطنى سعر الغلال والدقيق ، وقرر حصر الاتجار فيها فى سوق كل قسم من الأقسام ٠

وفى ٢٠ مايو ١٧٩٣ فرض المؤتمر الوطنى قرضا اجباريا على الأغنياء بمليار جنيه لتمويل الدفاع الوطنى ، بعد ان طالب روبسبيير اليعاقبة فى ٨ مايو بأن يجعلوا « ذوى البنطلونات المذهبة » يدفعون رواتب « ذوى السراويل الملونة » (الصان كيلوت) : « ان لديكم شعبا ضخما من الصان كيلوت كلهم أنقياء وأقوياء ، وهم لا يستطيعون ترك أعمالهم التى يعيشون منها ، فاجعلوهم يتقاضون أجورهم من الأغنياء » ٠

وقد وافق حزب السهل على كل القوانين الاستثنائية الخاصة بالانقاذ العام التى طرحها حزب الجبل ٠

وفى ٣ ابريل ١٧٩٣ بدأ روبسبيير الهجوم المركز على الجيروند فى المؤتمر الوطنى : « أنا أعلن أن أول اجراء يتخذ للانقاذ القومى هو اصدار قرار اتهام ضد كل المتواطئين مع ديموريز ، ولاسيما بريسو » ٠

وفى ٥ ابريل أصدر اليعاقبة تحت رياسة مارا منشورا الى فروع ناديهم مطالبين باسقاط العضوية عن أعضاء المؤتمر الوطنى من أصحاب النداء الى الشعب الفرنسى لانقاذ الملك من الاعدام ، مع تجريدهم من أملاكهم ٠ وبعد مناقشة عنيفة قرر المؤتمر الوطنى تقديم مارا لمحكمة الثورة بأغلبية ٢٢٦ صوتا ضد ٩٣ وامتناع ٤٧ من التصويت ، لأنه وقع هذا المنشور بوصفه رئيسا لنادى اليعاقبة وليس بوصفه عضوا هاما لكتلة برلمانية ٠ فتقدم للمحاكمة بوصفه « رسول الحرية وشهيدها » ، وبرأته محكمة الثورة فى ٢٤ ابريل ١٧٩٣ ، فانتصر انتصارا مبينا ٠ فمنذ ١٥ ابريل قدم ٣٥ قسما من ٤٨ قسما من أقسام باريس عريضة للمؤتمر الوطنى تهدد باتخاذ اجراءات حاسمة مع أهم ٢٢ عضوا من قيادات الجيروند ٠

ومن العبث أن نبحث فى قضية مارا أمام محكمة الثورة عن ضمانات للعدالة بالمعنى القانونى ، فالقضية من أساسها قضية سياسية وقد كان واضحا منذ البداية أن محكمة الثورة كانت تحس بضغط الشارع السياسى الباريسى أى بضغط « الصان كيلوت » .

وفى ١٧ مايو ١٧٩٣ هاجم حزب الجيروند فى المؤتمر الوطنى قلعة حزب الجبل وهى كوميون باريس وسموه « السلطة الفوضوية » ، فشكلوا لجنة من اثنى عشر عضوا كلهم من الجيروند .. وقررت اللجنة فى ٢٤ مايو القبض على هيبير Hébert صاحب جريدة « الأب دوشين » Le Père Duchesne أشهر جريدة ثورية فى تاريخ الثورة الفرنسية ولسان حال الصان كيوت ، بسبب مقال كتبه فى العدد ٢٤٩ اتهم فيه زعماء الجيروند بالتآمر لاعادة الملكية والفتك بزعماء حزب الجبل واليعاقبة وكوميون باريس الذى كانت جريدة « الأب دوشين » لسان حاله وكان سيبير محاميه .

وطالب كوميون باريس بالأفراج عن هيبير ، ودعا روبسبيير للثورة . وفى ٢ يونيو ١٧٩٣ أحاط الحرس الوطنى « ٨٠٫٠٠٠ جندى » ، بقيادة هنريو Henriot بالمؤتمر الوطنى الذى كان منعقدا برياسة هيرو دى سيشيل Herault de Séchelles وحاول مجموع الأعضاء كسر الحصار والخروج من القاعة ، وهنا صاح هنريو فى رجاله : « يا رجال المدفعية ! الى مدافعكم ! » فعاد أعضاء المؤتمر الوطنى الى مجلسهم ، ووافقوا على اعتقال ٢٩ نائبا من زعماء الجيروند ومعهم وزيران .

وهكذا انتهت المبارزة بين الجيروند وحزب الجبل التى بدأت فى الجمعية التشريعية ..

١٤ ـ الحرب والحرب الأهلية

فى ٢٦ ابريل ١٧٩٢ أنشد روجيه دى ليل Roger de Lisle نشيد الحرب لجيش الراين المعروف بالمارسيليز La Marseillaise أى نشيد أبناء مارسيليا ، وهو من تأليفه وسرعان ما أصبح هذا النشيد الملتهب بالحماس الوطنى وبالحماس الثورى نشيد الحرب والثورة لكل المحاربين والثوار الفرنسيين داخل فرنسا وخارج فرنسا .

وفى ربيع ١٧٩٢ كانت الثورية والوطنية كلمتين مترادفتين بسبب خيانة الطبقة الارستقراطية التى اختلطت عليها مصالحها الطبقية بمصالح الوطن فتعاونت مع أعداء فرنسا لتسترد امتيازاتها الضائعة حتى أقطاب حزب الجيروند من المعتدلين بريسو وفيرنيو ورولان ، كانوا يعرفون ان البلاط الملكى يشجع ثورة الجنرالات على الثورة وفى ٢٣ مايو ١٧٩٢ ندوا باللجنة النمساوية التى

● نشرت بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٩/١٢/١٦ .

يديرها الملكة مارى أنطوانيت ونعد لانتصار أعداء فرنسا ولانتصار الثورة المضادة فيها ٠

وبتاثير بريسو وفيرنيو اتخذت الجمعية التشريعية طائفة من القرارات المتعاقبة كاجراءات وقائية ضد الثورة المضادة كان أهمها :

١ ـ قرار ٢٧ مايو ١٧٩٢ بابعاد القساوسة الذين رفضوا أداء يمين الولاء للدستور المدنى أى بتبعيتهم لدولة فرنسا بشهادة عشرين مواطنا من أقاليمهم ٠

٢ ـ قرار ٢٩ مايو بحل الحرس الملكى الذى كان مليئـــا بالضباط الملكيين ٠

٣ ـ قرار ٨ يونيو بانشاء معسكر من ٢٠٫٠٠٠ من الحرس الوطنى فى باريس للاشتراك فى قمع أى تحرك للثورة المضادة وقد رفض الملك التصديق على هذه القرارات الثلاثة ٠

وفى ١٠ يونيو ١٧٩٢ وجه رولان ، رئيس الوزراء ، انذارا الملك بضرورة التصديق على هذه القرارات خشية أن يظن الناس انه يؤيد بقلبه النبلاء المهاجرين للقتال مع الأعداء . فأقال الملك الوزراء الجيروند من الوزارة فى ١٣ يونيو . واستقال الجنرال ديموريز Dumouriez وزير الحربية فى ١٥ يونيو وســـافر ليتسلم القيادة فى جيش الشمال خشية ان يقال انه كان ضالعا فى أزمة الجيروند . وعاد الفوليان Feuillants حزب لافاييت الى الحـكم وهم من دعاة الملكية الدستورية وفى ١٨ يونيو أعلن لافاييت ان الدستور الفرنسى يتهدده المتحزبون فى الداخل والأعداء فى الخارج ٠

وطالب الجمعية التشريعية بان تبطش بالیعاقبة وكان واضحا ان الملك يعد برنامجا سياسيا وفق نصح أخ لامت Lameth بتصفية

اليعاقبة والديمقراطيين عامة وتعديل دستور ١٧٩١ بما يقوى سلطات الملك وانهاء الحرب بعقد صفقة مع الأعداء ٠

وتكونت جبهة من اليعاقبة والجيروند وقادت مظاهرة شعبية فى ٢٠ يونيو ١٧٩٢ بقيادة سانتير Santerre أحد أبطال الباستيل للاحتجاج على سلبية الجيش وعلى عدم التصديق على قرارات مايو ١٧٩٢ وعلى اقالة وزارة الجيروند ٠ وتجمهر الشعب أمام الجمعية التشريعية واقتحم قصر التويلرى فلبس الملك الطاقية الحمراء رمز الصان كيلوت ، وشرب نخب الأمة ولكنه رفض التصديق على القرارات أو استدعاء الوزراء الجيروند ٠

وفى ١١ يوليو ١٧٩٢ أعلنت الجمعية التشريعية ان الوطن فى خطر ودعت المواطنين للتطوع وحمل السلاح ونددت بخيانة الملك ووزرائه ٠ واستقالت وزارة الفوليان ٠ وأراد الجيروند استرداد السلطة فدخلوا فى مفاوضات سرية مع القصر انتهت بأن بريسو اعلن فى ٢٦ يوليو انه ضد التصويت العام الذى كان يطالب به روبسبيير واليعاقبه وانه ضد خلع الملك ، رغم ان ٤٧ من ٤٨ قسما من أقسام باريس أعلنت خلع الملك ٠

وكان الملك والنبلاء يدفعون ببلادهم الى الحرب بأمل أن يهزم الجيش الفرنسى أمام بروسيا والنمسا وتعاد الملكية المطلقة والنظام الاقطاعى بالتدخل الأجنبى وفى نفس الوقت كان الملك يرسل الى الأعداء خطط الجيش الفرنسى وفى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ خلع الملك وأرسل مخفورا الى السجن ٠

وفى ٢ سبتمبر سقطت فردان فى أيدى البروسيين واغتال الملكيون قائد المتطوعين الثورى وفى ٨ سبتمبر اقترب البروسيون من غابة الأرجون Argonne ولكنهم اشتبكوا فى كل مكان مع جيوش ديموريز ٠ وفى ١٢ سبتمبر وصل النمساويون فانسحب

ديموربيز جنوبا تاركا طريق باريس مفتوحا • ولكن فى ١٩ سبتمبر وصل كيلرمان Kellermann قائد حامية ميتز Metz ، وانضم الى ديموربيز فأصبح التفوق العددى للفرنسيين • (٥٠٫٠٠٠ جندى مقابل ٣٤٫٠٠٠ جندى) •

لم تكن معركة فالمى Valmy التى صمد فيهـا الفرنسيون بقيادة ديموربيز فى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢ انتصارا استراتيجيا بل كانت مبارزة بالمدفعية دامت طوال النهار حتى السادسة مساء تحت الأمطار الغزيرة التى ظلت تنهمر أياما •

رفع كيلر مان قبعته فوق سيفه وهتف « عاشت الأمة » ، وتقدم الهجوم فاندفعت وراءه قوات الصان كيلوت وتقهقر الجيش البروسي مهزوما تحت المطر ووسط الأوحال يناوشه فلاحو اللورين وفلاحو اقليم شمبانيا الذين كانوا يطاردون الغزاة وجيش النبلاء المهاجرين المؤيدين لهم • وتعقب ديموربيز الجيش البروسى ولكن فى بطء شديد ، ولم يحاول سحقه مستغلا متاعبه • كلا لم تكن فالمى انتصارا استراتيجيا وانما كانت انتصارا معنويا ، فمن بعدها تحررت فيردان Verdun فى ٨ أكتوبر ثم لونجوى Longwy فى ٢٢ أكتوبر •

وكان جوته Goethe يتـــابع معركة فالمى عن كثب ، فقال لايكرمان : Eckermann : « من اليوم ومن هذا المكان يبدأ عهد جديد فى تاريخ العالم » لقد كان جوته كعامة شباب جيله متعاطفا مع الثورة الفرنسية •

ومنذ انتصـــار ديموربيز فى فالمى وجاماب Jemmappes وجدت الجيوش الفرنسية نفسها تحتل السافوا Savoie بقيادة مونتسكيو Montesquieu (٢٩ سبتمبر ١٧٩٢) ونيس بقيادة الجنرال انسيلم Anselme (٢٩ سبتمبر ١٧٩٢) ونهر الراين

بقيادة الجنرال كوستين Custine وشبير Soire فى ٢٥ سبتمبر وويرمز Worms فى ٥ أكتوبر ومايانس Mayence فى ٢١ أكتوبر وبعد يومين فرانكفورت Frankfurt،) وبعد فالمى رفع النمساويون الحصار عن ليل Lille فى ٥ أكتوبر فدخلها ديمورييز ثم دخل بلجيكا على رأس ٤٠٫٠٠٠ مقاتل وكان أكبر انتصار له فى جاماب فى ٦ نوفمبر واخلى البلجيكيون بروكسل Bruxelles فى ١٤ نوفمبر وانفرس Anvers فى ٣٠ نوفمبر باختصار وجدت فرنسا نفسهـا تحتل الألب والراين وبلجيكا وهنا ظهرت نظرية دانتون : ان حدود فرنسا السياسية هى حدود الجغرافيا الطبيعية : المحيط الأطلسى غربا ونهر الراين وجبال الألب شرقا وجبال البرانس والمتوسط جنوبا وبحر المانش شمالا ٠

وطلبت البلاد المفتوحة (نيس والسافوا والراين) من المؤتمر الوطنى الذى حل محل الجمعية التشريعية يوم انتصار فلمى بالذات (٢٠ سبتمبر ١٧٩٢) الانضمام الى فرنسا فوضعت هذه البلاد المؤتمر الوطنى أمام مشكلة كبرى هى : الحرب مكلفة ، فكيف تمول الحرب : هل هى حرب غزو أم حرب تحرير ؟ وجاءت الاجابة فى ١٩ نوفمبر ١٧٩٢ من المؤتمر الوطنى الذى أعلن : « ان المؤتمر الوطنى يعلن باسم الأمة الفرنسية انه سوف يقدم الاخاء والمعونة لكل الشعوب الراغبة فى استرداد حريتها ٠

وتوالت الاقتراحات : اقترح بيسنو فى ٢١ نوفمبر ١٧٩٢ انشـاء حزام من الجمهوريات حول فرنسا لأنه لا هدوء مع بقـاء البوربون ٠ وبشر الأب جريجوار بأوربا بلا قلاع ولا حدود ٠ ودرجة درجة تكشفت الحقيقة ، وهى ان فرنسـا لا تستطيع أن تدفع بمفردهـا فاتورة تحرير جيرانهـا من الملكية المطلقة ومن النظام الاقطاعى اللذين كانا سائدين فى كل أوربا خارج فرنسا وانجلترا تكشفت الحقيقة العارية هى أن التحرير هو الاسم الآخر للتوسع ٠

وفى ١٠ ديسمبر ١٧٩٢ قال كامبون Cambon عضو اللجنة المالية فى المؤتمر الوطنى للمؤتمر كلما تقدمنا فى بلاد الأعداء جرت الحرب علينا الخراب ولاسيما بمبادئنا وسخائنا ... يقولون بلا انقطاع اننا نحمل الحرية لجيراننا . ولكننا نحمل أيضا تموينا وغذاءنا فهم لا يقبلون عملتنا الورقية ! » .

وفى ١٥ ديسمبر ١٧٩٢ أصدر المؤتمر الوطنى بناء على طلب كامبون قرارا بتأسيس ادارة ثورية فى البلاد المفتوحة تضع أملاك رجال الدين وأعداء النظام الجديد تحت الحراسة كضمان للعملة الورقية ، مع الغاء « العشور » التى كانت الكنيسة تجبيها من المؤمنين والغاء الحقوق الاقطاعية واستبدالها بضريبة جديدة على الأغنياء أصبح الشعار الجديد : « الحرب على القصور والسلام للأكواخ ! » .

وهكذا أصبح « الضم » هى السياسة الوحيدة المؤمونة لمنع الثورة المضادة وفى ٢٧ نوفمبر ١٧٩٢ ، وافق المؤتمر الوطنى بناء على تقرير من الأب جريجوار على ضم اقليم السافوا الى فرنسا باجماع الأصوات الا صوتا واحدا . وفى بلجيكا تم التصويت على الانضمام الى فرنسا بلدا بلدا ومقاطعة مقاطعة خلال مارس ١٧٩٣ ، وفى ١٧ مارس ١٧٩٣ عقد اجتماع مايانس Mayence تقرر فيه انضمام حوض الراين وصدق المؤتمر الوطنى على هذا القرار . وفى ٢٣ مارس انضمت اسقفية بازل Bâle بدورها .

وعند اعدام الملك لويس السادس عشر فى ٢٠ يناير ١٧٩٣ اعلن الحداد فى البلاط الانجليزى وفى أول فبراير ١٧٩٣ بناء على تقرير من بريسو أعلن المؤتمر الوطنى الحرب على انجلترا وهولندا فى وقت واحد وقد سبب سقوط انفيرس فى أيدى الفرنسيين انزعاجا شديدا فى « السيتى » City حى المال بلندن ، وكان وليم بت William Pitt رئيس وزراء انجلترا هو المعبر الطبيعى

عن مصالح « السيتى وكان التجار الفرنسيون يعتمدون فى النقل البحرى على المراكب الانجليزية فى المقـــام الأول مما آثار حفيظة الفرنسيين ولذا كانت الحرب بين فرنسا وانجلترا حربا بين أمتين لا حربا بين حكومتين ·

وبالمثل فقد آثار اعدام لويس الســادس عشر ثائرة البلاط الأسبانى الشديد التمسك بالكاثوليكية فرفض ملك أسبانيا استقبال القائم الفرنسى بالأعمال وعدت فرنسا ذلك اهانة فسحبته وأعلنت الحرب على أسبانيا فى ٧ مارس ١٧٩٣ · ثم قطعت صلتها بالبابا وأعلنت الحرب على ملوك ايطاليا (ملوك نابولى وتوسكانيا والبندقية) · وبين مارس وسبتمبر ١٧٩٣ عقدت انجلترا سلسلة من المعاهدات الثنائية مع كل أعداء فرنســا أى مع كل دول أوروبا فيمـا عدا اسكنديناوة وسويسرا · وهكذا ظهرت التحالفات الاولى منذ فبراير ـ مارس ١٧٩٣ ، وكانت انجلترا بمنزلة القلب ·

وكان ديمورييز ضابطا محترفا من فقراء النبلاء اشترك فى حرب السنوات السبع وبلغ فيها رتبة كابتن ثم عين ملحقا فى مدريد ثم عين عميلا سريا للملك لويس الخامس عشر فى بولنـدا والسويد · وكان خرب الذمة يسمح للموردين أن يسرقوا الجيش ولذا كان عدد الجنود الفرنسيين فى ميدان القتال يتناقص لســوء التغذية وسوء الملابس وكان الجنود يتعاقدون على القتال بالمعارك فما ان تنتهى المعركة حتى يتركوا القتال بموجب حقهم القانونى · وهكذا انخفض عـدد القوات المسلحة من ٤٠٠ر٠٠٠ فى ديسمبر ١٧٩٢ الى ٢٤٠ر٠٠٠ فى فبراير ١٧٩٣ ·

وكان هناك نوعان من الجنود : النظاميون والمتطوعون وكان الجنود المتطوعون يلبسون حللا زرقاء وينتخبون ضباطهم وكانت رواتبهم أعلى من رواتب الجنود النظاميين رغم انهم كانوا أقل تدريبا

وانضباطا منهم ، كما انهم كانوا يتعاقدون بالمعارك • أما الجنود النظاميون فكانوا يلبسون بنطلونات بيضاء ، وكان ضباطهم مفروضين عليهم كما أن خدمتهم العسكرية كانت لمدد اطول • وكانوا يحتقرون المتطوعين ويحسدونهم فى آن واحد •

وفى ٢١ فبراير ١٧٩٣ أصدر المؤتمر الوطنى قانون الادماج لوضع حد لهذه الازدواجية فى القوات المسلحة وعرف بقانون ديبوا كرانسيه Dubois-Crancé • وبموجبه تقرر أن تدمج أورطتان من المتطوعين فى أورطة واحدة من الجيش النظامى ، وكان القصد من هذا الادماج أن يعطى الجنود المتطوعون المسيسون حسهم المدنى والثورى وحماسهم الايديولوجى للجنود النظاميين ، بينما يعطى الجنود النظاميون حرفيتهم وخبرتهم واحترامهم للنظام للجنود المتطوعين • وأخذ بمبدأ اختيار الجنود لضباطهم باستثناء الثلث الذى يبقى بالأقدمية •

وكان الجيروند يعارضون قانون الادماج ، ومع ذلك فقد حالت الضرورات العسكرية دون تطبيق الادماج حتى شتاء ١٧٩٣ — ١٧٩٤ ولكن منذ صيف ١٧٩٣ توحد الزى والراتب وتوحدت اللوائح وفى المؤتمر الوطنى كان سان جوست Saint-Just أكبر داعية لقانون الادماج قال : « ان وحدة الجمهورية تحتم وحدة الجيش • ليس للوطن الا قلب واحد •

وفى ٢٤ فبراير ١٧٩٣ صدر قانون بتجنيد ٣٠٠٫٠٠٠ جندى موزعين على الاقاليم ولكن حصيلة هذا التجنيد لم تتجاوز نصف هذا العدد بكثير •

وفى فبراير ١٧٩٣ بدأ هجوم ديمورييز الفاشل على هولندا بعد ان اعتمدت خطته رغم وضوح تخلف القوات الفرنسية •

وفى ١٦ فبراير ١٧٩٣ تقدم ديموربيز من الفرس ودخل هولندا على رأس ٢٠٫٠٠٠ مقاتل واستولى على بريدا Bréda فى ٢٥ فبراير ٠ ولكن فى أول مارس ١٧٩٣ هجم الجنرال كوبورج Cobourg القائد الأعلى للجيش النمساوى على الجيش الفرنسى المرابط فى بلجيكا وشتته فكانت كارثة وأخليت اكس لاشابل Aix-la-Chapellê فى ٢ مارس ثم أخليت ليبيج Liège فى فوضى شديدة ٠

وفى باريس تصاعدت حمى الوطنية وبدأت اجراءات الانقاذ القومى ودمرت مطابع صحف الجيروند : « لاكرونيك دى بارى » La Chronique de Paris و « لو باتريوت فرانسيه » Le Patriote Francais

وفى ١٠ مارس ١٧٩٣ أنشئت محكمة الثورة لمحاكمة عملاء الأعداء قال دانتون : « أنا لا أعرف الا الأعداء فلنسحق الأعداء ٠

وتبع هذا ضياع بلجيكا ٠ واستمر ديموربيز رغم هزيمته فى الزحف على روتردام بهولندا ، مما شكك فى نواياه ٠ ولكنه هزم هزيمة ساحقة فى معركة نيرويندن Neerwinden فى ١٨ مارس ١٧٩٣ ، وفى لوفان Louvain فى ٢١ مارس ٠ وهنا بدأ ديموربيز المفاوضات مع قاهره الجنرال كوبورج ، وكان مشروعه يقوم على اخلاء بلجيكا وحل المؤتمر الوطنى وتنصيب لويس السابع عشر ملكا دستوريا على فرنسا بعد اعادة دستور ١٧٩١ ٠

وأرسل المؤتمر الوطنى الى ديموربيز أربعة قوميسريين ومعهم وزير الحربية لعزله من قيادة الجيش فاعتقلهم وسلمهم الى النمساويين فى أول ابريل ١٧٩٣ وفى النهاية حاول ديموربيز الزحف بجيشه على باريس ، ولكن جيشه رفض ان يتبعه وفى ٥ ابريل هرب ديموربيز مع بعض رجاله الى خطوط النمساويين ، وكان من بينهم

لـويس فيليب • Louis Philippe بـن فيليب المســاواة Philippe Egalité تحت وابـل من رصــاص الأورطة الثالثة من المتطوعين •

وضاع الشاطىء الأيسر من نهر الراين نتيجة لضياع بلجيكا • وعند سـماع أبنـاء نيرويندن عبر الدوق برونسويك الراين فى ٢٥ مارس ورد جيش الجنرال كوستين الى الجنوب ، وشيير وحاصر البروسيون ماينس وانسحب كوستين الى لاندو Duandau DE

وهكذا عادت الحرب الى أرض فرنسا وعقد الحلفاء اجتماعا فى انفرس ولم يخفوا مراميهم من الحرب وحددوها بأنها :

١ ـ تشجيع الثورة المضادة •
٢ ـ الحصول على تعويضات اقليمية •

وفى باريس الهبت خيـانة ديموريير الصراع الحزبى واتهم الجيروند دانتون بالتواطوء مع ديموريير فقد أرسله المؤتمر الوطنى منذ بداية مارس فشاهد الكوارث التى حلت بالجيش الفرنسى ولكن دانتون وقف الى جانب ديموريير طويلا ، وحاول حتى ١٠ مارس أن يطمئن المؤتمر الوطنى بشأنه • وفى ٢٦ مارس فى الليلة السابقة على خيـانة ديموريير ، التقى ديموريير فى تورناى Tourna: بثلاث من اليعاقبة من أعوان دانتون ليسوا فوق مستوى الشبهات هم ديبويســون Dubuisson وبيريرا Pereira وبرولى Prog'ie

وفى أول ابـريل قلب دانتـون الموائـد فى المؤتمـر الوطنى بمنتهى الجرأة على حزب الجيروند بان وجه اليهم نفس الاتهام وسط تصفيق حزب الجبل وقد عجلت خيانة ديموريير بسقوط الجيروند : Vendée

ووسـط كل هـذه الهزائم والخيـانات اندلعت ثورة الفانديه

وبردو Bordeax واشــتعلت الثورة المضــادة فى ليون Lyon واستسلم ميناء طولــون Toulon على البحر المتوسط للانجليز ٠ والفانديه اقليم مستطيل الشكل مساحته نحو ١٠و٠٠٠ كيلو متر مربع جنوب نهر اللوار Loire ويطل من الغرب على المحيط الأطلنى بين سان نازير Saint-Nazaire وسان جيل Saint-Giller شمال بوردو اما من الشرق فهو يمتد من سومير Saumur إلى بارتناى Parthenay وليس للفاندية سواحل على المانش ٠

ومن يقرأ كتاب حرب الابادة فى الفــانديه La genoci de Franco-Pranco بقلم رينــالد ســيكر . Reynald Secher يخرج بنتيجة رهيبة وهى أن حرب الفانديه هلك فيهــا ١٥٪ من سكان هذا الاقليم أى نحو ١١٧ر٠٠٠ نسمة من ٨١٥ر٠٠٠ نسمة أى أنها كانت حرب ابادة منظمة ، كما نخرج بنتيجة أخرى وهى ان الأمور لم تهدأ حقــا فى الفــانديه الا فى ١٧٩٩ أثناء قنصلية بونابرت ٠ ويلاحظ ان وحدة الفانديه جغرافيا تشمل أجزاء متصلة من ثلاث مقاطعات هى انجو Anjou وبريتانى Bretagne وبواتو Poitou وان بها ٧٠٠ ابروشية ٠

وقد أدت الهزائم والخيــانات العسكرية فى الشرق واشتعال الثورة المضادة فى الفانديه وليون الى انشاء لجنة الانقاذ القومى الذى أنشاها دانتون فى ابريل ١٧٩٣ ، وكذلك لجنة الأمن العام لمراقبة المشبوهين وتوجيه البوليس والعدالة الثورية ٠

وكتاب رينالد سيكر يوضــح فى الفصــل بعد الفصل دور الكنيسة فى قيادة الثورة المضادة فى الفانديه ، منذ ان أصدرت الجمعية التاسيسة الدستور المدنى لكنيسة فرنســا فى ١٢ يوليو ١٧٩٠ فصــلت الكنيســة الكاثوليكية الفرنســـية عن الكنيســة

الكاثوليكية الخاضعة لبابا روما والفاتيكان بوصفها كنيسة قومية وطنية ، وحظرت على أية كنيسة أو ابروشية فى فرنسا الاعتراف بسلطة أى أسقف أو كاردينال معين من دولة أجنبية وكذلك حظرت على أى مواطن فرنسى الاعتراف بسلطة أى رجل دين معين من الخارج ، سواء فى طقوس التعميد أو الزواج أو الوفاة أو اقامة القداس أو تناول الأسرار الالهية • كما أن حكومة الثورة صادرت أملاك الكنيسة والأديرة ورجال الدين وحولت جيش « الكهنوت » الى مجرد موظفين عموميين •

وقد أدى تبنى الكنيسة لموقف الملكيين والنبلاء الى كل هذا العنف فى تعامل الثورة الفرنسية مع رجال الدين ، فمنهم عدد كبير امتنع عن أداء يمين الولاء للدستور المدنى وتحدى قوانين الجمعية الوطنية والجمعية التأسيسة والجمعية التشريعيسة والمؤتمر الوطنى بشأن تنظيم شئون الكنيسة والكهنوت وبعد اعدام لويس السادس عشر نرى أحد الأساقفة فى الفانديه يشرب نخب لويس السابع عشر متجاهلا ان هناك ثورة فى البلاد •

١٥ ـ لويس السادس عشر

بعد ثورة « ١٠ أغسطس ١٧٩٢ الثورة على حق الفيتو Veto أى التى يصدرها البرلمان أو المجلس النيابى والكلمة لاتينية معناها حرفيا : « انى أعترض » قبض على الملك لويس السـادس عشر (١٧٥٢ ــ ١٧٩٣) والملكة مارى أنطوانيت (١٧٥٥ ــ ١٧٩٣) وأولادهما ومعهم الأميرة دى لامبال de Lamballe ومدام تورزيل de Tourzel ومدام اليزابيث ، أخت الملك ، وأرسلوا مخفورين الى سجن التامبل Temple فى قلب باريس ، تمهيدا لمحاكمتهم ، حيث اعتقلوا فى جناحين ببرج السـجن • وكان يصحبهم عمدة باريس ومعه ضابط ويحفهم موكب من مشاة الحرس الوطنى وهذا ما جعل الجماهير تسمى الملك والملكة مسيو ومدام فيتوى •

وكانت الجمعية التشريعيـة قد اقترحت ان تسـجن الأسرة المالكة فى قصر لوكسمبورج ولكن القرار تعدل بضغط من كوميون باريس •

● نشـرت بجـريدة الأهـرام بتاريخ ١٩٨٩/١٢/٢٣ •

وكانت العربة التي تحمل الأسرة المالكة من عربات القصر الملكي يجرها جوادان فقط . وتبعت العربة الملكية عربة أخرى تحمل ستة من الخدم صرح بهم كوميون باريس لخدمة الأسرة المالكة ومر الموكب ببطء . مخترقا شوارع باريس . وكان هناك إهتمام خاص بأن يمر الموكب ميدان فانـدوم Véndome لبرى لويس السادس عشر تمثال لويس الرابع عشر مهشما رمزا للطغيان المهشم . وفي نحو الساعة السابعة مساء بلغ الموكب سجن التامبل وكانت المفاجأة ان لويس السادس عشر وجد ان مكتبة السجن تحتوى على نحو ١٥٠٠ كتاب .

ثم انتقلت مدام لامبال ومدام تورزيل الى سجن لافورس La Force ، ثم سحبوا الخدم ولم يتركوا الا خادما واحدا وعندما وصل لويس السادس عشر الى سجن التامبل نزعوا سيفه . وفي ١١ ديسمبر اقتيد الملك ليحاكم أمام المؤتمر الوطني الذى حل محل الجمعية التشريعية .

وأعلن رولان رئيس الوزراء انهم عثروا في قصر التويلرى على وثائق تدين الملك في ١٤ تهمة مختلفة هي كالآتي :

١ ـ اطلاق الفرقة الأجنبية على الشعب الباريسي لاخماد ياحتجاجا على ما جرى في مذبحة نانسي .

٢ ـ سفك دماء الجماهير الفرنسية فيما تلا ذلك من انتفاضات ومظاهرات شعبية ولا سيما في مذبحة ميدان الشان دى مارس احتجاجا على ما جرى في مذبحة نانسي .

٣ ـ مراسلاته مع ميرابو التي اشترى فيها ذمة ميرابو ليضمن نص الدستور على حق الاعتراض الملكي على القوانين التي تصدرها الجمعية التشريعية وعلى حق الملك في اعلان الحرب والسلم .

٤ ـ مخططه لشراء ذمم زعماء الثوار على نطاق واسع ٠

٥ ـ مراسلاته مع النبلاء المهاجرين وفيها ما يدينه بالتجمع خارج فرنسا والقيام بعمليات عسكرية لغزو فرنسا بالتعاون مع الدول الأجنبية ٠

٦ ـ مفاوضاته السرية مع امبراطور النمسا وملك بروسيا لاستعدائهما على فرنسا ٠

٧ ـ تواطؤه مع الجنرال بوييه Bouillé لترتيب مذبحة نانسى ٠

٨ ـ حنثه بالقسم الفيدرالى ٠

٩ ـ تآمره مع عصابة « فرسان الخنجر » للتخلص من زعماء الثورة ٠

١٠ ـ دفاعه عن القصر الملكى بالفرق الأجنبية ٠

١١ ـ خيانته التى تسببت في هزيمة لونجوى وفردان ٠

١٢ ـ حمايته لرجال الدين المتمردين على الدولة برفضه التصديق على قانون ابعاد من يرفض منهم أداء يمين الولاء لدستور الكنيسة المدنى ٠

١٣ ـ هربه الى فارين ليحتمى بمعسكر الأعداء ٠

١٤ ـ بيانه الذى تركه يوم فراره الى فارين وفيه يعلن تمسكه بالحكم المطلق ٠ وبالنظام القديم ٠

هذا « الابلاغ » الذى قدمه رولان ، رئيس الوزراء ، للمؤتمر الوطنى بناء على « ابلاغ » من « كوالينى » قصر التويلرى فى ٢٠ نوفمبر ١٧٩٢ بأن الملك أمره ببناء دولاب حديدى ليضع فيه أوراقه السرية وقد قدم رولان للمؤتمر الوطنى ٧٠٠ وثيقة من الدولاب الحديدى ، ثم قدم ١٥٠ وثيقة جديدة ٠ وقد قيل يومئذ ان رولان

أخفى من المراسلات ما يدين أصدقاءه ورجال حزبه ، حزب الجيروند .

وعرض المؤتمر الوطنى على لويس السادس عشر اختيار محامين يتولون الدفاع عنه أثناء محاكمته . فتطوع الفقيه الكبير مالزرب Malesherbes وترونشيه Tronchet والمحامى الضليع سيز Sèze للدفاع عنه وفى أثناء استجوابه .

وعندما ووجه الملك بالتهم أنكرها جميعا وعندما ووجه بالوثائق التى تدينه أنكر نسبتها اليه . ولكن المحامين اطلعوه بصراحة على حرج موقفه ، ولاسيما ازاء الأدلة الخطية فادرك الملك ان النهاية قد اقتربت . وبدت عليه السلبية بالنسبة للاتهامات الموجهة اليه ، فكان يصلى طوال الوقت ، وطلب الملك قسيسا من القساوسة المتمردين على دستور الكنيسة المدنى ليعينه على اجتياز الباب الضيق وليعترف على يديه ويتناول الأسرار الالهية على عادة المسيحيين ، فهربوا له الأب دى فيرمون de Firmon على انه مساعد للمحامين . وفى يوم ٢٦ ديسمبر ١٧٩٢ استدعى لويس السادس عشر أمام المؤتمر الوطنى مرة ثانية وأخيرة لسماع المرافعات والادلاء بدفاعه الشخصى . وكان المترافع هو سيز الذى بنى مرافعته على نقطة دستورية هامة هى مبدأ « عصمة الملك » أو ان ذات الملك مصونة لا تمس .. وكان دفاع الملك عن نفسه موجزا .

قال سيز :

« أيها المواطنون ، انى أتكلم هنا بصراحة رجل حر : انى أبحث بينكم عن قضاة فلا اجد بينكم الا موجهين للاتهام ! .. فلويس اذن هو الفرنسى الوحيد الذى لا يوجد له اى قانون أو اى شكليات ! فهو اذن محروم من كل حقوق المواطن ومن كل حقوق الملك السيادية ! » .

أما دفاع الملك عن نفسه فهو انه لا يحس بتأنيب الضمير لشيء مما نسب اليه ، وانه لم يكن يتصور بتاتا ان تصرفاته يمكن أن تكون موضع مساءلة عامة ، وان أشد ما آلمه فيما سمع هو تحميله المسئولية عن سفك دماء الشعب ، لأن حبه لشعبه كثيرا ما عرضه للمخاطر فى محاولاته لحقن الدماء ..

بعد هذا اقتيد الملك الى سجن التامبل حيث أقام حتى خرج الى المقصلة صباح ٢١ يناير ١٧٩٣ . وفى هذه الأثناء جرت محاولات لانقاذ لويس السادس عشر من الاعدام من جانب الجيروند ، ولكنها أحبطت جميعا بسبب حماس حزب الجبل وكوميون باريس والجماهير العريضة فى طلب رأسه وكان الملك متماسكا وهو يصعد الى المقصلة . وكانت آخر كلماته : « أيها الشعب ! انني أموت بريئا ! أغتفر للذين كانوا السبب فى موتى ! وأنا أصلى لله الا يسقط دمى على رأس فرنسا ! » هكذا قال بعض كتاب السير . (ايفلين ليفيه Evelyne Lever : لويس السادس عشر » طبعة فايار ١٩٨٥ .

كل المؤرخين متفقون على ان مارى أنطوانيت بما عرف عنها من طيش هى التى ساعدت على تحطيم عرش البوربون . ولم أجد من يدافع عنها دفاعا حارا من كتاب السير الا ستيفان زيفايج Stefan Zvieg فى كتابه « مارى أنطوانيت » (١٩٣٣) . وقد دعاه هذا الى اعطائنا ما يمكن ان نسميه « التفسير الجنسى للتاريخ » مما كبده الغوص فى مراسلات السفراء مع ملوكهم والملكات مع بناتهن ورجال البلاط مع رجال البلاط .

ومنه تعرف ان عجز الملك الجنسى فى السنوات السبع الأولى من زواجه هو المسئول عن العقد النفسية التى أصيبت بها مارى أنطوانيت من ميلها الى السحاق وكثرة ميلها الى حياة اللهو واتخاذ العشاق فى السر والعلن مما آثار عليها رجال البلاط وسيداته حتى قبل أن يثير عليها الشعب الفرنسى ، فقد ظل لويس السادس

عشر غير قادر على الانتصاب الكامل سبع سنوات من عام زواجه في ١٧٧٠ ، وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره اذ كان لا يزال ولي عهد لويس الخامس عشر ، حتى أجرى العملية الجراحية اللازمة في ١٧٧٧ بضغط من حماته امبراطورة النمسا ماريا تيريزا سليلة آل هايسبورج ٠

وقد ردت اليه هذه العملية رجولته فاستطاع أن يفض بكارة الملكة الشابة مارى أنطوانيت التى ظلت عذراء حتى سن الثانية والعشرين بحسب ما روى ستيفان تزفايج ، وان يزاول كافة واجبات الزوجية ، ومنها الانجاب طبعا ٠ ولكن ذلك لم يتم الا بعد ان خرب العجز الجنسى علاقته بزوجته وملأه بالعقد النفسية ، ففقد السيطرة عليها وفقد الثقة فى نفسه ، واصبح كثير التردد غير قادر على اتخاذ قرار حاسم ٠

وقد ساعد على ذلك ان حياة الملوك الخاصة ليست ملكا لهم وحدهم ولكن لشعوبهم أيضا ٠ وقد كان عجز الملك الجنسى موضع لغط البلاط ، ولاسيما أقرباؤه الأدنون الطامعون فى العرش ، مثل الدوق دورليان (فيليب المساواة) ، ومثل أخيه الصغير الكونت دى بروفانس ومثل أخيه الأصغر الكونت دارتوا ، الذين ما ان ارتقى **لويس السادس عشر عرش فرنسا فى ١٧٧٤ بعد وفاة ابيه لويس الخامس عشر** حتى بدأوا يرقبون ميلاد ولى العهد المعروف فى فرنسا بلقب الدوفان Dauphin ، فلما تأخرت ولادته بدأوا يروجون الأخبار عن عجز الملك الجنسى لعل وعسى ان تنتقل ولاية العهد الى اسباطهم بل بدأوا يروجون الأخبار عن سوء سلوك الملكة مارى أنطوانيت ٠

وكان لويس السادس عشر يحب زوجته الشابة ويمقت خفتها واقبالها على اللهو ، ويمقت من تخالطهم من رجال البلاط ونسائه ،

ويلتمس تسليته الخاصة فى الصيد والقنص لأنه كان فاتر الحماس للنساء . وكان ذا بنية قوية جدا ولكن ميله الى البدانة اصابه بالرخامة أو على حد وصف ستيفن زيفايج كانما الذى يجرى فى عروقه رصاص لا دماء . وكان يلاحظ نظرات التهكم فى عيون حاشيته وحاشية الملكة فيتألم ولا يقول شيئا وربما جاءت الى مسامعه بعض العبارات أو الأشعار التى كانت تنظم فيه وفيها فيكظم غيظه . ومع ذلك فقد كان دائما رقيق الحاشية مع زوجته يلومها على اسرافها ولا يقرعها بل يدفع ديونها . وكانت سريعة الدموع إذا بكت فى أحضانه انحاز الى جانبها أو غفر لها ، حتى بدا خاضعا لها . وراض نفسه على قبول عشيقها الضابط السويدى الكونت اكسيل فيرسن **Axel Fersen** فى البلاط الملكى كحقيقة مقررة طالما ان كل شىء كان يجرى مستورا . وكان به شغف خاص بالميكانيكا مما جعله خبيرا فى صناعة الساعات والأقفال ، وكانت له ورشة خاصة فى القصر الملكى ، وكان شديد التدين ..

ومع ذلك فكل هذا لا يحمل مارى أنطوانيت المسئولية عن مأساة هذا الملك ولا يجعلنا نأخذ بالتفسير الجنسى للتاريخ الذى قدمه لنا استيفان زيفايج . فقد عرف عن الملك لويس السادس عشر عناده الشديد الذى تجلى منذ يوم الباستيل وظهر فى احتقاره للطبقة الثالثة يوم ميثاق ملعب التنيس واعلان قيام الجمعية الوطنية مقام مجلس الطبقات والغاء النظام الاقطاعى واعلان حقوق الانسان والمواطن وقيام الجمعية التأسيسية بوضع دستور ١٧٩١ الذى كان أقرب شىء معروف لنظام الملكية المقيدة المعمول به فى انجلترا بل ونص فيه على تلقيب « ملك فرنسا » بـ « ملك الفرنسيين » على اعتبار ان فرنسا ليست ضيعة يتوارثها الملوك أبا عن جد وانما هم يحكمون بتفويض من الشعب مصدر كل سيادة . كذلك فان من دلائل عناد الملك رفضه التصديق على الدستور المدنى للكنيسة

والقوانين الصادرة بشأن النبلاء المهاجرين المحتمين بدول أجنبية ومصادرة أملاكهم اذا لم يعودوا خلال أجل معين ، ونفى رجال الدين الرافضين لأداء يمين الولاء لدستور الكنيسة المدنى الذى يجعل منها كنيسة قومية غير تابعة لروما ومؤسسة وطنية من مؤسسات الدولة ٠

انسمى هذا عنادا :

لا ٠ بل نسميه ايمانا راسخا وواضحا عند الملك بوظيفته الملكية ٠ وهى انه قائد للطبقة الارستقراطية لا فرق فى ذلك بين لويس السادس عشر وأسلافه من الملوك فى تاريخ الانسانية الطويل ٠

ولكن ربما تفرد لويس السادس عشر بخاصية واحدة ، هى عدم القدرة أو الرغبة فى المواجهة أو ما يسمونه الانحناء للعواصف ، وهو يضمر شيئا آخر ، كما فعل يوم لبس الكوكارد (شارة الثورة المثلثة الألوان) فى بلدية باريس ويوم لبس الطاقية الحمراء ، شارة « الصان كيلوت » فى قصر التويلرى وأيا كانت أسباب هذا التردد أو المخادعة ، كما كان يسميها رجال الثورة ، فقد تجسدت فى محاولته الفاشلة للهرب الى الحدود فى مغامرة فارين ٠

كذلك من العبث ان يقال أن مارى أنطوانيت هى التى أغرت لويس السادس عشر بمحاولة الهرب الى خطوط أعداء فرنسا فقد سبقهما الى ذلك الآلاف من النبلاء المهاجرين الذين ليس لهم من الأباطرة مثل مارى أنطوانيت ، سليلة آل هابسبورج ، ولا لهم عشاق مثلها كالكونت اكسيل فيرسن ، وانما كان دافعهم الى ذلك تمسكهم بالنظام الاقطاعى وبامتيازاتهم الطبقية الموروثة وأملهم فى استردادها عن طريق الخيانة الوطنية ٠

بعد هرب الملك واعادته الى باريس كان الموقف كالتالى اليعاقبة أصروا على محاكمة الملك واختيار وصى على العرش ، وانضم اليهم

الدوق دورليان (فيليب المســـاواة) . الكوردوليبيه رأوا اعلان الجمهورية . كان كوندورسيه وبريسو وتوماس بين من كانوا فى صـــالون مدام رولان يتحدثون عن اعـــلان الجمهورية وفى جانب اعلانهـــا .

بريسو كان قد زار أمريكا والتقى بواشنطون وفرانكلين وعاد يمجد الديمقراطية الأمريكية . سييزكان يهدىء الجو . فى ١٣ يوليو ١٧٩١ ، قدمت اللجنة المشـــكلة لبحث قضية « اختطاف » الملك تقريرا ، أعلنت فيه انه اختطف فعـــلا بترتيب من الجنرال بوييه وطالبت اللجنة بمحاكمة الجنرال . وأكد التقرير تمسك الفرنسيين بالنظام الملكى قائلا انه لا عبرة بالبيان الذى تركه لويس السادس عشر على مكتبه لعدم توقيع الوزراء على هذه الوثيقة . وبهذا فهى مجرد مسودة . وأعلن التقرير رأيه وهو ان « ذات الملك مصونة لا تمس » .

وهكذا خرج الملك من هـــذه المرحلة كالشعرة من العجين . وتكلم روبسبيير عن الجبن فى التصدى للشركاء الصـــغار واعفـــاء الفاعل الأصلى من المسئولية . وهاجم دانتون مبدأ عصمة الملك .

وكان رد الفعل لدى الجماهير عنيفا . وقرر الكوردلييه التجمع الجماهيرى فى ميدان الشان دى مارس لتأييد طلب بتيون Pétion من منصة الجمعية التشريعية خلع لويس السادس عشر باسم أقسام باريس وعقد مؤتمر وطنى منتخب بالتصويت العام . فرفض الطلب لعدم دستوريته ، فثارت ثائرة الأقسام بقيادة اليعاقبة ، وتسلح الحرس الوطنى خلال أيام . وتجمعت الجماهير فى الشان دى مارس لتوقيع العرائض بقصد تقديمها الى الجمعية التشريعية وكانت مذبحة الشان دى مارس .

وفى ٢٠ ابريل ١٧٩٢ جعل لويس السادس عشر الجمعيـــة

التشريعية تعلن الحرب على المجر وبوهيميا . وكان قد كتب سرا الى امبراطور النمسا والى ملك بروسيا والأمراء الألمان قائلا انه ينوى استرداد سلطته . وكتبت مارى أنطوانيت للكونت اكسيل فيرسن تعلن اغتباطها من ان الجيش الفرنسى مهاهل فى الرجال والعتاد .

وأقال الملك الوزراء الجيروند رولان Roland وسرفان Servan وكلافيير Clavière واستقال ديموريز Dumouriez وزير الحربية وسافر للجبهة لقيادة جيش الشمال وقد طرد الملك الوزراء الجيروند لأنهم نصحوه بالامتناع عن استعمال حق الفيتو بالنسبة لتجريد رجال الدين والنبلاء المهاجرين من أملاكهم اذا لم يخضعوا أو يعودوا فى أجل معلوم حتى لا يتهمه الشعب بالتعاطف مع الأعداء والمهاجرين . كان ذلك فى ١٣ يونيو ١٧٩٢ . وشكل وزارة من الفوليان أتباع لافاييت . كل ذلك والجماهير تهتف : « يسقط مسيو ومدام فيتو » .

وعرض الجيروند على لويس السادس عشر التنازل عن عرشه لصالح ابنه تحت وصاية رجل وطنى ومجلس وزراء من الجيروند . ورفض هذا الاقتراح .

وفى تقديرى ان نهاية لويس السادس عشر قد تقررت منذ هربه الى فارين وكل ما حدث بعد ذلك لم يكن الا تأجيلا للقدر المحتوم ، أو « حلاوة الروح » فقد جاء وقت فقد فيه الملك تأييد الجيروند المعتدلين أنفسهم ، ورغم ان فئة من هؤلاء ظهرت لتنقذه من حد المقصلة بالمناورات القانونية داخل المؤتمر الوطنى أو بعرائض « التسامح » Indulgence لتخفيف حكم الاعدام الى الاعدام مع وقف التنفيذ ، أو الى النفى المؤبد أو الى تعليق الحكم باعدام الملك حتى استفتاء الشعب الفرنسى فى الأقاليم فاخفقت كل هذه المساعى ومات الملك على المقصلة يوم ٢١ يناير ١٧٩٣ .

١٦ ـ ماري انطونيت

في ٧ يونيـــو ١٧٦٩ ، تلقت الامبراطـــورة ماريا تيريزا Maria-Theresa امبراطورة النمسا ، خطابا من لويس الخامس عشر ، ملك فرنسا ، يخطب فيه رسميا ابنتها الارشيدوقة ماري أنطوانيت Marie-Antoinete الى ابنه لويس السـادس عشر Louis XVI وكان عمرها يومئذ أربعة عشر عاما أما عمر العريس الفرنسي فكان يومئذ ١٦ سنة ، فقد كان يكبرها بعامين • وبالطبع كان هذا الزواج مرتبا من قبل بين العائلتين المالكتين •

وكانت الفتاة الصغيرة فتاة جميلة رشيقة التكوين ذات شعر ذهبي طويل ، وقد أهمل تعليمها فكانت بالكاد تقرأ وتكتب الألمانية « لغة بلادها » ، وكانت تتكلم بعض الايطالية ، أما فرنسيتها فكانت رديئة ، وكانت لا تعرف الا أوليات اللغة اللاتينية • وكان الموسيقار

● نشـــرت بجـــريدة الأهـــرام بتاريخ ١٩٨٩/١٢/٣٠ •

النمسوى جلوك Gluck يعلمهـا الموسيقى على آلة الكلافسان ، وكان لها أستاذ للرقص من باريس .

وفى عقد زواجها تنازلت مارى انطوانيت عن حقوقهـا فى أملاك أسرة هابسبورج ، ودفعت دوطة قدرها ٢٠٠٫٠٠٠ فلورين على أن تنتقل الى بلاط فرساى بمجوهرات لها نفس القيمة . ووعد لويس الخامس عشر بريع ٢٠٫٠٠٠ سكوتوم ذهبا Ecus وهى عملة اوروبية تساوى ستة أمثال هذا العدد بالجنيهات الفرنسية الذهبية ، كما وعد بمجوهرات قيمتها ١٠٠٫٠٠٠ سكوتوم ذهبا .

وكان الزواج بالتوكيل فى فيينا فى ١٩ ابريل ١٧٧٠ ، أى وهى فى الخامسة عشرة من عمرها . وانتقلت على الفور الى باريس وكانت أول مدينة فرنسـية استقبلت فيهـا هى استراسبورج ، ووجدت عريسها الفرنسى فى الثامنة عشرة من عمره . ...

وفى ٧ مايو ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر وتولى لويس السادس عشر عرش فرنسا .

وقد ارتبط اسم الملكة مارى انطوانيت باسم عشيقها الكونت السويدى اكسيل فيرسن Axel Fersen . والتقت به لأول مرة فى ١٧٧٤ فى « بال ماسكيه » ، رقص بالأقنعة بدار الأوبرا ، وكانت لا تزال ولية للعهد . وكان مجرد لقاء وجيز لاحظت فيه وسامته وقامته الفارعة . والتقت به ثانية بعد أربع سنوات عند عودته الى فرنسا فى ١٧٧٨ . وعند تقديمه للأسرة المالكة ، نسيت الملكة البروتوكول وصاحت : « آه ، هذا معرفة قديمة ! » وهكذا قربته من البلاط .

ولاحظت كل الحاشية ذلك ، حتى ان سفير السويد كرويتز Creutz اضطر الى ابلاغ ملكه جوستاف الثالث بما يجرى :

« يجب على أن أسر الى جلالتكم بأن الكونت الشـــاب دى فيرسن موضع قبول حسن عند الملكة ، مما ترك ظلالا عند الكثيرين • واعترف بأنى لم أستطع أن أمنع نفسى من الظن أنها تميل اليه • وقد شاهدت دلائل موثوقا بها تزيل كل شك عندى • وقد كان سلوك الكونت الشاب فى هذا المقام يدعو للاعجاب بسبب تواضعه وتحفظه ، ولاسيما بسبب الدور الذى أداه بسفره الى أمريكا ، فبالابتعاد أبعد عنه كل خطر ، ولكن واضح انه بحاجة الى صلابة أشد مما تسمح به سنه للتغلب على هذا الاغراء • ففى الأيام الأخيرة لم تستطع الملكة أن تحول بصرها عنه ، وكانت عيناها دائما مبللتين بالدموع وهى تشخص اليه • وأنا أرجو من جلالتكم أن تحفظوا هذا السر من أجلها ومن أجل والده السناتور فيرسن • وعندما عرف البلاط بأمر سفره اغتبط كل المقربين • قالت له الدوقة فيتز جيمس Fitz James : وماذا ؟ أهكذا يا سيدى تتخلى عن ثمرة انتصارك ؟ ، فأجاب : لو اننى أحرزت انتصارا لما تخليت عن ثمرته • انى أسافر حرا ، وللأسف دون أن يحزن أحد على سفرى » •

وعلى هذا فعلاقة فيرسن بمارى انطوانيت ، لا أقول علاقة الفراش ، تعود الى ما بين عام ١٧٧٨ وعام ١٧٨٠ ، حـين سافر أكسيل فيرسن الى أمريكا بوصـــفه ياورا للجنرال روشـــامبو Rochambeau غالبا ليتجنب مثل هذه العلاقة الخطرة • وفى ٢٢ أكتوبر ١٧٨١ ولدت مارى انطوانيت بنتا لقبت بالدوفينة ، أى « ولية العهد » • وواضـــح من التواريخ ان الدوفينة كانت بنت لويس السادس عشر حقا لأن تسـعة أشهر تكفى للحمل • وفى ١٧٨٢ عاد فيرسن من أمريكا •

وفى ١٧٨٣ عدل فيرسن عن مشروع زواجه من أنسة سويدية • وأرادت مارى انطوانيت استبقاء فيرسن فى بلاط فرساى • وسنحت الفرصة حين أراد الكونت دى سنبار De Sparre التنازل عن فيلقه

الأجنبى Le Royal Suédois فى فرساى مقابل ١٠٠ر٠٠٠ جنيه فرجا فيرسن أباه أن يقرضه هذا المبلغ · وتدخل ملك السويد جوستاف الثالث شخصيا لدى لويس السادس عشر ان يقبل فيرسن فى خدمة الجيش الفرنسى ، فاقتنع بذلك ، بل ومنح فيرسن هذا المبلغ وبالتالى خلصه من دينه ·

وفى ٧ يونيو ١٧٨٤ كان لويس السادس عشر يصطاد فى غابة رامبوييه Rambouillet وتسلم رسالة عاجلة تقول ان ملك السويد وصل فجأة الى فرساى ، فقد كان يجوب أوروبا تحت اسم مستعار ، فعاد لويس السادس عشر الى فرساى على وجه السرعة لاستقبال ضيفه · وقضيا ستة أسابيع فى القصف والسمر فى البلاط الفرنسى الذى كان يتقن هذه الأشياء ، من باليهات وأوبرات ومسرحيات ورقص · وتوجت مارى انطوانيت كل ذلك باحتفال كبير فى قصر التريانون Trianon وصفه كتاب السير بانه كان « ترنيمة للحب » ، أى لأكسيل فيرسن · وعاد جوستاف الثالث من بعدها الى استوكهولم ومعه فيرسن والحاشية · وقبل سفره قرر لويس السادس عشر لفيرسن بايعاز من مارى أنطوانيت معاشا سنويا قدره ٢٠ر٠٠٠ جنيه ، وهو معاش غير كاف للانفاق عن سعة فى بلاط فرساى ولكنه كاف للمعيشة الارستقراطية المقتصدة ، كاف لحفظ مركزه فى البلاط الفرنسى ·

وفى ٢٥ مارس ١٧٨٥ ، أى بعد تسعة شهور ، أنجبت مارى انطوانيت غلاما منحه لويس السادس عشر لقب دوق نورماندى ·· واشتبه بعض رجال البلاط فى أن المولود ابن فيرسن · وبعد عدة أسابيع من الولادة ، خرجت الملكة الى باريس ، وعند عودتها الى فرساى كان استقبالها فى برودة الجليد · وبكت الملكة فى أحضان زوجها قائلة : « لماذا ؟ ماذا فعلت لهم ؟ » ·

وأغدق لويس السادس عشر العطف على ماري أنطوانيت ، فاشترى لها قصرا في ضاحية سان كلو Saint-Cloud باسمها من الدوق دورليان بمبلغ ستة ملايين جنيه ، وهو شيء غير مألوف في تاريخ الملكية في فرنسا ، ان تكون للملكة ذمة مالية عقارية مستقلة عن الملك خارج ما ورثته عن آلها . وأثير الأمر باستنكار في البرلمان الفرنسي . وكان البارسيون يتفكهون « بالنمساوية » .. وفي هذه المرحلة كانت ماري انطوانيت تمثل دور روزين في كوميديا « حلاق اشبيلية » لبورمارشيه . وكانت تصل الى لويس السادس عشر منشورات تشهيرية بالملكة ، فكانت ماري انطوانيت تبكي وكان لويس السادس عشر يخفف عنها .

وكان جواهرجي التاج يدعى بوهمر Bohmer . وفي ١٧٨٥ اشترت ماري انطوانيت منه جواهر بغير علم زوجها : قرطا قيمته ٣٦٠٫٠٠٠ جنيه واسورة قيمتها ٨٠٠٫٠٠٠ جنيه ، فلما فاجأت الملك بديونها قام بسدادها . وكان بوهمر قبل ذلك بسنتين قد جمد أكثر رأسماله في صناعة عقد ثمين من الماس ثمنه ١٫٦٠٠٫٠٠٠ جنيه وقدم الفاتورة للملكة فأحرقتها ، واختفى بوهمر حين رأى مراقب عام مالية الحكومة في فرساي ، ولكنه ذهب الى المنزل الريفي لمدام كامبان Campan ليشرح لها حرج موقفه : انه سيفلس تماما اذا لم تسدد الملكة ثمن العقد فورا . واندهشت مدام كامبان ، ففي حدود علمها ان ماري انطوانيت لم تشتر مثل هذا العقد أبدا .

وأصر بوهمر على أن الملكة اشترت العقد عن طريق الكاردينال دي روهان Cardinal de Rohan La Motte-Valois حول موضوع العقد . قال الملك : أولا هذا ليس خط الملكة ، وثانيا ان الملوك يوقعون باسمهم الأول فقط ، وصاح الوزير بريتاي Breteuil : « اقبضوا على الكاردينال ! » قال الكاردينال مدافعا

عن نفسه : « اذن فقد كنت ضحية نصابين • اذن فسأدفع ثمن العقد من جيبى » •

وسيق الكاردينال الى الباستيل •

وكان بسطاء الناس يجلسون على حافة خنادق الباستيل ويغنون عن الكاردينال :

« أوليفا تقول انه ديك رومى

لاموت تقول انه نصاب ••

وهو شخصيا يقول انه ساذج ••

هللويا •• » •

« البابا جعل وجهه يحمر خجلا ، والملك والملكة سودا وجهه ، والبرلمان سوف يبيض وجهه • هللويا •• »

وبالفعل بيض البرلمان وجه الكاردينال روهان • وكان البرلمان اشبه شيء بمحكمة عليا مكونة من ٦٤ قاضيا ، وبعد الاستماع الى ظروف هذه القضية الغريبة ، صوت ٢٩ منهم فى جانب تبرئة الكاردينال و ١٩ فى جانب ادانته • أما مدام لاموت فالوا فحكم عليها حضوريا بالسجن المؤبد وبضربها ووشمها على ظهرها بالحديد المحمي، وحكم على زوجها غيابيا ــ فقد فر الزوج الى انجلترا ــ بالسجن المؤبد أيضا •• وحكم على الساحر كاليوستر و Cagliostro بوصفه شريكا لهما فى النصب وأخلى سبيل اوليفا Oliva التى لم يثبت عليها التواطؤ • وغضب الملك من حكم البرلمان فأمر الكاردينال بالاستقالة من منصبه وحدد اقامته فى ديره ، أما غضب الملك من حكم البرلمان بتبرئة الكاردينال دى روهان فلأنه رأى انه يتضمن ادانة للملكة مارى انطوانيت •

وحتى ابريل ١٧٨٧ كانت مارى أنطوانيت مشغولة فى اعداد غرفة مدفأة بجوار غرفتها فى القصر الملكى . ولم يعد فى امكان لويس السادس عشر تجاهل غرام الملكة بالكونت فيرسن . وفى ١٧٨٨ وجد رفقاء الملك فى الصيد الملك ينتحب على مجموعة من الخطابات التى تندد بالملكة الزانية .

وخارج مجموعة الزعماء السياسيين والشارع السياسى لم يكن هناك من يتحدث فى وثوق عن علاقة مارى أنطوانيت بالكونت اكسيل دى فيرسن الا ثلاثة : هم بونابرت الذى نجده فى ١٧٩٩ ، أى ست سنوات بعد اعدام الملكة ، يرفض التفاوض مع الكونت هانز اكسيل دى فيرسن لأنه معروف بمعتقداته الملكية وبأنه كان « ينام » مع ملكة فرنسا ، ثم تليران وزير خارجية فرنسا ، ثم الوزير سان بريست Saint-Priest الذى قال ان الملكة « عرفت كيف تجعل الملك يقبل علاقتها بالكونت فيرسن » كحقيقة مقررة . لقد كانت لفيرسن زيارات ليلية فى قصر التريانون وفى قصر سان كلو وفى قصر التويلرى . أما الأن فلا أحد من كتاب السيريشك فى ان مارى أنطوانيت كانت عشيقة اكسيل فيرسن فهناك خطاب بخط مارى أنطوانيت يخاطبه قائلا :

« الوداع ، يا أحب العاشقين وأحب المعشوقين » .

ماحقيقة قصة عقد الملكة ؟

بطلة هذه القصة امرأة مغامرة تدعى الكونتيسة جان دى لاموت فالوا Jeanne de la Motte-Valois كانت بنت نبيل مفلس وخادمة عاهرة . وكانت البنت وهى صغيرة تمشى فى الشوارع حافية القدمين وفى منتهى القذارة ، وتتغذى على البطاطس المسروقة من الحقول وتحرس البقر لقاء كسرة من الخبز . وبعد موت الأب

اشتغلت الأم بالدعارة والبنت بالتسول • وحين كانت فى السابعة كانت تمر بمحض الصدفة المركيزة دى بولا نفاليبيه Boulainvilliers فى مركبتها ، فسمعتها تقول : «حسنة لبنت يتيمة من عائلة فالوا Valois » فتوقفت المركيزة لتستطلع الخبر فعرفت المركيزة أن البنت بنت شرعية فعلا لنبيل سكير كان يشيع الرعب بين الفلاحين قبل وفاته اسمه جاك دى سان ريمى Jac ques de Saint-Rémy وكان الأب فعلا سليل اسرة فالوا الشهيرة ، اسرة لويس التاسع ملك فرنسا •

ورق قلب المركيزة لهذه البنت اليتيمة فربتها على نفقتها مع أختها الصغيرة ، حتى سن الرابعة عشرة • ثم أرسلتها لتتعلم الخياطة والغسيل والكى • واخيرا ادخلتها المركيزة ديرا لبنات النبلاء • ولكن جان الصغيرة لم يكن لديها استعداد لأن تكون راهبة ، فهربت من الدير وهى فى الثانية والعشرين من عمرها بتسلق سور الدير • وكانت فتاة جميلة ، فتزوجت من ضابط بوليس من نبلاء الدرجة الثانية اسمه نيكولاس دى لامونت Nicolas de Lamotte ولكن التسلق الاجتماعى كان فى طبعها ، فبحثت عن راعيتها الماركيزة بولانفيلييه التى استقبلتها فى قصر الكاردينال دى روهان de Rohan وعن طريقه حصلت لزوجها على ترقية الى رتبة « كابتن » مع سداد ديونه • وسمى الكابتن دى لاموت نفسه الكونت دى لاموت ، بذلك أصبحت زوجته جان الكونتيسة دى لاموت فالوا •

وأصبح الريف ضيقا عليهما فانتقلا الى باريس وفى باريس عاشا فى بذخ بالاستدانة من المرابين بدعوى أن للكونتيسة أملاكا مغتصبة أو مهملة تقدر بالملايين ورثتها عن اسرة فالوا ، وما عليهما الا أن تتقدم لبلاط فرساى لاثبات حقها القانونى فيها حتى تتكلم الوثائق والمستندات •

وبالفعل ذهبت الى فرساى وانتظرت فى صالون مدام اليزابيث، أخت الملك ، واصطنعت الاغماء ، فأعلن زوجها اسمها وقال بعين دامعة ان الجوع الذى كابدت منه سليلة فالوا سنوات طويلة هو سبب هذا الاغماء • فرفعوا معاشها من ٨٠٠ جنيه الى ١٥٠٠ جنيه سنويا • واصطنعت الاغماء مرة ثانية فى صالون الكونتيسة دارتوا ، ثم مرة ثالثة فى قاعة المرايا التى كان ينتظر ان تمر فيها الملكة • ولكن الملكة لسوء حظ الكونتيسة لاموت فالوا لاتسمع عن هذه الاغماءات •

وعاد الزوجان الى باريس ، وأخذا يرويان القصص العجيبة عن حفاوة الملكة مارى أنطوانيت بهما وعطفها عليهما بعد ان عرفت انهما من اقربائها ، وكذلك الكونتيسة دارتوا •

وجعل الطمع الكثيرين يقدمون لهما المال بأمل قضاء حاجاتهم فى البلاط • وأقامت دى لاموت فالوا فى حيها بباريس بلاطا مصغرا ، فاتخذت سكرتيرا أول يدعى ريتو دى فيليب Rétaux de Villette كان عشيقها • واتخذت من قس يدعى لوت Lott سكرتيرا ثانيا • واستأجرت الحوذية والخدم والحشم وأقامت فى بيتها الحفلات لعلية القوم •

وكان أكبر فريسة لهما الكاردينال دى روهان • كان حلمه الكبير أن يصبح رئيس وزراء فرنسا ، ولا بد لهذا من رضا الملكة ، والملكة لم تخاطبه بكلمة واحدة منذ ثمانى سنوات ، اذ يبدو انه كان قد أساء اليها أيام ان كان سفيرا لبلاده فى فيينا قبل زواجها من لويس السادس عشر ، أو ربما كان معترضا على الزواج • ثم ان الكاردينال كان زير نساء من طراز عظيم ، ويقال انه كان يحمل شبقا خاصا لمارى أنطوانيت • لابد أولا من اصلاح ما كان قد فسد فى علاقتهما •

وهنا جاءت الكونتيسة دى لاموت فالوا وزوجها ببغى من رواد حى بورروايال اسمها نيكولا اوليفا Nicole d'oliva تشبه مارى أنطوانيت ، وسموها « البارونة » لتلتقى بالكاردينـال • وكانت تدعى انها كانت تعمل فى بيت أزيـاء واستأجرت الكونتيسة دى لاموته فالوا شقة في فرساى والبست « البارونة » اوليفا بنفسهـا ومشت بهـا في الظـلام الدامس عبر تيراس القصر حتى « خميلـة فينوس » وهنا ركع الكاردينال دى روهان أمام مارى أنطـوانيت المزيفة وقبل طرف ثوبها •وكانا قد لقناها كلاما تقول فيه انها قد نسيت اساءته اليها ، وان فى امكانه أن يأمل خيرا

بعد ذلك بدأ الابتزاز : الملكة بحاجـة الى ٥٠٠٠٠ر جنيـه ، لتستر أسرة عريقة أخنى عليها الدهر • ودفع الكاردينال • ثم بدأت عصابة النصابين تشتغل « على أكبر » ان جواهرجى القصر قد جمد رأسماله فى عقد فريد من الماس ، وجلالة الملـكة تريد شراء العقـد لزينتها ولكنها لا تريد لجلالة الملك أن يعرف بهذا الأمر قبل وفائها بثمنه الباهظ ، وهو ٦٠٠٠٠٠ر١ جنيه ، تدفـع خـلال سنتـين مقسطة على ستة أقساط • هذه صفقة العمر ، ووافق الكاردينال على أن يكون الوسيط فى الشراء ، وافق بشرط أن يرى توقيع الملكة على عقد الشراء المؤرخ ٢٩ يناير ١٧٧٥ • ولم تكن هناك صعوبة مادام « السكرتير الأول » للكونتيسة موجودا ، وهو أستاذ فى التزوير ، وفى أول فبراير ١٧٧٥ سلم بوهمر العقد الماسى الفريد للكاردينال ، وسلمه بيديه للكونتيسة دى لاموت فالوا ، وسلمته هى بدورهـا أمام بصره الى « مندوب الملكة » ، ولم يكن هذا المندوب غير سكرتير الكونتيسة الأول ، ريتو دى فيليت ، الذى كان الكاردينال يجهـل شخصه •

وحين حـل موعد سداد القسط الأول بدأ بوهمر يتردد على

قصر فرساى ليتقاضى ثمن ما باع • وانكرت الملكة انها تسلمت العقد أو تعرف شيئا عنه ، وحين قدمت لها فاتورة العقد ، أحرقتها فى لحظة هياج شديد ، بل وزادت على ذلك قولها للكاردينال : « كيف تتصور انى ، أنا التى لم أوجه لك الخطاب منذ ثمانى سنوات ، أجعلك وسيطا فى شراء هذا العقد ؟ وادرك الكاردينال انه كان ضحية احتيال عظيم ، فأبدى استعداده لأن يقوم بسداد ثمن العقد تكفيرا عن غفلته • ولكن الملك الغاضب لم يكتف بهذه التسوية وأمر بالقبض على الكاردينال واحالته الى المحاكمة أمام البرلمان ، ان لم يكن بتهمة النصب فعلى الأقل بتهمة العيب فى الذات الملكية •

وبرأ البرلمان الكاردينال دى روهان وحكم على الكونتيسة دى لاموت فالوا بالسجن المؤبد مع ضربها علنا وكيها على ظهرها بالحديد المحمى بعلامة « V » ، وهى اختصار كلمة « سارقة » بالفرنسية • واجريت فى السجن مراسم الضرب والكى فى الساعة السابعة صباحا ، فسحبها من زنزانتها ١٤ سجانا وكانهم يسحبون نمرة كاسرة تطلق الصرخات الهستيرية وتصب اللعنات فى تشنج على الملك والكاردينال والبرلمان • وكشفوا ظهرها لكيها بالأسياخ فانقلبت وجاء الكى على صدرها بين الثديين •

وتعاطف الناس مع دى لاموت فالوا فافتتح الدوق لورليسان اكتتابا باسمها لمساعدتها ، وكانت عربات النبلاء والنبيلات تقف أمام باب السجن تحمل الهدايا الى السجينة حتى اخلص أصدقاء الملكة ، وهى البرنسيسة دى لامبال كانت تزورها فى السجن ، قيل بتوجيه من مارى أنطوانيت ، لأن الكونتيسة دى لاموت فالوا لم تذكر عنها فى المحاكمة ما يشينها • وبعد أسابيع فتح مجهولون باب زنزانتها ليلا ، فهربت دى لاموت فالوا الى انجلترا حيث نشرت مذكراتها عن فضائح قصر فرساى وزعمت ان الملكة بنفسها تسلمت العقد من الكاردينال دى روهان ، ولكنها كذبت أثناء المحاكمة لتبرىء

الملكة لما كان بينهما من علاقات سحاق • وبغض النظر عن علاقات السحاق ، فقد كان هذا أيضا رأى المفكر السياسى والمؤرخ لويس بلان Louis Blanc : ان الملكة كانت مشاركة فى عملية النصب بدليل احراقها لفاتورة العقد التى قدمها لها بوهمر •

وقد نشرت الكونتيسة دى لاموت فالوا أثناء اقامتها فى لندن سجلا مفصلا لغراميات الملكة مارى أنطوايت فيه على الأقل ٣٤ اسما لأشخاص عرفتهم الملكة معرفة جنسية الى جانب الكونت اكسيل فيرسن ، عشيقها المعروف ، منهم الأميرة دى لامبال والدوقة دى بوليناك والكونت دارتوا ، أخو الملك الأصغر وخادمه الخاص وخدم وممثلون ورجال ونساء بلاط ، مما يصعب سرده الا على لسان شخص عارف بأسرار البلاط الفرنسى قبيل الثورة الفرنسية أو قادر على التلفيق الجهنمى •

وفى ١٧٩١ كانت سيرة مارى أنطوانيت الجنسية ملكا للخاص والعام فى شوارع باريس ونواديها السياسية ، فأرادت النوادى السياسية استقدام الكونتيسة دى لاموت فالوا من لندن لتدلى بأقوالها أمام محكمة الثورة بوصفها شاهدة ، ولكن لوثة من الجنون اصابتها فانتحرت بالقاء نفسها من النافذة • وأسدل موتها المفاجىء ستارا على الموضوع •

وفى أثناء محاكمة مارى أنطوانيت احتجزت فى سجن الكونسيير جيرى بعد اعدام لويس السادس عشر وحاول هيبير استغلال هذه الفضائح فى قضيتها فلم ينجح الا فى استدرار العطف عليها بسبب احتقارها اياه ، فهذه الأمور الخاصة يصعب اثباتها لأنها تجرى عادة داخل أربعة جدران وبين قوم مدربين فى المحافظة على المظاهر • وكان ممثل الاتهام فوكييه تانفيل Fouguier-Tinvillo المدعى العام لكوميون

باريس وكان رئيس المحكمـــة هيرمـــان Herman وكان بـين المحلفين ممثلون لجميـع المهن والحرف : كان بينهم ماركيز سابق وجراح وبائع ليمون وموسيقى ومطبعجي وصانع باروكات ونجـار وقس مشلوح ، وبعض أعضاء لجنة الانقاذ الوطنى وجرت محاولتان لتهريبها من السجن مقـابل مبالغ طائلة من المال ورد فيهما اسم دانتون واسم هيبير ، ولكن يقظة الحرس أفسدتهما ٠

ولم يمكن توجيه اتهام محدد الى مارى أنطوانيت فرفع رئيس المحكمة رأسه وقال : المطلوب من المحلفين ان يجيبوا عليه هو سؤال واحد هو : هل هم مقتنعون بأن الملكة الســابقة كانت على صــلة بالخارج وانها كانت تعمل على انتصار جيوش الأعداء وعلى اشعال الفتنة داخل البلاد ؟

وهكذا طرح الاتهام على وجهه السياسى الذى لا تبرئه منه ٠

وبعد الخلوة المعهودة للمداولة اجمـع المحلفون على ان الملكة مذنبة ٠

وصدر الحكم باعدامها فسيقت الى المقصلة ٠٠ قيل وسارت الى الموت رابطة الجاش كما تسير الملكات ٠٠٠

١٧ ـ جان بول مارا

Jean-Paul Marat (١٧٤٣ ـ ١٧٩٣) ولد مارا فى سويسرا فى بلدة بــودرى Baudry من أعمـال مقاطعـة نيوشـاتل Neuchatel لأب كان قسا « مشلوحا » من سردينيا ، واستقر فى سويسرا ، وتحول الى العقيدة الكالفنية ، فطرد من ســلك الكهنوت الكاثوليكى ، واشتغل بالمهن الحرة وبالصناعات اليدوية ٠ وهذا يدل على أن القلق الروحى فى عائلة مارا بدأ بالجيل الأب ٠ وهكذا نشأ جان بول مارا ابنا من أبنـاء البورجوازية الصغيرة أو البورجوازية المتوسـطة فى كلية نيوشاتيل ، أى « مدرستهـا الثانوية » ٠

وبدأ جان بول مارا حياته العملية فى سن السادسة عشرة حـين انتقل الى بوردو معلمـا لأولاد تاجر سويسرى يدعى نيراك

● نشـرت بجـريدة الأهـرام بتاريخ ١٩٩٠/١/٦ ٠

Nierac ذى خلفية سويسرية وديانة كالفنية ، وظل معلما فى بوردو سنتين • ثم انتقل الى باريس فى ١٧٦٢ حتى ١٧٦٥ ، وهناك درس الطب دون أن يحصل على دبلوم • وفى نهاية هذه المدة زاول مهنة الطب •

ولم يكن يجد فى الطب ما يستغرقه ، بل جذبته الدراسة الفلسفية ، فانجذب الى روسو Rousseau ومونتسيكو Montesquieu أكثر مما انجذب الى جماعة الماديين : فولتير Voltaire وديدرو Diderot ودالمبير D'Alembert وهلفتيوس Helvetius وأقام جان بول مارا احدى عشرة سنة متصلة بين انجلترا واسكتلندا، من ١٧٦٥ الى ١٧٧٦ ، وألف فى هذه الأثناء كتابه الهام « أغلال العبودية » Les Chaines de l'esclavage وحصل من جامعة نيوكاسل على دبلوم فى الطب فى ١٧٧٥ رغم انه كان يمارس الطب والطب البيطرى بين ١٧٧٠ و ١٧٧٢ • ثم انتقل الى لندن من ١٧٧٢ الى ١٧٧٦ • وفى هذه الفترة اجتذبه الأدب فكتب رواية « مغامرات الكونت بوتوفسكى » Les Aventures du Jeune Comte Potowski « ١٧٧٠ – ١٧٧٢ » فى قالب الرسائل على طريقة « هلويز الجديدة » La Nouvelle Heloïse التى اكتشفت بين أوراق مارا ولم تنشر الا عام ١٨٤٨ •

وفى ١٧٧٢ كتب مارا بحثا هو « مقال عن روح الانسان » ، وهو البحث الذى أعيدت صياغته ١٧٧٣ تحت عنوان : « مقال فلسفى عن الانسان » ، ويبدو انه نفس الكتاب الذى ترجم الى الفرنسية وقرأه الفرنسيون عام ١٧٧٦ تحت عنوان : « فى الانسان : المبادىء والقوانين التى تحكم تأثير الروح فى الجسد وتأثير الجسد فى الروح» وهو كتاب معاد المادية الفيلسوف كونديلاك Condillac والفيلسوف لامترى La Mettrie لأنه يؤكد ازدواجية الجسد والروح •

وظهر « اغـلال العبودية » بالانجليزية أولا فى ١٧٧٤ تحت عنوان The Chains Of Slavery وبحسب ما يقول مارا فان الحكومة الانجليزية قاومت سرا صدور هذا الكتاب · وفى ١٧٧٦ غادر مارا انجلترا الى فرنسا بعد ان اكـتشف نفسه وموهبتـه فى « اغـلال العبوديـة » خمسة عشر عاما قبـل اندلاع الثورة الفرنسية · لقد اكتشف جان بول مارا ضرورة الثورة فى أوروبا على النظام الاقطاعى والملكية المستبدة ·

وبعد عودة مارا الى باريس فتح فيها عيادة عام ١٧٧٦ · وفى ٢٤ يونيـــو ١٧٧٧ عين طبيبـا للحرس الخاص بالكونت دارتوا Conte dartois وهي وظيفة جيدة مكنته من التعـارف على الزبائن النبلاء · وصور هذه الفترة تصورا مزدهرا معنيا بمظهره ، وقد استمر هذا النجاح الاجتماعى على الأقـل حتى ١٧٨٤ ، حين اصيب بمرض جلدى لازمه بقية حياته « ٩ سنوات » · وفى ١٧٨٤ فقد وظيفتـه عند الكونت دارتوا · وفى هذه الأثنـاء كان مارا قد أنشأ لنفسـه معملا لعلم الفيزياء · وكانت له نظريات فى طبيعة النار ، فتصور ان هنـــاك ســـائلا مشـــتعلا ، ولـــكن لافوازييه Lavoisier اثبت عدم صحة هذا الفرض · كذلك كانت لمارا نظريات فى الضوء ضد نظريات نيوتن Newton ولكن اكتشافه نجح على الأقل فى علاج بعض الأمراض بالصدمـات الكهربائيـة ، وهو ما يعرف بالكهرباء الطبية · ودخل مارا فى معارك مع أكاديمية العلوم ·

وفى ١٧٨٠ نشر له نيوشاتل كتـاب « مشروع التشريعـات الجنائية » ، وطهرته الرقابة من صفحات عديدة أيام الملكية فوضعت الطبعة كلها فى المكبس · ولم يظهر « مشروع التشريعات الجنائية » مستقلا الا فى زمن الثورة ، ولكن بريسو Brissot ، صديق مارا

وتلميذه في ذلك الوقت نجح في ان يعيد نشر « التشريعات الجنائية » في المجلد الخامس من « المكتبة الفلسفية » .

وحين فقد مارا عمله عند الكونت دارتوا أخذ يصنع اجهزة الفيزياء ويبيعها ، وفكر في العودة الى انجلترا . وحين جاءت الثورة كان مارا رجلا متعبا .

وقد نجا مارا من الايمان بفلسفة « المستبد المستنير » التى نصبت فخاخا لكثير من المثقفين في القرن الثامن عشر في عصر التنوير قبيل الثورة الفرنسية : ففولتير مجد فردريك الثانى عاهل بروسيا ، وديدرو مجد كاترين الثانية امبراطورة روسيا . نجا مارا من الخرافة الانجليزية التى كانت شائعة في دوائر « الفلاسفة » وكان عليه ان يواجه حكم روبرت والبول Robert Walpol رئيس وزراء انجلترا الذى اثر عنه انه كان يقول عن أعضاء برلمانه كلما جاء ذكر أحدهم بأنه لاسبيل الى شرائه ، « ان لكل رجل ثمنه » .

فبدلا من الحرية والديمقراطية رأى مارا الرشـوة والفساد والدوائر الانتخابيـة في المزاد . رأى مارا بؤس الطبقـة العاملـة الانجليزية في الثورة الصناعية « الويركهلوس » ، وتكونت لديـه فكرة غامضة عن « الشعب » وهو انه مرادف بوجه عام « للطبقة العاملة » ، أو مرادف بوجه عام لطبقة « الصان كيلوت » .

وقد أسعفه ايمانه بازدواجيـة الوجود بالايمان بازدواجيـة الانسان من روح ومادة الى الايمـان بوجود الله ، فـكان يقول ان « الالحاد ترف ارستقراطى » ، وكان يقول ان « الايمان بالفضيلـة ايمان ملازم للشعب » . وكان يرى ان البورجوازية العليا هى طبقة « المضاربين » Financiers وطبقة «المدولين» Speculateurs وطبقة « بنـاة السفن » Armateurs وطبقـة « كبار التجـار » gros commercants فوقع في تناقض الجمع بين المثل الأعلى

الاسبرطى الذى كان المثل الأعلى للصان كيلوت فى باريس والمثل الأعلى الليبرالى المعادى للاحتكارات الاقطاعية ٠

وفى هذا النظام الاجتماعى يحتل الدين مكانا هاما فى مساندة الطغيان : ومارا تاثر على الأخلاق المسيحية لانها تعلم الخنوع ، والدين عنده اذن اداة من أدوات الطغيان ٠ والثورة عنده ليست مخرجا من مازق ولكن جزء من عملية تجديد الحياة السياسية ٠ ولكن مكمن الخطر فيها هى سرعة تصديق الجماهير غير المنظمة وجريها وراء الأوهام ثم التفتت بين الشيع والافراط فى الثقة ؛

و « مشروع التشريعات الجنائية » مستوحى أيضا من جان جاك روسو ، فهو يقوم على الموازنة بين انسان الطبيعة وانسان المجتمع ٠ والقوانين هى أدوات قمع الجماهير لحساب القلة المتحكمة فى المجتمع ٠ وهو كتاب ضد الملكية الخاصة التى يصفها مارا بانها شر لابد منه ٠ وهو لم ينادِ بالتاميم كحل لهذه التناقضات الاجتماعية ، ولكن نادى بالضمان الاجتماعى ٠

أصدر مارا أول عدد من «صديق الشعب L'Ami du Peuple» فى ١٦ سبتمبر ١٧٨٩ ، ولم تكن جريدة يومية لنشر الأخبار ولكن كانت جريدة يومية للتحليل السياسى ٠ ولم تكن أوسع الصحف انتشارا ، فقد كانت توزع ٢٠٠٠ نسخة يوميا ، وكل نسخة كان يقرؤها ١٠ قراء ٠ وكانت جريدة ميرابو « ثورات باريس » توزع ١٠٠٠ر١٠ نسخة ٠ وكانت جريدة هيبير Hebert «الأب دوشين » Le Père Duchesne أوسع انتشارا من « صديق الشعب » واشد التهابا منها ، ولكن « صديق الشعب » كان تاثيرها أعمق فى الصان كيلوت ٠

وكان مارا يحدد النغمة لصحف اليسار مثل جريدة « ثورات فرنسا والأرض الواطئة » التى كان يحررها كاميل ديمولان Camille

وكانت « صديق الشعب » عبارة عن فرخ مطبق Desmoulins على ٨ صفحات تشتمل على افتتاحية وبريد القراء ومتابعة للأخبار بالتحليلات السياسية . وكان مارا يحرر جريدته من أول سطر الى أخر سطر فيها . وكانت « صديق الشعب » تتهم بالدعوة الى العنف، ولكن كان العنف فى المضمون وليس فى الاسلوب . وقد استمرت الجريدة أربع سنوات ، أى حتى اغتيال مارا فى ١٣ يوليو ١٧٩٣ ، فكانت اشبه شيء بمونولوج مارا عن « ثورته » الذى استغرق فى القائه أربع سنواته .

وفى البداية كان مارا يتلقى بعض الاعلانات لاصدار جريدته من بعض التقدميين الانجليز ، وهذا سبب سريان الاشاعة عنه انه كان يتقاضى العون من الخارج ، ثم اقتصر فى الانفاق على « صديق الشعب » مما كان يتلقاه من نادى الكوردلييه من الاعانات .

كان مارا يحتمى بنادى الكوردلييه الذى كان يرأسه دانتون والبوليس يطارده ، وكان يهاجم صنمين : الأول هو ميرابو والثانى هو لافاييت ، ثم فى أواخر ١٧٨٩ هاجم نكر وزير المالية ، واختفى فى حى الكوردلييه . ولما اشتد الحصار عليه سافر الى لندن حتى مايو ١٧٩٠ . وكان بعيد النظر فى كل ما يكتب : كان يتنبأ بالأحداث وكان له جواسيس فى القصر الملكى أو فى الجمعية الوطنية أو فى بلدية باريس .

وكان أول منشور له فى ١٧٨٨ يحمل عنوان «قربان للوطن» ، وتلته منشورات سياسية أخرى عن الدستور وحقوق الانسان وعيوب نظام الحكم فى بريطانيا . ثم رآه الناس يقرأ بصوت عال فى نواصى الشوارع صفحات من « العقد الاجتماعى » لروسو . وفى أوائل سبتمبر ١٧٨٩ اصدر جريدته « صديق الشعب » وجعل شعارها Vitam Impendere وهو عن روسو . أو فلنقل

ان عين الطبيب فيه كانت ترى عللا فى كل شيء ، فقد كان يسمى نفسه اختصاصيا فى باثولوجيا السياسة • وكانت لديه روشتة دائمة :

ut redeat aniseris, abest Fortume spendis (let us tax the rich to subsibise the poor).

كانت مدام رولان تقول ان مارا عندما كان طبيبا فى البلاط كان يحيط نفسه بترف عظيم ، وعندما اغتيل كان يعصب رأسه بمنديل تشبها بالصان كيلوت ، وبجرد مخلفاته انحصرت تركته فى عدد ٢ دولاب مطبخ ، ايتاجيرة ، مكتب ، شيفونيرة ، تسريحة مطعمة ، عدد ٢ آلة كهربائية ، سرير حديد ، بينما كان هناك ٣ أجهزة طباعة وبعض الأجهزة المساعدة • فلا مجال للحديث عن الترف ، ولكن عن الراحة المعقولة •

وكانت تقيم معه وقت اغتياله شابة تدعى سيمون ايفرار Simone Evrard كان قد تزوجها على طريقة روسو • وكانت على حظ من الجمال ، جيدة التعليم ، وذكية ، وجهت ثروتها الى نشر أعماله الفكرية ووقفت حياتها للسهر على صحته • ويبدو ان مارا كان مثال الوداعة فى حياته الخاصة ، وان « وحشية » الثوار كانت تنتهى بمجرد انتهاء جلسات المؤتمر الوطنى أو فراغهم من عملهم اليومى • وكان مارا أصفر الوجه مثل ميرابو حين تدهور ابصاره فى نهاية حياته وتهدلت عضلات وجهه • ولا يدانيه الا شحوب سان جوست و «خضرة البحر » فى محيا روبسبيير ، حالات من المرض الجسدى سببها طول ساعات العمل وقلة ساعات النوم ، وربما انعكاسات من القلق الداخلى •

ظلت شعبية مارا واسعة بين الجماهير • ففى بداية ابريل ١٧٩٣ قاد الحملة على الجيروند بسبب خيانة ديموريتيز ، ولهذا حاول الجيروند فى حماقة ان يحاكموه أمام محكمة الثورة فبرأته

محكمة الثورة وخرج بانتصار عظيم · قال فى ١٩ مايو : « اقترح ان يصدر المؤتمر الوطنى قرارا بالحرية الكاملة فى التعبير عن الرأى حتى أرسل الى المقصلة الحزب الذى صوت فى جانب محاكمتى » ·

ومارا هو الذى نظم وقاد الثورة الشعبية من ٣١ مايو الى ٢ يونيو ١٧٩٣ ، وهو الذى صعد بنفسه الى أعلى البرج فى الهوتيل دى فيل « دار البلدية » فى أول يونيو ودق الناقوس بيديه · وتصور الناس يوم مقتله ان اغتياله كان جزءا من مؤامرة وضعها الجيروند لتصفية اليعاقبة تصفية جسدية فسيق الجيروند الى المقصلة بعد ثلاثة أشهر ·

وبعد اغتيال مارا زادت شعبيته ، فنظمت فيه القصائد وألفت المسرحيات ولحنت الترانيم وعمد أطفال باسم برتوس مارا ، وصان كلوت مارا ، ومارا لامونتانى (« الجبل » ، أى على اسم حزب الجبل) · وسميت الشوارع والميادين باسمه ، واتخذت اسمه ٣٧ مدينة وبلدة وتلامذة المدارس (١٠ سنوات الى ١٢ سنة) كانوا يغنون : « عد الينا يامارا من دار الخلود لتقود شعبا يعبدك » وفى بعض المدارس تعلم التلاميذ أن يرسموا علامة الصليب كلما ذكر اسم مارا واقيم له تمثال نصفى مكان تمثال العذراء · وكلف الفنان دافيد بالاشراف على شعائر الاحتفال بدفن مارا ، فاعلن : « ان قبر مارا سيكون على البساطة التى تناسب زعيما جمهوريا غير قابل للفساد ، مات فى فقر نبيل · انه كان يرشد الناس من تحت الأرض (من قبو النبيذ المشهور) الى من هم أعداؤهم ومن أصدقاؤهم · فليستروح هناك فى مثواه الأخير » ·

وكلف المثال مارتان باقامة مقبرة على هيئة قبو للنبيذ فى نادى الكوردلييه تظلله أشجار حديقة النادى ، ومدخله باب حديدى،

وفوق المدخل أقيم اناء من الرخام يضم قلب مارا ونقشت عبارة :
« هنا يرقد مارا صديق الشعب ، قتله أعداء الشعب » .

وبدأ الجناز فى الساعة الخامسة مساء وانتهى فى منتصف الليل . وكانت تحف بالنعش عذارى يلبسن ملابس بيضاء وكأنهن فى عرس ، وصبية يحملون أغصان السرو . ومن ورائهم سار أعضاء المؤتمر الوطنى والنوادى السياسية ثم الجمهور . وبعد الدفن (وكل قسم أمام القبر) ألقى رئيس كل حى كلمة تابين . وبعد يومين طاف موكب آخر بالشوارع حاملا الاناء الرخامى المحتوى على قلب مارا ، ونقله من حديقة الكوردلييه الى قاعة الاجتماعات فى ذلك النادى حيث علق فى سقف القاعة .

وبعد سقوط روبسبيير عندما كان كل الأحياء من عهد الارهاب يرتعدون فرقا ، كانت شعبية مارا لاتزال كافية لتمكنه من حيازة مكان فى البانتيون . ففى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٤ حمل قسم مارا « المارسيلين سابقا » جثمانه الى مدخل المؤتمر الوطنى . وفى ٨ صباحا من اليوم التالى تبعت كل الأقسام الصربة الجنائزية الى البانتيون بينما خرج جثمان ميرابو « الملكى » من باب جانبى وألقى رئيس المؤتمر الوطنى كلمة تابين .

ولكن تقديس مارا لم يدم طويلا ، فبعد أربعة أشهر بالضبط احرقت فى فناء نادى اليعاقبة صورة دمية لمارا ، وألقى الرماد فى مجارى مونمارتر التى كانت قد غيرت اسمها الى « مونمارا » واختفى قلب مارا من نادى الكوردلييه . وفى ٨ فبراير ١٧٩٥ لم يطلب أحد من أصدقائه رميمه فصرح قسم البانتيون بدفن رميم مارا فى أقرب جبانة .

قال نابوليون : « أنا أحب مارا ، فهو مخلص . انه دائما يقول ما يؤمن به » .

كان مارا لايخفى ميوله الدكتاتورية ، ومنذ ١٠ أغسطس ١٧٩٢ وهو ينادى بتأليف حكومة ثلاثية تتركز فى يدها كل السلطات (Triumvirat على غرار ما كان يفعل الرومان . وبعد أقل من عام طعنته فتاة ارستقراطية تدعى شرلوت كورداى Charlotte Corday فى ١٣ يوليو ١٧٩٣ ، كانت تتردد على النواب الجيروند الفارين فى مدينة « كان » Caen وتقول انها قررت ان «تقتل لا رجلا بل وحشا كاسرا كان يلتهم كل الفرنسيين» . وأعدمت شرلوت كورداى على المقصلة فى ١٧ يوليو ١٧٩٣ ، وكان عمرها خمسة وعشرين عاما .

فى يوم الأحد ٧ يوليو ١٧٩٣ اجتمع نحو ثلاثين مجندا على العشب الشاسع خارج مدينة كان الكالفادوس ، وكان النائب بتيون يعتقد ان حزنها آت من فراق فارس أحلامها ، وكان يداعبها بقوله : « لاشك انك حزينة لأنه سيرحل ! » .

وكانت قد قبلت فى سن الثالثة عشرة فى « دير السيدات » وهو دير كانت قد انشأته ماتيلدا زوجة وليم الفاتح ولذا بقى عليه صلف الاقطاع . وكانت فى بداية حياتها فى الدير تجد السلوى فى حياة العزلة ، ولاسيما بين صاحبتين فى سنها من أصل نبيل فقير مثلها . وقد بقى لها من صباها صوت العذراء الصغيرة فكان هذا سمة مشتركة بينها وبين جان دارك التى لم ينضج صوتهما أبدا كصوت امرأة كاملة النضوج بل ظل على بكارته فضى الرنين ، وكانت شرلوت كورداى على ذلك تعيش فى عالم غريب بين أبطال بلوتارك الذين اشتروا الخلود بمواجهة الموت .

ووزعت كتبها قبل رحيلها الى باريس ، كل كتبها فيما خلا مجلدا واحدا من بلوتارك . هذا المجلد أخذته معها الى باريس حين رحلت اليها فى عربة عامة . وقبل سفرها لم تنس أن تمر على

والدها في بلدة ارجنتان ليعطيها بركته ، ومن ارجنتان ركبت المركبة العامة • وكان معها في المركبة العامة بعض أنصار حزب الجبل من غلاة المعجبين بمارا • وبدأوا بالتودد اليها الى حد طلب يدها • فادعت النوم ثم ابتسمت ثم تشاغلت بمداعبة أحد الأطفال •

ووصلت باريس يوم الخميس ١١ يوليو ١٧٩٣ نحو الظهر ونزلت في شارع الفييه دوجستان رقم ١٧ في « هوتيل دي لايروفيدانس » Hotel de la Providence (فندق العناية الالهية) ولامت في الساعة الخامسة مساء ، نامت الى الصباح نوم الخلي • وفي الصباح انطلقت بخطاب النائب باربارو Barbaroux الى النائب ديبريه Duperret وهو عذرها الرسمي في زيارة باريس للتوسط لصديقة لها من المهاجرات في استكمال أوراق هجرتها من وزارة الداخلية • ووجدت شارلوت كورداى النائب في المؤتمر الوطني • فعادت ادراجها الى فندقها وعكفت على قراءة « سير » بلوتارك حتى المساء • وفي المساء زارت ديبريه فوجدته يتعشى مع أسرته ، ووعدها بأن يصطحبها في اليوم التالي الى وزير الداخلية • قالت شرلوت كورداى للنائب ديبريه ، وقد أحست بالندم لأنها أقحمته على غير قصد منها مع أسرته في مجازفة لم يكن ينتظرها بلهجة استعطاف : « سافر الى كان قبل مساء الغد ، اهرب ، صدقني » • وسواء أكان ديبريه يعرف أو لايعرف انه مطلوب ، فقد بر بوعده ، واصطحب شرلوت كورداى في الصباح التالي الى قلب مكتب وزير الداخلية الذى أفهمه في النهاية انه كان مثله مشبوها سياسيا وبالتالي فهو لا يستطيع ان يساعد الآنسة المهاجرة بشيء •

ولم تعد الى فندقها قبل ان تمر على « الباليه روايال » في صحبة ديبريه ، ونزلت من العربة بعد أن أشار لها ديبريه الى

« الباليه روايال • ودخلت محلا اشترت منـــه سكينــا باربعين سنتيما ذا مقبض من الأبنوس ، وأخفته في صدرها •

وكان مشروعها الأول الذى جاءت به من « كان » يقوم على اغتيال مارا يوم ١٤ يوليو في الشان دى مارس أمام الجماهير • فلما عرفت ان احتفال ١٤ يوليو تأجل ، عدلت خطتها بخطة أخرى وهى ان تغتاله في أثناء مزاولته لعمله اليومى مع حزب الجبل فى المؤتمر الوطنى ، ولكنها عرفت ان مارا كان مريضا وانه انقطع عن التردد على المؤتمر الوطنى •

لم يبق اذن الا تنفيذ المخطط بزيارته فى داره والتوســل بأية وسيلة للتسلل الى عرينه وســط ذويه ، ولو بكذبة صارخة • وهكذا كتبت شرلوت كورداى لمارا خطابا لم تتلق عليـــه ردا فى نفس اليوم ، فاضطرت ان تكتب خطابا آخـر كذبت فيه ولكنهـــا لم ترسله : قالت انها شقية ومضطهدة وأنها ستفضى اليه بأسرار خطيرة •

وفى مساء ١٣ يوليو ١٧٩٣ خرجت من فندقها وركبت مركبة عامة عنـد « ميـــدان الانتصـــارات » وعبرت الكوبرى الجديد Lepont Neuf ونزلت عند باب مارا شارع الكوردلييه رقم ٢٠ « بأرقام عصر ميشليه ١٨ شارع مدرسة الطب فى الحى اللاتينى » وهو البيت الكبير السابق على البرج عند ناصية الشارع • وكان مارا يســـكن فى أكثر الطوابق عتمة ، وهو الطابق الأول ، وهو طابق يناسب صحفيا مثله ونائبا شعبيا من نواب الشعب ، بحيث يكون مسرحا لتحركات الحمالين ورجال الاعلانات والبروفات • والغرف المعتمة حقا ، وهى المطلة على الفناء الداخلى ، بها أثاث متسخ قديم

يوحى بأنه مسكن عامل • فاذا أنت توغلت قليلا وجدت صـالونا أنيقا يطل على الشارع مكسـوا بالحرير الأزرق والأبيض وتتبعه ستائر حريرية جميلة ومعها فازات من الصينى عادة تحليها الزهور •

كان واضحا ان هذا كان مسكن سيدة فاضلة نابت عنه فى كل ما يخص شئون الدنيا ، وكان هذا سر حياة مارا الذى أفشته أخته البرتين : « لم يكن مارا يقيم للمال وزنا • وانما كانت هناك امرأة سماية أثر فيها موقفه حين كان يهرب من قبو الى قبو فكانت تخفى لديها « صديق الشعب » فسلمته مالهـا وضحت من أجله براحتها » •

وقد وجـدوا بين أوراق مارا وعدا بأن يتزوج من كاثرين « سيمون » ايفرار Simone Eyrard وكان من قبل قد تزوجها على طريقة جان جاك روسو ، أى تزوجها أمام الشمس وأمام الطبيعة !

واجتازت شرلوت كورداى الحاجز الأول عند بوابة الدار دون توقف ، رغم انهم نادوا عليها لمنعها من الدخول • وسمع مارا الجلبة خارج حمامه فأمر بأن يسمحوا لها بالدخول • وكان جسمه مغطى بملاءة متسخة ، وكان يستخدم لوحا من خشب وضـعه بعرض البانيو ليكتب عليه ، ولم يظهر من جسمه الا رأسه المعصوب بمنديل أو بفوطة وذراعه اليمنى وكتفاه ، أما بقية جسده فكان مغطى بالملاءة المتسخة ، وكان جسده غارقا فى الخل لتخفيف الالتهاب الجلدى الذى كان مارا يعانى منه •

لقد وعدته بأنباء من نورماندى ، ولاسـيما أسماء النـواب الجيروند اللاجئين فى كان • وطلب الأسماء فسردتها عليه ، وهو يكتب • ولما فرغ من الكتابة قال : « هذا طيب ! فى خلال ثمانيه أيام سيذهبون الى الجيلوتين » •

وكان هذا هو حافزها الحقيقى لقتله • واستلت السكين الذى كانت قد أخفته فى طيات صدرها ، وأغمدته فى صدر مارا ، فلم تترك له الا لحظة يستغيث فيها سيمون ايفرار ، قائلا : « ياصديقتى العزيزة ! » ثم أسلم الروح وهو فى بركة من دماء • لاشك ان شرلوت كورداى قد تدربت على ذلك مائة مرة ومرة ، فقد كانت عملية جزارة من الدرجة الأولى • والا فما معنى أن يكرر علينا ديشيليه أكثر من مرة ان نور النهار كان خافتا خافتا ؟

• ماتت شرلوت كورداى على المقصلة فى ١٩ يوليو ١٧٩٣ • •

١٨ - جورج دانتون

أطلقوا على جورج دانتون عدة أسماء من البلطجى الملكى الى جـسان دارك النظام الجمهـــورى • كان صاحب عقليه عمليـــة فلم يشارك فى وضع تصور لما سوف يكون عليه الانسان الجمهورى الجديد ، كما أنه لم يشارك فى بناء تصور لفلسفة الثـــورة مثلما فعل روبسبيير وسان جوست ومارا •

ولم يكن لدى دانتون وسائل قذرة ووسائل نظيفة لتحقيق غاياته ، بل تجـــاوز الأفكار المألوفة عن الخير والشر ، وكان رأى لامارتين فيه فى كتابه « تاريخ الجيروند » أنه رجل مجرد من الشرف أو المبادىء أحب الديموقراطية لما تعطيه له الديموقراطية من انفعالات •• وكان يعبد القوة والقوة وحدها ، وكان البلاط يعـرف تماما ثمن ضميره فما كان عليه الا أن يفتح فمه ليتكدس فيــه الذهب •

● نشـــرت بجـــريدة الأهــــرام بتاريخ ١٩٩٠/١/٢٠ •

واتخذت رذائله أبعادا بطولية وكان ذكاؤه عبقريا • وكانت فيه من الناحية الأخلاقية ملامح المتآمر الروماني كاتلينا » •

أما رأي ميشيليه فيه فهو انه كان يمثل في مرحلة الثـورة عام ١٧٩٢ الوطنية الفرنسية •

ولد دانتون في أرسي ــ سير ــ أوب وهي مجـــرد قرية في مقاطعة شمبانيا أي أنه يشترك مع أكثر الثوار في أصوله الريفية وفي خلفية الطبقة المتوسطة المستريحة التي كان أغلبيتهم ينتمون اليها • وكان أقرباؤه كثيرين فكان له عشرة اخوة • وتزوج أبوه مرتين • وليست لدينا وثائق عن صباه أو شبابه الباكر الا شهادات زملائه في الدراسة الثانوية مثل بيون الذي ذكر عنه أنه عندما كان صبيا حاول أن يرضع اللبن من ضرع بقرة فرفسه عجلها رفسة تركت به عاهـــة مستديمة في أنفه الأفطس • وكان بوجهه نمش واضح من آثار جدري قديم • فأضـــاف ذلك تشويه الخلقة المأثور عن دانتون •

ومن الروايات التي حكيت عنه أنه قطع نحو مائة كيلومتر من قريته أرسي حتى كاتدرائية رانس حيث جرت العادة أن يتوج ملوك فرنسا منذ جان دارك ليشهد بشخصه تتويج لويس السادس عشر ويصفه على الطبيعة وذلك طمعا في الحصول على جائزة لم يحصـــل عليها كما كان يرجو ولكنه أفلت من عقاب ادارة المدرسة له ، كان ذلك في نهاية مرحلة الدراسة الثانوية •

أما مرحلة الدراسة الجامعية فقد قضاها دانتون في رانس قبل انتقاله نهائيا في باريس ليجرب حظه في مهنـــة « مستشار ملكي » يترافع في فرســـاي عن حقوق النبلاء المغموطة في البلاط

الملكى ، ولكى يتمكن من ذلك اشترى مكتب محسام من بلدياته · وأنفق جزءا من ماله على الزواج ·

تخرج دانتون فى جامعة رانبس عام ١٧٨٤ وهو فى السادسة والعشرين من عمره واشترى مكتبه القانونى فى ٩ يونيه ١٧٨٧ · وهذا هو تاريخ انتقاله الرسمى الى باريس · وأنجب طفله الأول فى عام ١٧٨٨ · ولكن هذا الطفل مات فى ابريل ١٧٨٩ ·

وفى ١٣ يوليه ١٧٨٩ كتب المحامى لافو أنه زار حى الكوردلييه الذى كان فيه مكتب دانتون · يقول لافو فى هذا الصدد : « رأيت زميلى دانتون الذى عرفته دائما رجلا صاحب منطق سليم وخلق رضى يتسم بالتواضع والصمت ولكن ما كان أشد عجبى أن أراه واقفا على مائدة يطلب من المواطنين أن يتسلحوا ليصدوا ١٥ر٠٠٠ قاطع طريق اجتمعوا فى مومارتر وجيشـا من ٣٠ر٠٠٠ رجل احتشدوا للفتك بأهالى باريس ، وذهبت اليه لاستفسر منه عن سر هذه الضـجة وكلمته عن الهدوء والأمن اللذين رأيتهما بفرساى فأجاب انى لم أفهم شيئا وان الشعب صاحب السـيادة قد ثار على الطغيـان وقال : انضم الينا فالعرش قد هوى وأنت قد خسرت وظيفتك القديمة · لا تنس ذلك · وفى ١٦ يوليـو ١٧٨٩ قاد دانتـون مظاهرة من الكوردلييه الى الباستيل ·

وكان دانتون بجسمه الرياضى وقدرته على الارتجـال طاقة كبرى · وفى عريضة اتهام المدعى العام فوكييه تانفيل أثناء محاكمة دانتون جاء فيها أن دانتون هرب الى انجلترا · وفى عريضة اتهام سان جوست لدانتون انه كان فى انجلترا فى ١٧ يوليه ١٧٨٩ · وكان سفير فرنسا فى لندن يومئذ لالوسرن فكتب الى وزير خارجيته بفحوى حديث جرى بين آل دانتون فى لندن ودوق أورليان الذى كان مبعدا فى انجلترا آنذاك · ولعـل الهدف من وراء هذا تذكير

دوق أورليان بأنه كان على غير علم منه يتصل بعميلين لدولة أجنبية هما دانتون وباريه . وهذا وحده قمين بأن يعطينا صورة عن جو التشكيك في الوطنيين وطلاب الحرية الذى كان ثعالب الارستقراطية يسعون الى نشره والترويج له . وبسبب الغموض الذى أحاط دائما بنشاط دانتون الثورى والوطنى نجده يزايد دائما بالكلام الملتهب رغم ما بدا عليه من تواضع واتخاذ مواقف عملية ، وهو الأمر الذى يذكرنا بالمحرضين على التطرف الذين يطلقهم البوليس عمدا بين الجماهير لتبرير اعتقال المئات أو فض المظاهرات بالعنف على أقل تقدير .

وبين ١٤ يوليو ١٧٨٩ ونهاية العام بنى دانتون لنفسه جهازا سياسيا فى حى لوكسمبورج حيث نادى الكوردلييه وجرالديهم وأصبح رئيسا لنادى الكوردلييه . وفى ٣ أكتوبر ١٧٨٩ كتب شاهد عيان لايعرف دانتون عن فترة رياسته للنادى واصداره بيان يدين فيه استدعاء فرقة الفلاندوز Flandres لتشتيت الجماهير البارسية وحماية فرساى Versailles وقد حدثت أربع محاولات لنزع رياسة النادى منه وفشلت جميعا قبل نهاية العام .

وكان من أهم أعضاء نادى الكوردلييه فابر ديجلانتين Fabre d'Eglantine الممثل السابق والشاعر المسرحى المتوسط الموهبة ، والجزار ليجيندر Legendre ، والحفار سيرجان Sargent والممثل كولوديربوا Collot-d'Herbois وسكرتير دانتون السابق بيوفارين Billaud-Varenne ، وباريه Pare تابعه أينما توجه ، ومانيوبل Manuel الذى عوقب على كتاباته بالسجن ثلاثة شهور فى الباستيل ، وشوميت Chaumette ، الخ . كل هؤلاء انضموا الى مجموعة دانتون فى الكوردلييه . ومن الصحفيين انضم من أصحاب الصحف كاميل ديمولاز Camille Desmoulns

وفريرون Freron ، الذين لازموا دانتون حتى المقصلة (أى لمدة ثلاث سنوات) ٠

وفى أكتوبر ١٧٨٩ كانت محكمة الشـــاتلية Châtelet قد أصدرت أمرا بالقبض على مارا لمحاكمته فى تهم القذف السياسى التى كانت منسوبة اليه ، وكان مارا هاربا ومختفيا فى مونمارتر ، وفى أكتوبر انتقل مارا الى حى الكوردلييه ٠

وفى ٢٢ يناير ١٧٩٠ أرسل لافاييت ٣٠٠٠ رجل من رجال الحرس الوطنى مع مدفعين للقبض على مارا فرفض نادى الكوردلييه تسليمه ، وكانت مواجهة سخيفة فى الشارع مع شرطيين أرسلهما لافاييت بأمر القبض ، فقد أقنع دانتون الشرطيين بأن الأمر قديم يرجع الى ١٠ أكتوبر ، ولابد من الرجوع الى الجمعية الوطنية قبل تنفيذه ٠ وأيدت الجمعية الوطنية أمر القبض ، فتظاهر دانتـــون بالرضوخ لقرار الجمعية الوطنية ٠ ودعا الشرطيين للتقدم لتنفيذ أمر القبض ، ولكن العصفور كان قد طار من القفص فى طريقه الى انجلترا ٠ وفى ١٧ مارس ١٧٩٠ ٠ أصدرت محكمة الشاتليه أمرا بالقبض على دانتون نفسه للتستر على مارا ولكن الأمر أهمل تنفيذه نظرا لأن كل النفوس كانت مستفزة ٠ وهنا اشـــتد اقبال عمال السين على الانضمام الى عضوية نادى الكوردلييه لأنه كان أرخص اشتراكا من نادى اليعاقبة (الذى تقاضى ضرائب مباشرة قيمتهـــا أجر ثلاثة أيام على الأقل) ٠ ودخل دانتون نادى اليعاقبة دون ان يتخلى عن مسئوليته عن نادى الكوردلييه ٠ وفى مايو ١٧٩٠ ألقى فيه أول خطاب مدون له ٠ وكان اليعاقبة أعلى اشتراكا وأشد أناقة وأعظم احتراما وأكثر تأثيرا فى التشريعات من الكوردلييه ٠

وكان دانتون منذ اشترى مكتبه الخاص فى ١٧٨٧ قد تعود ان يوقع اسمه Danton من باب الانتســاب الى النبلاء ولكنه

قرر فى ١٧٩٢ ان يوقع اسمه كما هو مدون فى سجل المعمودية • وفى ١٧٨٧ كانت لديه ٢٢ قضـــية وترافع أمام محكمـــة البلاط كمستشار ملكي ما متوسطه ٢٠٫٠٠٠ جنيه سنويا لدرجة انهـــا بدأت تؤثر فى أفكاره السياسية ، فيؤثر عنه قوله : « الويل لمن يشعلون الثورات • » وعرف عنه انه من رواد قهوة بروكوبيوسى بشارع سان جيرمان •

يجب التوقف طويلا أمام الهزيمة الكاسحة لدانتون أمام بالى حين انتخب بالى عمدة لباريس بأغلبية ١٢٫٢٥٠ صوتا لبالى مقابل ٤٩ صوتا لدانتون فحتى حى دانتون ، حى الاوديون ، تخلى عنه فى انتخاب المدعى العام ونوابه ، اذ حصل مرشحو بالى على ٣٫٤٥٢ و ٢٫٩٦١ و ٢٫٣٣٢ صوتا بينما حصـــل مرشحو دانتـــون على ١٢٩ و ١٩٣ و ١٩٧ صوتا ، أى أقل من نصف أصـــوات حى الاوديون • بل وأسوأ من ذلك • ففى سبتمبر ١٧٩٠ اختاره قسمه ليكون أحد ثلاثة ممثلين عنه فى مجلس البلدية ، وكان دانتون الوحيد بين ١٤٤ عضـــو مجلس لم تتم الموافقـة عليـه من ٤٨ قسما من أقسام باريس ، بالرغم من ان الموافقة كانت تجرى فى العـــادة استكمالا للشكل ولكنها فى هذه الحالة لم تتم • فهل كان دانتون سيىء السمعة على المستوى السياسى ؟

أقل ما يقال فيه على المستوى السياسى انه كان رجلا غامض الولاء ، يقيم مستقبله السياسى على « المصالحات » ويحتفظ بكثير من حباله السياسية موصولة فى « الخفاء » •

كان رد فعل دانتون لهرب الملك فى ٢١ يونيو ١٧٩٢ عنيفـــا لا ضد الملك ولكن ضد لافاييت • وكان اليعاقبة أشد حذرا واعتدالا من الكوردلييه • فى اتخاذ قرار بالنسبة لمستقبل الملكية • وكانت لخطب دانتون فى نادى اليعاقبة جمهـــور مختلط من اليعاقبـــة

والكوردلييه ، وكان يندد فيها بالخائفين على التوقيع ، فخرج أكثر المجتمعين وأسسوا ناديا مستقلا • وفى ١٦ يوليــو ١٧٩١ يقرأ عريضة اليعاقبة الى الجمعية الوطنيــــة على الجماهير بعد ان أبلغ روبسبيير وبتيون فى اليوم السابق (١٥ يوليو ١٧٩١) برأى اليعاقبة فى الموقف السياسى ، وهو انه بما ان الجمعية الوطنية قد أعادت الملك الى عرشه فالعريضة أصبحت غير ذات موضوع • وفى ١٦ يوليو ١٧٩١ أضاف شخص ما الى العريضة فى الشان دى مارس طلب استبدال لويس السادس عشر بالوسائل الدستورية • وكان معنى ذلك اعلان الوصاية على العرش فى نظـــام يجعــل من دوق أورليان وصيا على الملك الطفل لويس السابع عشر وأصر اليعاقبة على اعادة العبارة المضافة وفى ١٧ يوليو بعد الظهر وصل سرجان Sergent ، وكــان رئيس قسم الأوديون حيث منزل دانتون ، فوجد معه ديمولان وفريرون وبرون Brune وفابر ديجلانتين ومورو Moreau وســانتير Santerre أى هيئة أركان الكوردلييه • وفوجىء المجتمعون بوصول ليجاندر Legender برسالة غير مباشرة من الكســاندر دى لاميت Alexandre de Lameth ان يتركوا باريس • وترك دانتون وديمولان وفريرون فورا شقة دانتون الى بيت كان يملكه صهر دانتون فى الريف القريب • وفى هـــذه الأثناء تجمعت الجماهير فى الشان دى مارس وقيل لها ان اليعاقبة قد سحبوا عريضتهم • وبعد أيام صدر الأمر بالقبض على سيرجان وموموروو وسانتير وهيبر وشوميت ثم على ديمــولان وبرون عقب مذبحة شــان دى مارس وتركت الســلطات دانتون لحاله ، حتى استصدروا أمرا بالقبض عليه بتهمة سب لافاييت وقيادات الحرس الوطنى باعتبار انها خدعت الجماهير ليلة فرار الملك •

وهذه نقطة سوداء فى تاريخ دانتون : انه يفـــر الى الريف ولا يتدخل لايقاف مذبحة شان دى مارس • ولاشك ان روبسبيير

كان يعرف بكل هذه المآخذ على سلوك دانتون السياسى ومع هذا استمر فى التعاون معه لغاية محاكمته فى ١٧٩٤ ٠ الاجابة على هذا اللغز تكمن فى تقديرى فى موقف اليعاقبة المعتدل من النظام الملكى وعدم استعدادهم للخروج على الشرعية الدستورية ٠ والمنطق هنا بسيط : قبل أن تخرج القذى من عين صاحبك أخرج الخشبة من عينك أولا ٠

وكذلك فدانتون بسلوكه السياسى الغامض الذى جعل منه وزيرا للعدل برغم ماضيه المشوب كمستشار ملكى يترافع أمام محكمة البلاط فى قضايا النبلاء ، مكنه من اقامة الروابط الخفية مع الجيروند ، أعداء اليعاقبة الألداء مع المحافظة على جسوره مع اليعاقبة ، وهو مسئول أيضا عن شيوع الاتهام الخطير له بأنه كان عينا للبلاط على اليعاقبة وعينا لليعاقبة على البلاط ٠ فهو اذن النموذج الكامل « للعميل المزدوج » ٠

وهنا لابد من الاجابة على هذا السؤال : كيف اتيح لدانتون ان يدفع ثمن المكتب الذى اشتراه فى باريس عام ١٧٨٧ ، وصفاه فى أغسطس فى عام ١٧٩١ ، أى قبل مرور أربع سنوات من انشائه ؟ ان عدد القضايا التى وجدها فريبورج فى تلك الفترة الوجيزة من عمر المكتب ٢٢ قضية فقط قدر كورتوا ، Courtois وهو صديق دانتون قيمتها بمبلغ ١٢ مليون جنيه فرنسى ، وهذا تقدير مبالغ فيه كثيرا ٠ قال كافانياك Cavaignac ، وهو ابن أحد زملاء دانتون فى المؤتمر الوطنى للويس بلان Louis Blanc مؤرخ الثورة الفرنسية ، فى مأدبة عشاء ، وكان فى حالة سكر بين على لسان دانتون : « أن الوقت قد حان ليستمتع الثوار بالدور الفخمة وبالطعام الشهى والملابس الفاخرة ونساء أحلامهم » ، لأن الثورة معركة وغنائمها يجب ان تئول الى المنتصرين ٠ ولما اعترض

الحاضرون على كلامه أكد لهم دانتون ان فى استطاعته ان يلعب دور الصان كيلوت مثل أى شخص آخر ٠

وقد ذكرت مدام رولان ان دانتون اعترف لهـــا بانه يملك ١ر٥ مليون جنيه فرنسى ٠ ولكن بريسو Brissot كان أكثر تحديدا حين ذكر انه رأى ايصالا من دانتون لمونموران Montmorin وزير الخارجية ، بمبلغ ٣٠٫٠٠٠ جنيه فرنسى حتى مايو ١٧٩١ ٠ وهذا المبلغ تكرر فى مذكرات مولفيل Moleville ، وزير البحرية، التى نشرت لأول مرة بالانجليزية عام ١٧٩٧ ، فقد ذكر مولفيل ان تالون ، Talon وهو أحد عملاء البـــلاط فى توزيع المصروفات السرية ، دفع لدانتون مبلغا يتجاوز ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه فرنسى مقابل خدماته فى نادى اليعاقبة ٠ وفى نهاية ١٧٩٢ زعم مولفيل انه يملك دليلا خطيا على تقاضى دانتون أموالا سرية من البلاط وهدد بافشائها اذا صوت ـ دانتـــون فى جانب اعدام الملك ٠ ولكن هذا التهديد لم يؤثر فى اتجاه دانتون فى التصويت ٠

ورتب فابر ديجلانتين وبريسو اختيار دانتون وزيرا للعدل فحلف اليمين فى ١١ أغسطس ١٧٩١ ، ودل هذا على قيـــام بعض الحبال الموصولة بين نادى الكوردلييه وجماعة الجيروند ، فى وقت كان هؤلاء أعداء صرحاء لروبسبيير ولليعاقبة : فاز بأغلبية ٢٢٢ نائبا من ٢٨٤ نائبا كانوا لايزالون يملكون الشـــجاعة لحضـــور جلسات الجمعية التشريعية ٠ وفى رواية ان فابر ديجلانتين ايقظه ذات صباح ليبلغه بنبأ اختياره وزيرا فى الوزارة الجديدة ، وفى ذات الوقت طلب لنفسه منصب سكرتير عام الوزارة فقسم دانتون المنصب الى منصبين ، أعطى احدهمـــا لفابر ديجلانتين والآخـــر لديمولان ٠ وكان دانتون شديد السخاء مع أصدقائه واتبـــاعه ٠ ومما يذكر عن آثار هـــذا ان فابر ديجلانتين احتفظ لنفسه بعقد توريد أحذية للجيش ٠

وقد كانت مدام رولان Madame Roland زوجة وزير الداخلية تحلم باقامة جمهورية رومانية فى فرنسا ، ولكن طباع دانتون لم تكن بالضبط شيشرونية ، فاتهمته بأنه يرسل حثالة المفتشين للتفتيش على الجبهة الداخلية ، ولكنها امتدحت اخلاصه للحرية واقباله على التعاون مع الجيروند • غير انها وجدت فى « حيويته دلالة القوة الشهوانية الحيوانية واجتراء لا نظير له يخفى دانتون نصفه بادعاء المرح واصطناع الصراحة والطيبة » •

وبمجرد تقلده منصب وزير العدل بدا دانتون فى تسديد مديونية مكتبه القانونى قبل حلولها بعامين ، وتعهد بايقاف العنف الشعبى • ومع ذلك فدوره فى مذابح سبتمبر غامض ، وعبارته المشهورة ، المنقوشة على قاعدة تمثاله : « ان الناقوس الذى ستسمعونه يدق ليس مدعاة للانزعاج ، انه اشارة الهجوم على أعداء الأمة • ولكى نقهرهم يجب ان تكون لدينا الجرأة أيها السادة ، ومزيدا من الجرأة ، والجرأة دائما ، بالجرأة وحدها تنقذون فرنسا ! » لا تدل على شىء ، أكثر من اتقاد وطنيته •

ومع ذلك فدانتون لم يستمر طويلا فى منصب « الوزير » فقد خلفه جارا Garat فى منصبه • فى ١١ أكتوبر ١٧٩٢ ، ولم يعرف كيف يعلق على هذا التغيير الا بقوله الساخر : « كل الناس تعرف ان رولان لم يكن وحده فى مكتبه ، أما أنا فكنت وحدى » • ولعله ندم على هذه السخرية المريرة ، فقد كان يعرف انه ليس له أعداء صرحاء ، بين جماعة الجيروند الا مدام رولان وزوجها اللذان كانا يعتقدان بصدق ان مارا وروبسبير ودانتون كانوا عصابة من الفوضويين المغموسين فى مذابح سبتمبر •

والمؤرخون مجمعون على ان صيف ١٧٩٢ كان من أهم الفترات فى تاريخ دانتون على المستوى الشخصى لأنه الصيف الذى عين فيه

وزيرا واستطاع فى أسابيع قليلة أن يسدد ثمن مكتبه القانونى ، وبذلك يتحرر من عبء مديونيته • كذلك فهناك اجماع بين المؤرخين على أن ١٧٩٣ كانت من أهم فترات حياته على المستوى السياسى ، سياسة اللعب على الحبلين ، حبل الجيروند وحبل حزب الجبل ، بما أفقده اعتباره عند روبسبيير واليعاقبة ، وقاده فى ربيع ١٧٩٤ ان يفقد رأسه على المقصلة •

ففى ٢٩ مارس ١٧٩٤ أعدم المؤتمر الوطنى هيبر وزعماء الصان كيلوت وبذلك تحرر من ضغط جماهير باريس • ولكن الجمعية أصدرت قرارا فى ١٩ مارس بمحاكمة فابر ديجلانتين Fabre d'eglantine وشابو Chabot ، وباسير Basire وديلونى Delaunay ، لتورطهم فى فضيحة تزوير مستندات تصفية شركة الهند الشرقية • وكان السؤال الكبير هو : ماذا سيفعل دانتون لانقاذ زملائه (أو شركائه ؟) وبعدها بأيام قليلة (أى فى ٣١ مارس ١٧٩٤) ، قبض على دانتون وكاميل ديمولان ودى لاكروا وفيليو • هذا هو الزعيم الذى كان دائما يعتقد انه لا يمكن ان يمسه أحد •

واتهم دانتون بكل تهمة سياسية الا خراب الذمة •

اتهمه روبسبيير بمناصرة ميرابو والملكيين الدستوريين ودوق أورليان والجيروند ، واتهمه بمعارضة اعدام الملك ، وكذلك اتهمه بتهمتين ثابتتين من تهم الثورة المضادة ، وهما مساعدة ديمورييز على انقاذ الجيش البروسى والتآمر معه فى ربيع ١٧٩٣ على حل المؤتمر الوطنى • وطفحت آثار الغيظ المكبوت أثناء المحاكمة : وضحك دانتون عند ذكر كلمة (الفضيلة) قائلا انه ليست هناك فضيلة أكبر من (الفضيلة) التى يريها لزوجته كل ليلة » •

وقبل القبض عليه أشار عليه بعضهم بالهرب ولكنه علق

بقوله : « نحن لا نستطيع ان نحمل تراب الوطن على نعل حذائنا » .
فلما قبض عليه وسئل على عادة المحاكم عن اسمه وعنوانه أجاب في مرارة : « ان صوتى الذى طالما جلجل دفاعا عن الشعب ·· لن يجد صعوبة فى دحض مفتريات خصومى · فهل يجسر الجبناء الذين يغتابوننى ان يواجهونى بالاتهام ؟ فليسفروا عن وجوههم ، ولسوف أكسوهم بالعار الذى يستحقونه بطبعهم · لقد قلت من قبل ان مسكنى ســوف يكون عاجلا هو النســيان وعنوانى هو البانتيون (مقبرة الخالدين) ، وأنا هنا أكررها ·· وهذا رأسى ليجيب عن كل شيء ·· ان الحياة أصبحت عبئا على ، وأنا أستقبل الموت بصبر نافد » ·

١٩ ـ ماكسيميليان روبسبيير

(Maximilien Robspierre)

اذا كانت هناك شخصية من شخصيات الثورة الفرنسية تجسد تلك الثورة تجسيدا كاملا فهى شخصية روبسبيير • كانت تجربة سييز Sieyes مع الثورة أطول ولكنها كانت أقل عمقا ، وقد قضى روبسبيير ١١ عاما بكلية لوى لوجراند أى لويس العظيم ، وهى كلية جزوتيبيه بباريس بموجب منحة دراسية طويلة وفى أثناء سنوات الدراسة فى كلية لويس العظيم كانت له زمالات لا صداقات لأنه كان تلميذا مبتعدا • وكان من أبرز زملائه فريرون Freron وكاميل ديمولان Camile Desmoulins وكان انطوائيا كثير التلعثم ، وكان متأنيا فى الخطابة ، دائم التنقيح لخطبه •

ثم عاد روبسبيير الى أراس ، مسقط رأسه ، حيث اشتغل قاضيا جنائيا فى الابروشية ولكنه استقال من عمله عام ١٧٨٢ لأنه كان مطالبا باصدار حكم بالاعدام •

● نشرت بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٣٠/٦/٣٠ •

ولد روبسبيير فى أراس فى ٦ مايو ١٧٥٨ وماتت أمـه فى ١٧٦٧ ، وهجر أبوه البيت فى نفس السنة ، وكان لروبسبيير يومئذ من العمر تسع سنوات ، فكأنه نشأ يتيما أو شبه يتيم • وفى ١٧٧٠ التحق بكلية لويس العظيم بباريس ، وهو فى الثانية عشرة من عمره بمنحة ضئيلة قدرها ٤٥٠ جنيها سنويا •

واشترك فى المسابقات الأدبية لغـاية ١٧٨٥ ، وفى ١٧٨٩ كتب بيانا الى سكان الريف وانتخب فى ١٧٨٩ عضوا فى مجلس الطبقات من مدينة أراس ، وفى ١٧٩٢ عين فى وظيفة المدعى العام لمحكمة باريس وأصدر « محامى الدستور » وفى سبتمبر من نفس العام انتخب نائبا عن باريس فى المؤتمر الوطنى • وفى يوليو ١٧٩٣ انتخب عضوا فى لجنة الانقاذ الوطنى منذ بداية عهد الارهاب وادت اتهاماته الى سقوط دانتون فى ابريل ١٧٩٤ • وفى يونيو ١٧٩٤ اعتكف ستة أسابيع ، وفى ٢٦ يوليو ١٧٩٤ ألقى خطابه الأخير وكانت ادانته فى اليوم التالى « ٢٧ يوليو ١٧٩٤ • وفى ٢٨ يوليو أعدم على المقصلة ، وكان عمره ٣٦ سنة •

وفى الجمعية التاسيسية اكتسب روبسبيير بالتدريج سمعة طيبة بين الألف ومائتى عضو بسبب دأبه على العمل وبسبب كثرة تنقيحه لخطبه • ولكن الصحافة لم تكن كريمة معه ، وكانت كثيرا ما تغفل ذكر اسمه أو تتعمد تحريفه لاحراجه وتتجلى ذلك من عزلته السياسية ثم نزوعه الى الارهاب • وبعد شهور من الدأب والمثابرة بدأ النواب ينصتون اليه ، وكانت قوته فى دأبه على العمل وفى اخلاصه وفى طهارة يده • قال عنه ميرابو : « هذا الرجل سيصل بعيدا • انه يؤمن بما يقول » • وكان دائما ينحاز للفقراء فيجمع الفقراء من حوله وكان روبسبيير يؤمن بجان جاك روسو ايمانا أعمى بينما كان بقية أعضاء الجمعية التأسيسية يناورون ويبحثون عن الحلول الوسط ، أما الجماهير فكانت مفتونة به ولكنها كانت تخشاه

لأنه كان يعرف عنها وعن نقاط ضعفها التى ، يمكن استخدامها ضدهـا .

المهم انه عند حل الجمعية التأسيسية كانت شعبية روبسبيير قد بلغت مداها فى سبتمبر ١٧٩١ وسماه الناس رجل الساعة . وكان له وجه قطة أليفة أن غضبت تجلت تحتها ملامح النمر الكاسر . وكان هناك تناقض شديد بين مظهره ومخبره فبالرغم من انه كان زعيم الصان كيلوت الا انه كان دائما شديد العناية بهندامه وشعره الذى كان دائما يضع عليه البودرة رغم ان هذه الموضة الارستقراطية كانت قد انتهت . وكان دائما يلبس نظارات ملونة خضراء .

وبعد حل الجمعية التأسيسية فى سبتمبر ١٧٩٢ زار روبسبيير أراس ، فوجد مظاهرة فى استقباله خارج المدينة حتى الارستقراط الذين لم يكونوا يحملون له ودا خاصا أضاءوا له قصورهم . ومدام رولان أرسلت اليه تحياتهـا بعد ان غادرت باريس وعادت الى الأرياف . وبعد موت ميرابو لم يكن هناك من يجادل فى زعامته للثوار .

وقد مر روبسبيير بأزمتين كبيرتين فى حياته : الأولى كانت حين نشرت أجزاء من خطاب له عن موضوع القساوسة الذين تقرر ابعادهم لأنهم رفضوا أداء يمين الولاء لدستور الكنيسة المدنى ، الذى استحدثته الثورة فى حين كان روبسبيير متحمسا للتشريع الثورى ، رغم انه كان يرى ما يراه روسو من ان الدين مهم لأنه لبنة هامة فى بنيان المواطنة . والأزمة الثانية كانت وقوفه وحده معزولا فى رفضه للحرب ضد القوات الأجنبية القادمة لاخماد الثورة، مما جعله يقف موقفا سلبيا فى شتاء ١٧٩١ وصيف ١٧٩٢ . ولكنه صحح موقفه بذكاء بالمزايدة فى الوطنية على بريسو Brissot ودعاة الحرب . وبدأت معالم الدكتاتورية تظهر فى خطبه فى مثل قوله le faut une volonte une أى « نحن بحاجة الى ارادة

واحدة ، واحدة » ، ولاسيما بعد اعــدام الملك ، وخرج بنظريته القائلة بأن أخطار الفوضى أقل ضررا من أخطار الأوليجاركية ، وان سلامة الشعب تجب شكليات العدالة • وفى ٣ ديسمبر اعترض على اقتراح الجيروند بالرجوع الى الشعب أو الاستفتاء على اعدام الملك « ٢٨ ديسمبر » لأنه يبلبل الخواطر ويشجع المعارضة • ثم جاء اقتراحه فى ٢٤ ابريل بتحديد الملكية لصالح الفقراء • كل هذه كانت اتجاهات عند روبسبيير تدل انه كان ينفض عنه ليبراليته الأولى ويفكر فى اقامة عهد الارهاب •

حتى هذه المرحلة كان روبسبيير فى المعارضـة • وبازاحة الجيروند أصبح مطلق اليد فى فرنسا • وبالنسبة لنواياه فقد كانت صريحة وقد عبر عنهـا فى تقرير ٥ فبراير ١٧٩٤ • تسـاءل روبسبيير : « ما هو هدفنا ؟ أن ننعم فى هدوء بالحرية والمساواة ونعهد العدالة الأبدية المنقوشة قوانينه ، لا على الرخام أو الحجر ، بل فى قلب كل رجـل ، حتى العبد الذى ينسى ان له حقـوقا والطاغية الذى ينكر هذه الحقوق ، نريد اقامة نظام من الأشياء تغلل فيه كل العواطف الوضيعة والقاسية وتوقظ القوانين كل العواطف السخية والكريمـة ، ويصبح الطموح هو العمل فى سـبيل مجد الوطن وخدمته ، بحيث لا تكون هناك امتيـازات الا الامتيـازات المؤسسة على قاعدة المساواة • نظام يطيع فيه المواطن القاضى ويطيع فيه القاضى الشعب ويطيع فيه الشعب حكم العدالة الذى تضمن فيه البلاد ومجدها ، وتزداد كل نفس نبلا بالاشعاع المستمر للمشاعر الجمهورية وبالحاجـة الى تقدير شعب عظيـم ، فيه تتجمل الحرية بالفنون ، وتكون التجارة فيه مصدر الثراء وليس مجرد التكدس البشع لثروات قليلة خاصة • نحن نريد أن نستعيض فى بلادنا بالأخلاق بدلا من الأنانية ، وبالأمانة بدلا من الأطماع ، وبالمبادىء بدلا من التقـاليد ، وباداء الواجب بدلا من الجرى وراء الربـح ،

وبالخوف من الرذيلة بدلا من الخوف من الحظ العاثر . نريد ان تضع الكبرياء مكان الوقاحة والقلب الكبير مكان الغرور وحب المجد مكان حب المال . نريد ان تحل ضحية الخير محل الصحبة الجميلة ، وان تحل الجدارة محل القدرة على التآمر ، والعبقرية محل الذكاء اللماح والصدق محل ذراية اللسان ، والسعادة محل اللذة ، وعظمة الانسانية محل ما يسمونه شعبا ودودا تاعسا ، وتحل محل رذائل الملكية وحماقاتها فضائل الحكومة الجمهورية ومعجزاتها . باختصار نحن نريد أن نحقق عهود الطبيعة لسبيلي الانسان ونفي بعهود الفلسفة ونبرئ الذمم من حكم مرير في الجرائم والطغيان عسى فرنسا التي كانت سيئة السمعة بسبب انتشار العبودية فيها ، يسطع فيها الآن نور الحرية فيكسف ضياؤها مجد سائر الشعوب الحرة في التاريخ ، وتصبح نموذجا للشعوب ، بل وتصبح « بعبعا » يخيف الطغاة وتصبح العزاء الماثل للمسحوقين في الأرض . يجب أن تصبح فرنسا جوهرة الكون . وعسى اننا ونحن نمهد لعملنا بدمنا أن نرى على الأقل الشعاع الأول للسعادة الحميمة . ذلك هو أملنا وتلك هي غايتنا » .

ومن يتأمل أسلوب هذا الكلام يجده أشبه شيء بأسلوب الوعاظ الجزويت القائم على التوسع في استعمال المتناقضات اللفظية والمعنوية ، وصدق من قال ان روبسبيير كان يغزل خطبه على طريقة شغل الابرة اسوة بجمهوره من النساء .

وكيف يمكن أن يحقق كل هذه الأحلام ؟ بالديمقراطية المؤسسة على الفضائل العامة ، وهي أول ديمقراطية حقة رآها العالم : بحكومة تثق في الطبيعة الخيرة لبني الانسان : « الفضيلة التي بدونها يصبح الارهاب كارثة ، والارهاب الذي بدونه تصبح الفضيلة عاجزة » . الى أي مدى كان روبسبيير نفسه قادرا على تحقيق ذلك ؟ كانت حكومة الثورة تقوم على أربع مؤسسات هي المؤتمر الوطني واللجان

وممثلى اللجان المفوضين ومحكمة الثورة · وفى المؤتمر الوطنى لم يكن روبسبيير أكثر من الرئيس الخامس والعشرين ، فهو لم يكن قويا بحيث يستطيع ان يملى ارادته أو أن يملى سياسته ولكن وضعه فى لجنة الخلاص الوطنى جعل من الصعب معارضته ولاسيما كلما اندمجت معها لجنة الأمن العام كما حدث فى محكمة هيبير Hebert دانتون Danton فقد كان روبسبيير المتحدث الرسمى للجنتين معا · كان كارنو Carnot وسان جوست Saint-Just وكوتون Couthon وبيوفارين Billaud Varenne كولوديربوا Collot-D'Herbois يمثلون الجانب السياسى فى هذه اللجنة ، كما أثبت اعدام سيسيل رينو Cecile Renaut الفتاة التى اتهمت بمحاولة اغتيال روبسبيير وجعلته ينتقل من شقته فى ١٧ يوليو ١٧٩١ ليقيم فى منزل دوبلاى Duplay فى حى سانت أتوريه · وكان لدوبلاى أربع بنات هن الينور وصوفيا وفكتوريا واليزابيت ، وكلهن قائمات مع الأم على خدمة روبسبيير · وجاء ذكر الزواج فاقترح أحد الحاضرين ان طول العزوبية قد جعل من روبسبيير رجلا فظا واجدى به ان يتزوج بنتا من بنات دوبلاى ، فانتفض روبسبيير غضبا وقال : « أنا لن أتزوج أبدا » أى
Je Me me mariérai jamais

ورغم ان روبسبيير لم يكن قط دكتاتورا فمن العبث ان يقال انه كان يأبى ان يكون كذلك · وفى ٧ مايو ١٧٩٤ كتب روبسبيير تقريره المشهور الذى أدخل به عبارة « الكائن الاسمى » وسماه « تقرير عن العلاقة بين الدين والأفكار والمبادىء الجمهورية » وفيه يستعرض روبسبيير التقدم من « حكم الجريمة الى حكم الفضيلة » قائلا : « لقد أنجزنا نصف برنامج الثورة العالمية : « ومن ذا الذى فوضكم ان تعلنوا للناس انه ليس هناك شىء الهى ·· وماذا يستفيد الانسان لو اقتنع بأن قوة عمياء تسيطر على مقدراته ، وتضرب عشوائيا فى كل اتجاه : آنا بالفضيلة وآنا بالجريمة ؟ أو

أن روح الانسان مجرد بخار خفيف يتبدد عند فتحة القبر ؟ وهل فكرة تلاشي الانسان ستوحي له بأشياء أشد نقاء من فكرة خلوده ؟ هل ستزيد من احترامه لنفسه ولأخوته فى الانسانية أو تحفزه الى ولاء أكبر لوطنه ؟ هل ستزيد من صلابته فى مواجهة الطغيان أو تعمق احتقاره للملذات أو للموت ؟ » « حتى القول بوجود الله وخلود الروح ، ستكون أجمل ما ابتكره عقل الانسان ٠

وبهذا يكون روسو صادق الوعد نبيا ٠ وهو يصرخ فينا : « أيها المتعصبون ! ليس لدينا ما نعطيه لكم ! ان دعوة الناس من جديد الى عبادة الكائن الاسمى فيه الضربة القاضية للتعصب ٠ وأمام العمل تتهاوى كل الحماقات فى نور الحقيقة ٠ فبلا اكراه وبلا اضطهاد تندمج كل الطوائف فى ديانة الفضيلة » ومع الطائفية ينتهى الكهنوت أيضا : فالطبيعة هى الكائن الاسمى ، ومعبده هو الكون ، وعبادته هى الفضيلة ، وأعياده تتمثل فى السعادة التى يطفح بهـا شعب عظيم اجتمع تحت بصره ليجدد روابط الاخـوة الشاملة الجميلة وليقدم فروض الولاء التى تكنهـا القلوب التقية الحساسة ، والخلاصة : يجب أن يعلن المؤتمر الوطنى : « ان الشعب الفرنسى يعترف بوجود الكائن الاسمى وبخلود الروح » ٠ ويجيز ديانة مقامة من الدولة على هذا الأساس ٠

ولكن روبسبيير تجاوز كل ذلك وبدأ يندد بالالحاد كلما تكلم عن دانتون وهيبير ، وتحول من كاهن أعلى الى رئيس لمحكمة التفتيش فى نظام بيوريتانى مغلق يكره الناس على الذهاب الى الكنيسة كل يوم أحد على طريقة المطوعين بل ما هو أقسى ٠ وقد أوحى روبسبيير باقتراب نهايـة فترة سلطتـه ففهم الناس أنه يتكلم عن مزيـد من الاعدامات ٠ وفى آخر خطاب له فى ٨ ترميدور علم روبسبيير ان حياته يهددها تحالف بين لجنة الأمن العامة ولجنة الخلاص الوطنى : يهددها فاديه Valieh واعداء رجال الدين ، ويهددها فوشيه

Fouchet الذى كان ضالعا فى دعاية شوميت Chaumette المناهضة للكاثوليكية ، ويهددها كارنو Carnot الذى تشاجر مع ســـان جوست ، ويهددهـــا ديربوا collot d'Herbois وبيوفارين Billiaud varenne اللذان ســـبق ان فصـــلهما روبسبيير من نادى اليعاقبة ، ويهددها تاليان Tallien الذى كانت عشيقته مهددة بالموت على المقصلة ، ويهددهـــا حزب يرأسه بـــارا Barras ومـــيرلان Merlin وكورتوا Courtois من داخل المؤتمر الوطنى •

وبالنصر الأخير فى فلوريس Fleurus زال كل خطر عن البلاد ، فلم يعد هناك مجال لارهاب الناس • وتراجـــع روبسبيير وأنكر ان فى نيته اقامة حكم دكتاتورى فى فرنسا ، ولكنه أصر فى الوقت نفسه على ضرورة تطهير لجنـــة الأمن العام ولجنـــة الخـــلاص الوطنى • ونشط اعـــداء روبسبيير فلم تمض ٢٤ ساعـــة الا وكان روبسبيير مقبوضا عليه • لقد كانت الكثرة الضاربة التى يعتمد عليها روبسبيير هى الحرس الوطنى بقيـــادة هنريو Henriot ولكن هنريو كان يومئذ سكران ورجاله لم ينتظروه تحت المطر فى ذلك اليوم عند الهوتيل دى فيل • وفجأة غزا جنود المؤتمر الوطنى الهوتيل دى فيل وهنا اخرج روبسبيير مسدسه وافرغه فى حلقه ولكنه لم يمت بل بقى ممددا بين الموت والحياة على المائدة التى وقع عليها الحكم باعدام هيبيرودانتون ومن الساعة ١١ الى الساعة ٤ سجن مع سجنائه فى الكونسير جرى • وفى الرابعة طافوا به فى الشوارع على عادتهم • وكان الجمهور الذى ينبغى ان يخف لنجدته يحملق ويهتف ، وفى السابعة سقطت رأسه تحت الجيلوتين • وهذه قصة رجل نظيف اليد عاش فقيرا ومات فقيرا • وهكذا كانت سمعة : « الرجل الذى لا سبيل الى افساده » • وكان به عيبان : انه كان يحب الملق أو على الأقل أن يتحدث الناس عن فضائله •

الارهـــاب الأعظم بدأ بقانون ٢٢ بريريال ـ Prairial في السنة الثانية من التقويم الجديد « ١٠ يونيو ١٧٩٤ » في أول بريريال ٢٠ مايو ١٧٩٤ نظف كولو ديربوا Collet d'Herbois سلاحا انطلقت منه اعيرة نارية وفي ٤ بريريال « ٢٣ مايو » قبض على سيسيل رينـو Cicile Renault التي بدا انها كانت تريـد اغتيال روبسبيير ٠ وأكدت سيسيل معاداتهـا للثورة وكشفت عن استمرار الثورة المضـادة وعن وجـود « المؤامرة الاستقراطيـة » ٠ واستنهضت موجة ارهابية أقسام باريس ٠ قال كوتون Couthon ان الارهاب أصبح شيئا بسيطا واعلن « ان الأمر لايقف عند اعطاء بعض الأمثلة ، ولكن يجب سحق اذناب الطغيان الذين لايهدأون » ٠ وهكذا أصبحت المحاكمات شكلية ٠

ومن مارس ١٧٩٣ اعدم في باريس وحدها لغاية ٢٢ بريريال (مايو) في السنة الثانية من التقويم الجديد وعلى الجيلوتين منـذ صدور قانون الارهاب الأعظم ١٣٧٦ و حتى ٩ ثرميدور (يوليـة) أعـدم في سـجون باريس ١٢٥١ سجينا « في بيستر Bicetre ولكسمبورج Luxembourg وكارم Carmes وسان لازار San Lazare وكانت الرءوس تتهـاوى كالاردواز كمـا قال فوكيـه تانفيل Fouquier-Tinville المدعى العام وقد بلغ عدد المقبوض عليهم نحو ١٠٠٫٠٠٠ ، وفي بعض التقديرات ٣٠٠٫٠٠٠ ٠ وبلغ عدد من نفذ فيهم حكم الاعدام بين ٣٥٫٠٠٠ و ٤٠٫٠٠٠ ويشمل هذا العدد من اعدموا دون محاكمة كما في طولون ونانت ٠ ووفقا لهذا التقدير بلغ عدد المحكوم عليهم بالاعدام ١٦٫٥٩٤ من مارس الى سبتمبر ١٧٩٣ سجينا ، ومن أكتوبر ١٧٩٣ الى مايو ١٧٩٤ ، ١٠٫٨١٢ وفي يونيو ويوليو ١٧٩٤ : ٢٥٥٤ ، وفي أغسطس ١٧٩٤ : ٨٦ حكما بالاعدام ٠

أما التوزيع الاقليمي فهو كالآتي : في باريس ١٦٪ ، و ٧١٪ في منطقة الحرب الأهلية ، منها ١٩٪ في جنوب شرق فرنسا و٥٢٪

فى غربها واما طبقيا فالتوزيع كالآتى : ٨٤٪ من الطبقة الثالثة « البورجوازيون ٢٥٪ ، الفلاحون ٢٨٪ ، الصان كيلوت ٣١٪ » ويلاحظ ان نسبة النبلاء الذين اعدموا لم تتجاوز ٨ر٥٪ أما رجال الدين فالنسبة هى ٦ر٥٪ .

« المساواة فى الملكية وهم باطل » هكذا قال روبسبيير فى المؤتمر الوطنى فى ٢٤ ابريل ١٧٩٣ » وقد أدان « القانون الزراعى » الاشتراكية فى الملكية الزراعية . وقبل ذلك أصدر المؤتمر الوطنى قانون فى ١٨ مارس ١٧٩٧ يقضى باعدام كل من يدعو الى الاشتراكية والقضاء على الملكية الزراعية . ولكن روبسبيير وحزب الجبل بوجه عام كانوا ضد الثراء الفاحش باعتباره مصدر الجرائم .

وفى تصورى ان مأساة روبسبيير نبعت من انه تصور انه نبى وانه يكفى ان يبدل الاسماء التى استقرت فى الوجدان العام حتى يصدق الناس انه اتى بجديد ، وهو لم يأت بجديد . فتاريخ الأديان الراقية منذ الفراعنة يثبت ان المقولات الأساسية لن تتغير بل لعلها اشتدت رسوخا مع الأيام . فما يسميه روبسبيير بالكائن الاسمى هو ما يسميه رجل الشارع « الله » وقد زعمت عبادة « الكائن الاسمى » اعطاء قاعدة ميتافيزيقية لخطب روبسبيير الذى كان يمقت الفلاسفة الملاحدة من أمثال هلثيوس Helscius الذى حطم روبسبيير تمثاله النصفى فى نادى اليعاقبة وكان يمقت مادية كوندياك وكان عاجزا عن تصور المقولات الدينية عن طريق الحواس لأنه كان يؤمن بوجود الله وبوجود الروح وبالعالم الآخر .

وفى ١٨ فلوريال من السنة الثانية من التقويم الثورى قرر المؤتمر الوطنى « ان الشعب الفرنسى يؤمن بوجود الكائن الأسمى وبخلود الروح » وتحدد يوم ٢٠ بريريال من السنة الثانية من التقويم الثورى « ٨ يونيو ١٧٩٤ » للاحتفال بهذه المناسبة وسار الموكب المهيب من حدائق التويلرى الى الشان دى مارس على انغام.

موسيقى مهيبة • ولكن ذلك سبب صدعا فى حكومة الثورة لأن العلمانيين لم يغتفروا لروبسبيير قانون ١٨ فلوريال من السنة الثانية من تقويم الثورة ، وكان بالطبع أكثرهم عداوة له دعاة اقتلاع المسيحية فى فرنسا •

وفى ٨ ترميدور « ٢٦ يوليو ١٧٩٤ » هاجم روبسبيير فى المؤتمر الوطنى أعداءه وحملهم المسئولية ووصفهم بأنهم منفقون ولكنهم فى حقيقة الأمر متشددون • غير انه رفض ذكر أسماء أشخاص بالذات ، وفى المساء كان روبسبيير يصفقون له فى نادى اليعاقبة ، وكانت اللجنة قد انفرط عقدها وهى فى حيرة من أمرها • وكانت المؤامرة قد حيكت خيوطها أثناء الليل • وفى ١٠ ترميدور « ٢٨ يوليو ١٧٩٤ » قبض على روبسبيير وسان جوست وكوتون و ١٩ من انصارهم واعدموا دون محاكمة ، وفى اليوم التالى اعدم ٧١ أخرون من أنصارهم وهى أكبر دفعة سيقت الى الجيلوتين فى منطقة واحدة •

وانتهى هنريو Hanrio قومندان الحرس الوطنى وعلى ديماس رئيس محكمة الثورة وبين ١٨ ترميدور و ٢٣ ترميدور أفرج عن نحو ٥٠٠ معتقل من المشبوهين •

أطلق أعداء روبسبيير عليه نائبا مغمورا اسمه لوتشيه طالب باعدامه وأقر الاقتراح باجماع الآراء •

عجيب أمر هؤلاء الثوار ، فالتقويم الثورى من وضع فابر ديجللنتين وهو من مواليد كاركاسون على الحدود الفرنسية الاسبانية عام ١٧٥٠ وفى ١٧٧١ دخل فى مسابقات فى تولوز ثم بدا السفر مع الفرق المسرحية بين ١٧٧٢ و ١٧٨٧ وفى ١٧٨٧ استقر فى باريس • وكان يمثل دور فيلانت لموليير عام ١٧٩٠ وفى ١٧٩٢ اشتغل سكرتيرا لدانتون أيام ان عين وزيرا للعدل • وعين عضوا فى لجنة الخلاص الوطنى حتى ١٧٩٣ ثم أعدم فى ١٧٩٤ مع دانتون وعمره ٤٤ سنة لاشتراكه فى تزوير صكوك شركة الهند بعدما وضع التقويم الجمهورى وقدمه للمؤتمر الوطنى ونجح فى أجازته •

واقترح على المؤتمر الوطنى الغاء التقويم المسيحى ، فكل شهر فى التقويم الثورى مكون من ٣٠ يوما تبدأ فى ٢٢ سبتمبر وهكذا تبدأ السنة فى : ٢٢ سبتمبر شهر التخمير وأصبح اسمه فاندمير Vendemiaire ، ٢٢ أكتوبر شهر الضباب وأصبح اسمه برومير Brumaire ، ٢٢ نوفمبر شهر الصقيع وأصبح اسمه فريمير Frimaire ، ٢٢ ديسمبر شهر الثلوج وأصبح اسمه نيفوز Nivose ، ٢٢ يناير شهر المطر وأصبح اسمه بلوفيوز Pluviose ٢٢ فبراير شهر الرياح وأصبح اسمه فنتوز Ventose ٢٢ مارس شهر البراعم وأصبح اسمه جيرمينال Germinal ٢٢ ابريل شهر الزهور وأصبح اسمه فلوريال Floreal ، ٢٢ مايو شهر المراعى وأصبح اسمه بريريال Prairial ، ٢٢ يونيو شهر المحصول وأصبح اسمه مسيدور Messidor ، ٢٢ يوليو شهر الحرارة وأصبح اسمه ترميدور Thermidor ، ٢٢ اغسطس شهر الفاكهة وأصبح اسمه فروكيتدور Fructidor ٠

وأقر المؤتمر هذا التقويم فى ٥ أكتوبر ١٧٩٣ وكان القصد من ذلك الغاء التقويم المسيحى ٠

ومع ذلك فلم تمض الا أربعة شهور الا وكان فابر ديجلانتين مقبوضا عليه ومتهما بتهمة مشينة هى التزوير فى صكوك شركة الهند المزمع تصفيتها وبهذا أصبح طريقه الى المقصلة واضحا ووجيزا ورغم هول قانون فابر ديجلانتين من وجهة نظر روبسبيير الذى لابد وانه ازدرده كالعلقم لأنه ينطوى على حرب العقائد بين مختلف أجنحة الثورة الفرنسية لم نسمع أحدا يقول : الغوا التقويم الكافر أولا ثم تعالوا بعد ذلك نتحاسب : لأن القانون هو القانون : وفابر ديجلانتين لاشك كانت معه أغلبية فى المؤتمر الوطنى حتى فاز قانونه « المدنى » بالأغلبية الملزمة ٠ وبالفعل مضى على اصدار هذا القانون عشرة أعوام حتى أعيد فتح ملفه وأعيد النظر فيه ٠ أجل ان لهم عقلية تختلف عنا كل الاختلاف : فهى عقلية قانونية عملية ٠

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩١/٩٨١٨

ISBN - 977 - - 01 — 2927 — 5

لقد شاء لويس عوض قبل أن تسقط أوراق عمره أن يودعنا بهذا الكتاب الرائع الذى بين أيدينا عن الثورة الفرنسية . وهو كتاب إن دل على شىء فإنما يدل على أن صاحبه ليس أديبا أو ناقدا بارزا فحسب ولكنه مؤرخ أيضا من طراز فريد . والذى لا شك فيه أن لويس عوض واحد من أهم رواد التنوير فى العالم العربى فى النصف الثانى من القرن العشرين .

عاش لويس عوض أديب مصر الكبير ومات ثائرا فما أشبه الليلة بالبارحة . بدأ حياته بالترجمة عن سيد الثوار الرومانسيين جميعا برسي شيلى صاحب التحفة الأدبية المعروفة « بروميثيوس طليقا » وها هو يختمها بالكتابة عن الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ، بمناسبة ذكرى مرور مائتى عام على قيامها واحتفال فرنسا بهذه الذكرى العزيزة عليها .

والجدير بالذكر أن آخر عبارة سطرها الراحل العظيم قبل وفاته كانت دفاعا مخلصا وشريفا عن ضرورة سيادة القانون والعدل فى كل مكان .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٤١٠ قرش

To: www.al-mostafa.com